اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية

العدد الرابع والعشرون - السداسي الأول - 2010

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

العدد الرابع والعشرون

اللُّغةُ العربيّة

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها
يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.
المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرّا بالضرورة عن موقف المجلس.

قواعد النشر

- ✓ التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها : كالتوثيق..
- ✓ أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ✓ ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- ✓ أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- ✓ المقالات التي ترد إلى المجلة لا تردّ إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر
ص.ب . 575 ديدوش مراد – الجزائر
الهاتف: 25/24 07 23 21 (00213)
الناسوخ:07 07 23 21 (00213)
الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) :1112 ـ 3575
الإيداع القانوني:02 20/7

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

من عوامل نشأة الشعر الحرّ في أدبنا المعاصر

أ.د. مختار نويوات

كثيرا ما أسمع في الملتقيات التي تُعْقَدُ، هنا وهناك، وفي ندوات جامعيّة، قصائد ممّا يُدْعى بالشعر الحرّ أو يرى أصحابه مخلصين أنّه كذلك، معجبين بإبداعهم إلى أقصى حدود الإعجاب، جاهدين مجتهدين في إبراز روعته وجماله بما أوتوا من قدرة في الأداء الصوتيّ.

وكثيرا ما أسألُ المترشّحين إلى شهادة دكتوراه الدولة عن تعريف الشعر الحرّ، في دراستهم لبعض نماذجه، وعن نشأته وأسبابها وعن تطوّره في النصف الثاني من القرن العشرين فأجدهم لا يعرفون عن ذلك شيئا. بل رأيتهم لا يميّزون بينه وبين ما سمّاه بعضُ أدباء المهجر، في القارّة الأميريكيّة، بالقصيدة النّثريّة وحذّروا من أن يُخْلَطَ بينها وبين النّثر.

فإلى طلبتي أوجّه هذه الكلمة، لا هيّابا ولا وَجِلا، لأنّني أستاذهم ولأنّهم عرفوا مقدار محبّتي وإخلاصي لهم وإلى من أكنُّ له المودّة والتقدير من شباب وطني الذي "لو شُغِلْتُ بالخُلْد عنه ..."

وأقرّر صادقا، ورغم ما توحي به مقدّمة هذه الكلمة، أنّني لا أفضّل الشعر العموديّ على الشعر الحرّ؛ فلكلّ منهما عباقرة وسبّاقون، وفي كلّ منهما متطفّلون على الفنّ والفنّ يتبرّأ منهم. وقديما قيل :

وَكُلٌّ يَدَّعي وَصْلا بِلَيْلى وليْلى لا تُقِرُّ لَهُ بذاكا.

عكف الأدباء العربُ بعد اطّلاعهم على الآداب الأجنبيّة من أوروبيّة وهنديّة وفارسيّة على نقلها إلى العربيّة فانقاد لهم النثر واستعصى عليهم الشعر كما استعصى على غيرهم. فَلِكُلّ لغة خصائصها ولكُلّ جنس تفكيره وعاداته ولكلّ شعر مقاييس وطرائق في التعبير ودلالات رمزيّة لا يشاركه فيها غيره لانتمائه إلى حضارات متباعدة وثقافات هي نتيجة البيئة بأوسع معانيها والبيئة جغرافيّة كانت أم ثقافيّة أم اقتصاديّة تختلف من أرض إلى أرض ومن عصر إلى عصر ومن عِرْق إلى عرق.

نقلوا الشعر الأجنبيّ إلى النثر العربيّ للمحافظة على روحه ومعانيه وجماله فهمدت روحه وبَهتتْ معانيه وشاهَ جمالُه فَمُجَّ لزوال رونقه. ما كان شعرا بإيحاء كلماته ومتعةً بتأثير موسيقاه فَقَدَ وسائله فأخطأ مرماه. ولم يسلم من كُلّ ذلك إلاّ النزر القليل من النماذج الشعريّة الرفيعة كمقاربة المنفلوطيّ لقصيدة " الصلاة " La prière pour tous)) للشاعر الفرنسيّ فكتور هيجو. ولا عجب في ذلك فالمنفلوطيّ مبدع النثر الحديث وأسلوبه إلى الشعر أقرب منه إلى النثر.

عدلوا عن النثر إلى الشعر العموديّ معتمدين مبادئ العروض كما قرّرها الخليل فأرهقهم البحر الواحد وأعنتهم الرّويّ وعجزوا عن التوفيق بين النصّين الأجنبيّ والعربيّ فنوّعوا في البحر وفي الرّويّ كما فعل الأندلسيّون قبلهم في موشّحاتهم فما أغنى عنهم ذلك فتيلا. كثرت هذه المحاولات في أواخر العشرينيّات وفي الثلاثينيّات وبالأخصّ في الدوريّات وفي مقدّمتها مجلّة "الرسالة" التي كان يديرها أحمد حسن الزيّات.

وجدوا أن لا شعر بلا موسيقى وبدون وزن فراح المنظّرون يقترحون الحلول لمشكلة نقل الشعر الأجنبيّ إلى الأدب العربيّ. ومن جملة ما اقترحوا المحافظة على الأوزان الخليليّة وإرسالُ الرويّ، فنشأ ما سُمِّيَ آنذاك بالشعر المرسل. وهو ما يُلْتَزَمُ فيه البحر ويختلف الرويّ من بيت إلى آخر تبعا للمعنى. ومن نماذجه بعض المقطوعات في مسرحيّة " عنترة " لشوقي.

تحرّر الشعر المرسل من الرويّ، ولا أقول من القافية لأنّ الرويّ غيرُ القافية، ولم يتحرّر من العروض فكان ذلك عقبة في سبيل الترجمة ومَدْعاة لنفور القارئ من هذا النوع غير المُجدي رغم سهولته. وقديما لم يعدّ الأدباء الرجز شعرا حقيقيّا مع أنّه مؤسَّس على رويّين متتابعين فيبقي محصورا في نظم المتون العلميّة.

ومن الشعراء من آثر مقاربة المعنى على الترجمة " الصّادقة " وإن كان الصدق الصادق مستحيلا في الترجمة نثرا كانت أم نظما؛ إنّما يُسْتَعْمَلُ اللّفظ على سبيل التجوّز. وتدعى هذه الطريقة تطويعا. والتطويع الناجح إبداعٌ ثانٍ وإن تَرسَّمَ فيه المُطوِّع خُطى الشاعر الأصليّ. تغلب فيه الروح العربيّة ومقوّماتها وخصائصها وأسُسُ جمالها الفنيّ. فهي نقل من بيئة إلى بيئة وهي تعريب لا ترجمة. ومن خير ما رأيت في ذلك، على كثرة نماذجه، تطويع حافظ إبراهيم لقطعة من مسرحيّة "ماكْبيث" لشكسبير. تقرؤها فتجزم، لولا مطلعها، أنّها من نفحات المتنبّي أو البحتريّ أو أبي تمّام. غير أنّ هذا النّوع من المقاربات يقتضي العبقريّة الفذّة والموهبة الشعريّة المتميّزة وعناية اللّه. وهي من النادر.

في ثورة عارمة على القصيدة العموديّة أو شبه العموديّة وعلى العروض الخليليّ دعا بعض الشعراء والمنظّرين إلى التحرّر من أغلال البحور المركّبة والحرف الواحد رويّا والبيت بشطريْه وبعروضه وضربه. ودعوا إلى ما سمّوه "الشعر الحرّ".

البحور التي استساغها الشعراء ونظموا عليها من الجاهليّة إلى يومنا هذا تنقسم في النظريّة الخليليّة إلى بسيط ومركّب. فالبسيط ما أُسِّسَ على تفعيلة واحدة كالكامل (متفاعلن)، والهزج (مفاعيلن)، والرمل (فاعلاتن)، والمتقارب (فعولن)، والرجز (مستفعلن)، والمتدارك (فاعلن). والمركّب ما رُكّب من بحرين كالطويل المؤلّف من المتقارب والهزج (فعولن مفاعيلن أربع مرّات)، والمديد المكوّن من الرّمل والمتدارك (فاعلاتن فاعلن أربع مرّات: في النظريّ)، والبسيط الجامع بين الرجز والمتدارك (مستفعلن فاعلن أربع مرّات).

أقصى المنظّرون للشعر الحرّ البحور المركّبة ولم يعتمدوا إلاّ البسيطة فلا نجد فيه إلاّ تفعيلة واحدة لازمة في القصيدة كلّها. ولم يحتفظوا لا بالرويّ ولا بعدد التفاعيل كما قرّرها الخليل وثبّتها الأدب العربيّ طوال القرون الستّة عشر. لذلك نجدُ التفعيلة الواحدة يختلف عددُها من بيت إلى آخر. وبَرّر المنظّرون كُلّ ذلك بأسباب عديدة لا يتّسعُ المقام لذكرها. وكان فيهم المقتصدُ كنازك الملائكة والمغالي كالكثير من اللّبنانيّيْنَ المتأثّرين بالآداب الغربيّة الدّاعين إلى التجديد الكامل في الصورة والمضمون. وسنعود إلى هذه القضيّة ودواعيها ببعض من التفصيل وفي مناسبات أخرى.

إنّ ما دعاني إلى إيثار هذه القضيّة ما سمعت أو قرأت لطلبتي ولبعض الناشئة من إبداع يرونه " شعرا حرّا " وليس منه في شيء لأنّهم لا يلتزمون بمبادئه. رأيتهم ينثرون ظانّينَ أنّهم ينظمون، أو يمزجون النثر بالنظم معتقدين صادقين أنّ الحريّة في هذا المزج، أو ينتقلون من تفعيلة إلى أخرى جاهلين أن الشعر الحرّ لا يسمح لهم بذلك، أو غير منتبهين، لعدم تمكّنهم من الوزن ومن موسيقى الشعر العربيّ.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ الوسيلة الوحيدة للإبداع في الشعر، مهما كانت الطريقة المتّبعة فيه، الموهبة، وهي من اللّه، والتمرّس بنماذجه السامية الخالدة تمرّسا حقيقيّا قوامه المثابرة والحسّ المرهف والبديع الجميل الذي جُبِلَتِ النفوس على حُبّه.

النّظام النحوي
في مستوى النصّ

أ.عبد الجليل مرتاض
(ج. تلمسان)

إشكالية الموضوع

إنّ الجرأة على تناول موضوع مثل موضوع "النظام النّحوي في مستوى النص" جراءة لا تخلو من مغامرة غير مأمونة العواقب والنتائج، بسبب التآلف والتنافر اللّذين يسودان فيما نتصور، موضوعا مثل هذا، ولو كان موضوعنا هذا يدخل في إطار ما يسمّى تداخل الاختصاصات، لكان الأمر علينا أهون،ولكنه موضوع يتسم بالتداخل الذاتي، وليس له من سبيل ملموس حتى يُدرك منه وجه بالقياس إلى وجه آخر، وهو في الوقت نفسه، لا تُدرك معالمه إلا بالإحالة على عناصره اللّسانية التي تكوّنه، ومع ذلك، فإننا سنحاول أن نقتصر بوجه أخص على النظام النحوي في مستوى النص، مع مراعاة التقاطعات التي تفرض نفسها فرضًا عفويًا وهي تقاطعات داخلية، ما من شك، في أنها ستعمل على تقريب ماهو بعيد، ونبذ ماهو سطحي، ولكننا مع ذلك، لن نسمح لفضولنا للدخول في تأويلات شائكة قد تقودنا إلى متاهات ذهنية أو ميتافيزيقية، في الوقت الّذي نتبنّى فيه بقوة الطرح القائل بأن اللّسانيات هي الدراسة العلمية للغة.

غير أننا لا ننخدع بالأماني المستوحاة طلاوتها ممّا هو تنظيري، لأننا كثيرا ما نصطدم بأن الواقع اللّساني الممارس أمر مختلف جزئيا أو كليًا عما نستقيه من نظريات لسانية هنا وهناك، بل تعدّ هذه النظريات اللّسانية حديثًا وحتى قديما لا يدلّ إلا على شيء واحد يُفسّر بأن كل ما قدّمته لنا اللّسانيات مجسّدة في فطاحلها وعلمائها قدمائهم ومحدثيهم، لم يقنع بعْدُ الانشغالات اللغوية الإنسانية وسعتها حتى كأنما حُكم على اللّسانيات أنها ستظل ما بقيت دون كفاءة اللغة التي تتخذها موضوعًا لدراستها، ونحن لا نستغرب من هذه المفارقة أيما استغراب، طالما أن لغتنا آلت إلى نظام ثابت، ليس بوسع جيل أو أجيال أو علوم أن تغير فيها جملة واحدة.

ومما ارتأيناه أن تناول النظام النحوي في مستوى النص ينحرف بنا إلى مساءلة عناصر نراها تتناسب مع ذات الموضوع، إنه:

1)- النص والمدونة.

2)- النظام اللّساني.

3)- النظام النحوي في مستوى النص.

النص : هذا الحاضر الغائب

إن المشكل الأول الّذي يرجع إلى مسألة قد تبدو لأوّل وهلة في غاية البساطة: هل يوجد نص؟ وبعبارة أخرى، هل من الممكن أو غير الممكن أن نوفّق قليلاً أو كثيرًا في بيان أن الأدلة اللّسانية التي تسمح بوجود نص أو نصوص أدلة كافية أو مؤكّدة، وبكيفية متلاحمة لتحديد تتابعات يفترض فيها سلفًا أنها

خطوط أو تهجّيات أفقية، ذات قابلية للتعبير بالكلام، وهي ما نطلق عليها عادة "نصّا"؟

وبخصوص وجود نص من عدمه، نقف على غير قليل من الإدراكات الذهنية، وبضع أفكار، ربما هي أقرب إلى التصادم منها إلى التواؤم، من المنظرين اللسانيين من يؤسس مفهوم النص على الحدس والتخمين، ذاهبًا إلى النص جوهريًا ذلك "الأدبي" الّذي يُفسّر به وجودُ خطابات مشار إليها، وبكل بساطة، على أنها بنيات مغلقة، وهي ما تسمّى نصًا أو نصوصًا، وهذا الاتجاه يقرّ إيجابيًا على التساؤل المطروح أعلاه،ولكن الإقرار لدى أصحاب هذا الاتجاه بوجود نص من الناحية الأدبية، يثير في المقابل لديهم مشكل تعليل أسبقية أو أفضلية النص من الناحية اللسانية، أو من نواحي أخرى تعرِّف النص أو النصوص بمفاهيم مغايرة تمامًا، أضف إلى ذلك أن طرح سؤال حول وجود النصّ من عدمه، معناه الانطلاق من بحث البنيات الداخلية لهذه النصوص الحقيقية أو المزعومة، وبناء على تعدّديّة مستويات التحليل الممكنة، وهو عمل جسيم[1]، فضلا عن آخر صيحة للسانيات البنيوية التي لم تستطع أن تُجزم على أي مستوى من مستويات تحليل النصوص أولى من الآخر، لأنه من باب الظن الّذي يغلب على اليقين القول بأن المستوى الصوتي أوْلى من المستوى الدلالي أو النحوي، والعكس لا يُردّ ولا يُدْحضُ، إذ تنظر اللسانيات البنيوية إلى النص "على أنه ذلك الجنس الّذي يمكن أن يحلّل فيه كل مستوى منعزل عن الآخر،... ولكن اللسانيين يختلفون في أيها أولى أو أهم من الآخر، فقريماس يفضل المستوى الدلالي أو المحتوى، ومنهم من يلتفت أكثر إلى دراسة العلاقات الكامنة بين هذه

المستويات المختلفة، ومع ذلك، فإن التحليل البنيوي ينزع إلى تقديم النص كفضاء وكسياق خطي ومدة زمنية معينة"[2].

و إذا كان أقصى حد معرفي للسانيات لا يتجاوز جملتها، بل قد يتوقف عند الكلمة أو السانتغم لدى بعض اللّسانيين، فإن "تودوروف وجماعة معه يرون أن مفهوم النص لا يتموضع على نفس المستوى الذي تتموضع عليه الجملة وما دونها، وفي هذا المعنى، فإن النص يجب أن يكون متميّزًا عن فقرة أو وحدة تصنيفية من عدة جمل"[3]، ومقابل ذلك، فإن النص لدى هؤلاء يمكن أن يتوافق مع جملة مثلهما يمكن أن يتطابق مع كتاب بكامله، فهو "يعرّف نفسه باستقلاليته و إغلاقه، إنه يكوّن نظامًا لا يتماثل مع النّظام اللّساني، بل بعلاقته مع نفسه، علاقة هي في الوقت نفسه متماسة الأفكار ومتشابهة، وبتعبير هلمسليفي، فإن النص نظام تضميني، لأنه ثانوي بالنسبة إلى نظام آخر هو نظام المعنى (الدلالة)"[4].

غير أن ثمة اتجاها ثانيا، كأنه لا يقتنع بكل ما أشير إليه من آراء وأفكار لسانية نيّرة من الصعب ردّها ردًّا سلبيًا على أصحابها، لأن أصحاب هذا الاتجاه بودّهم لو يبدّلون النص بالإجراء الكلاسيكي المطبّق على الجملة، وأما الصعوبة التي تمثلت لهم في الوصول إلى هذا المُبتغى تعريفًا لهذا الجنس من النص، فإنهم يرون أن الجمل الأكثر نجاعة هو ما يقوم على التسليم بوجوده، وقبوله كأشياء أولية غير معرّفة، ذاهبين بهذا التخمين البعيد الإدراك إلى أن هذا الحلّ سوف يتيح لاحقًا الفحص المتقدم لبنية النص الداخلية، لكنه يفترض صيغة أو بنية نموذجية هي في غاية التجريد مقارنة بالواقع المقالي القابل للمعاينة والملاحظة[5]، ولكن هذا الاتجاه بهذا المفهوم القائم على الفرض تارة، والتجريد

مرة، والتسليم طورًا اتجاه لا يخلو من مجازفة بأننا لا نصف إلا حوادث مفتعلة لخطابات تقريبية جدًّا لن تكون إطلاقًا أقل تجريدًا من جمل.

وهناك اتجاه ثالث يتزعمه لسانيون آخرون، ينهجون نهج اللساني الفرنسي إميل بنفنيست، إذ من خلاله يذهبون إلى أنه لا توجد وحدات خطاب ذات سعة أو مدى أعلى من الجملة، وأن النص ليس إلا خطابًا مكوّنًا من سلسلة جمل، لكن من طرف إلى طرف، ويرون من غير الفائدة أن يُبحث عن وحدات نصوص ممثّلة في بنيات مغلقة، وهذا الوضع يقوم على وجوب إدراك خطي للخطاب الّذي لا يتألّف إلا من جمل مُقامٍ بعضها إثر بعض[6].

وبناء على أن لسانيا لا يمكن أن يختلف مع الآخر، بأن النص لا يعدم أن يكون معنى أو مجموعة من المعاني، فإن بعض الدراسات المستوحاة من أفكار جوليا كريستيفا J. KRISTEVA، لا تتردد في تساؤلها: لماذا لا نبدّل البنية السطحية والبنية العميقة إلى تصورين يكونان أكثر جدارة لنضع أيدينا على إنتاج النص وتجلّيه في بنية النص العميقة Géno-texte، وبنيته السطحية Phéno-texte، فبنية النص العميقة Géno-texte، هي موقع الدلالة Lieu de la signifiance، والمتمثل في إحداث أو توليد غير نهائي للسانتكس والدلالة بخصوص ما سيقدّم بصفة بنية النص السطحية Phéno-texte مثل كتابة طه حسين مثلاً، في حين أن بنية النص السطحية هي موقع أو محل العرض لبنية النص العميقة التي تدعو محلّل الرموز الملتقطة إلى إعادة إنشاء الدلالة، والتصورات المعبرة عن تفكيرات شمولية لمفهوم النص[7].

ويرى التحليل السابق أن ممارسة لغة مثل عمليات بنى النص العميقة ينبغي أن تكون أوراقها مكشوفة على مستوى بنى النص السطحية، هذه الأخيرة

تحاول أن تعرض الأولى داعية القارئ إلى إعادة بناء المعنى، ولعل محاولة بعض المنظرين لربط هذه الممارسة بالبنيتين المشار إليهما هنا، ترجع أساسًا إلى جعل النص خاضعًا إلى قوانين اللّسان الطبيعي منظورًا إليه على أنه بذاته يكوّن لغة جديدة، ويعمل على خلق أشياء وإقامة علاقات فيما بينها.

المدونة؟

وبشأن المدونة تأبى بعض المصادر اللّسانية إلا أن تعرّفها بأنها مجموعة الأقوال المكتوبة أو المسجلة التي تتخذ بغية وصف لساني لملفوظات مخطوطة كانت أم منطوقة، والأولى أنسب للتحليل من الثانية، لأنه من الاستحالة بمكان أن تظفر بجمع كل الأقوال والخطابات والتراكيب اللسانية المتواصل بها في فترة مسلّم بها، أو التفكير لأن نحل محلّها بصنع أقوالها، إلا إذا زعمنا أننا نفبرك مدونة مزيفة أو انفعالية لا تمت بصلة إلى المدونة الأصل، ولذا يشدّد اللسانيون المحدثون على اعتبار المدونة مجموعة من الملفوظات المنتهية اتقاء ما قد يتبادر إلى متلقّ فضولي بتغيير جزء أو جانب من معطياتها[8].

وإذا كان الالتباس لا يبرح سيد الموقف بين المدونة والنص، وهذا موضوع آخر، فإن إحدى المقاربات البنيوية تعتبر النص عبارة عن مدونة مؤلفة "من ملفوظات متتابعة خاضعة للتحليل، على أن تكون مغلقة ومنها، وهذه الرؤية تُعدُّ أحد المبادئ الأساس للبنيوية التي تقيم تحليلها على تصور نهائي للمدونة حتى تتبصّر النصّ وتمنعه مليًّا كبنية، وفوائد هذه المقاربة إزاء النص الأدبي أنها تتفادى كل إحالة مرجعية خارج النص من أجل التركيز على النص ذاته"[9].

النص في مجال اللّسانيات والخطاب

وبعبارة واحدة، فإن النص مجموعة منتهية من الملفوظات المكتوبة التي تكوّن خطابًا متساوقًا ونوعيًا مناظرًا لمثابرة تتناسب مع مقام إنتاجه من حيث الشخص، والموقع، والزمان، والجنس المنتج،... ومن المهم هنا أن نميز النص في مجال اللّسانيات التي تعتبره مجموعة منتهية أو غير منتهية من الأقوال المكتوبة أو المنطوقة، وهو هنا يعادل المدونة والخطاب أو المعنى، وبين مجال التحليل البنيوي الّذي يعتبر النص كمدونة (سلسلة من الملفوظات الخاضعة للتحليل) مغلقة، أي لا نستطيع أن نضيف إليها شيئًا، وهذا الطرح أحد المبادئ الأساسية التي تؤسس تحليلها على التصور المغلق للمدونة لأجل أن تتفرّس النص كبنية[10].

وليس من مصلحة هذه الكلمة المختصرة هنا أن نواكب النظريات والتعاريف التي لامست النص أو المدونة من الناحية اللّسانية أو النقدية أو الفنية أو الجمالية،... ولكن هذا لا يضير كلمتنا إذا حصرناها في إطار النص القصصي أو الروائي.

إن الرواية Le Roman أو القصة Le récit يُعنى بها عادة خطاب منقول لزمنية ماضية أو متخيلة كما هي بالقياس إلى وقت التلفظ، والتعارض بين الخطاب بوصفه تلفظًا مباشرا أو القصص بوصفه ملفوظًا منقولاً يتمظهر في كل لغة بمستويات أو عناصر لغوية تعبر عن الماضي، ولذلك يرى بعض الدارسين أن الرواية هو العمل اللّغوي الّذي يجري في الزمن "لا يمكن عند الاقتضاء أن نتصور رواية كانت تعالج كل دليل فضائي، إننا لا نتصور شيئًا كان ينجو من كل ترتيب زمني، لأن الرواية تمثل سلسلة من الأحداث المستطردة ENCHAINES منذ البداية إلى النهاية، والدراسة للتنظيم السردي أثبتت لنا

الروابط التي توجد في كتابة خطية متتالية بين الترتيبات المنطقية والترتيبات الزمنية"[11].

وإذا كان الأدب مجموعة من النصوص المستقبلة كأدبية في تزامنية سوسيو ثقافية مسلّم بها، فإنه مما يلاحظ أن هذا التعريف يراعي مشاكل التحديد لتصور الأدبية المفهومة كنوعية لقالب نصوص، ومن جهة أخرى، فإن تدخّل التزامنية السوسيو ثقافية يقضي على المشاكل التي كانت تطرحها التغيرات الملحوظة من فترة إلى أخرى في الأحكام المعلنة حول أدبية النصوص[12].

وثمت من توصّل إلى القول بأن النص مجموعة مؤلفة بوساطة الخطاب والحكي والعلاقات التي تتمركز بينهما، ويقود هذا القول إلى تعريف الخطاب بأنه ترابط أو تسلسل أجوف لوحدات صرْفٍ لسانيًا انطلاقًا من الفونيم إلى الجملة، وهذه الوحدات هي التي تفصح عن ماهية النص، وهذا المفهوم للخطاب يشير إلى أنّ مادة نظام العلامات أو الممارسات الدالة التي تكوّن النص ليست إلا الخطاب للغة طبيعية، وبالمثل فإن مادة النص الرسميّ PICTURAL، مجموعة من الخطوط والأشكال والألوان.

النّظام اللّساني في مستوى النص

منذ عقود، أصبح يسود اللسانيات بعامة،وعالم النص بخاصة، اتجاه مؤكد بوضوح داخل التأويل الابستمولوجي أو المتعلق بمبحث المعرفة والعلوم، ومنها بحثه لما يسمّى بالبنيوية، أن اللّسانيات البنيوية طورت تقنيات وصفية مثمرة للغاية في مباحث فونولوجية ومورفونولوجية (علم أصوات البنى)،

ومورفولوجية، لكنها بدت أقلّ نشاطًا بخصوص المقاربة المنهجية، وأكثر ميلاً إلى التطبيق في مستويات وصفية للسانتكس.

وأمّا ما يتعلق بما فوق السانتكس ولسانيات النص، فإن هاتين المادتين ظلّتا لا تُدرسان إلا كعلاقات جزئية، وفي جميع الحالات، فإنهما لم يُعن بهما عناية مباشرة، وبقي النص أقلّ تبعية للنظام اللّساني، ما دام التحليل للنصّ كان يجب أن يعود إلى طائلة لسانيات الكلام، ويشار بهذا إلى أشكال الاستعمال للّغة، ليس فقط من عصر إلى عصر، أو من متكلم إلى أخر، بل حتى على مستوى متكلم واحد، لأن الكلام لا يلتزم بالنظام اللّساني نظريا، بل بممارسته عمليا، بل الأغراض والمواقف والملابسات والظروف هي التي تحدد لسانيات الكلام، وطرائق الخطاب، وإحدى مهمات لسانيات النص أن تدرس ظواهر الكلام، لكن ليس هناك هوة بين النظام اللّساني ولسانيات النص، بل التحليل النصّي في إطار البحث البنيوي ينتمي أيضًا وفي الطليعة إلى اللّسانيات بوصفها علمًا للنظام.

وفعلا، هذا الانزلاق المتصور كحاجز بين اللّسانيات كعلم، ونظامها كضوابط، قوّم المكانة التي ترجع إلى اللسانيات من بين العلوم السيميولوجية "بالإضافة إلى ذلك، تأويل اللّسانيات البنيوية كعلم نظامي له أصبح له دويّ لا مفرّ منه على التصنيف العام للعلوم،... لم تعرف اللّسانيات تقدمًا واسعًا لتداخل الاختصاصات وحسب، بل جدّدت حتى مفاهيمها الخاصة بالممارسة العلمية للبحث، فالمثالية الفردية والعزلة لرجل العلم هُجرتا بشكل نظامي،وهكذا فتطبيق الرياضيات لم يتوقف عن كسب الميدان، والآلات الشكلية والرياضية انسجمتا بامتياز مع عرض علاقات داخل نظاميّ، يضاف إلى هذا أن بحث مقدمات منطقية Prémisses، كالقضايا المسلّم بها Axiomes، والفرضيات الأولى

Postulats، والافتراضات، ونظام التعريفات (كما هو الحال عند هلمسليف) للبحث المُميّز للسانيات كعلم لنظام (ولمنهج)، يمكن أن يقود إلى نتائج مفيدة لفروع أخرى"[13].

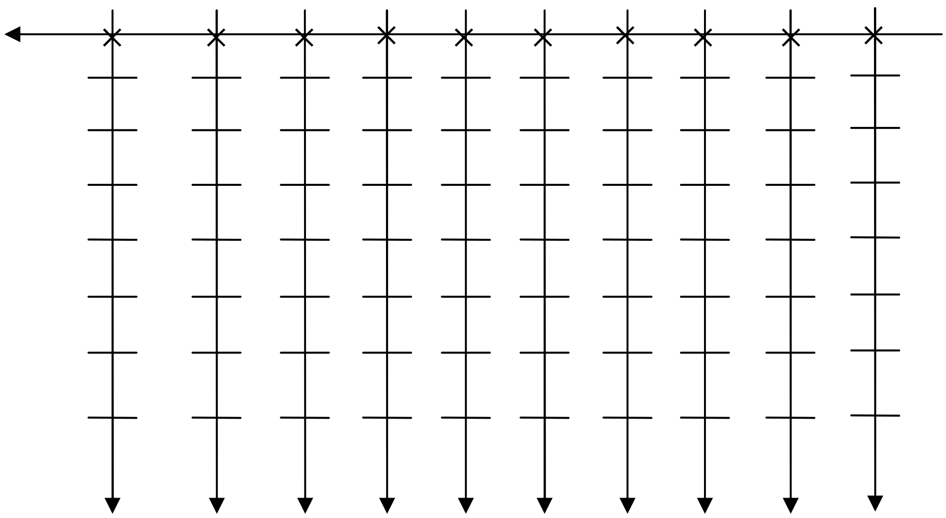
والنّظام اللساني معبّر عنه كاجتماع (سوسور)، أو كشيء مستبطن أي معبّر عنه بنشاط نفسي Intériorisé من قبل المستعمل للغة (شومسكي)، ويشكّل الموضوع الأولي للبحث اللّساني، وهذه الفكرة المركزية التي سمحت للسانيات بأن تصبح علمًا للنظام، أعطت بالإضافة إلى ذلك، البحث اللّساني المعاصر نقطة الانطلاق من أجل تحليل خصوصياتها الأساس، لأنه من أحد المساعي الأولى للسانيات كعلم منهجي أن تزوّد صاحبها بمعطيات ملموسة على الطبيعة وكنه الذات وتعقيد الأنظمة داخل اللّسانيات.

بيان عن النظام اللّساني في مستوى النص(14)



النظام النحوي داخل النص

لم تعد اللّسانيات الحالية، ومنذ مدة تشك أدنى شك، في أنّ المرسلة أو الميساج التي ترسل من متكلم وفق طابع خطّي أفقي تفترض سلسلة متوالية من الاختيارات في كل نقطة قابلة لأن تُعزل من الجملة أو الملفوظ، بين ما يقال وما يمكن أن يقال، فالمحور العمودي أو محور الاختيارات أو الإبدال يكوّن المجرود لكل الوحدات التي تحتمل أو تقبل تأدية الوظيفة نفسها في السياق ذاته، بمعنى أن هناك تضامنا كليا ما بين المحورين الوهميّين في كل نقطة تقاطع ممكن بين الوحدات، بحيث يمثّل الأفقي القيود الانتقائية، والعمودي مجرد الانتقاءات الممكنة(15):



والدور الّذي تقوم به العناصر اللسانية على المحور التركيبي يكمن في كونه يضمن نحوية La grammaticalité الملفوظ، مثال ذلك أننا لا نستطيع أن نضع أي عنصر تخصيص أو محدّد كان أمام أي اسم، أو أي اسم كان أمام أي فعل، فنحن إذا قرأنا بيتًا[16]:

ألِمَّا بِسَلْمى عنكما إن عرضتما   وقولا لها عوجي على من تخلَّفوا

للاحظنا، كيف أن المتكلم ما كان له أن يضع محدّدا وظيفيا غير الباء المختصة سانتكسيا بالدخول على الأسماء لإلصاق الفعل بالمفعول به، لأن سليقته النحوية لم تسمح له بالقول مثلا: "ألِمَّا سلمى" لأن العرب لا تقول إلا ألمّ بالشيء (ألمّ بهم أتاهم فنزل بهم، ألمّ بالشيء: عرفه،...)، ولأن الفعل الّذي لا يتعدّى، فلك أن تعدّيه بالهمز أو التضعيف أو الباء، وهي ليست هنا عنصرا "زائدًا"، كقوله تعالى: ﴿وكفى بربك هاديًا ونصيرًا﴾، أو دالاً على وظائف دلالية أخرى، كالسببية، والظرفية، والتبعيض.

وما كان له أن يضع اسمًا غير اسم "سلمى" بعد حرف الباء، فهو لم يكن متحرجا من أن يذكر نساء بأعينهن في شعره دون حرج ولا ترميز، فهو يلحّ التماسًا من صاحبيه الحقيقيين أو الوهميّين إذا ما عرضا أي وصلا إلى سلمى أن يزوراها ويطيفا بها قائلين لها "عوجي" أي اعطفي وقفي على الّذين تخلّفوا عنك"، وما كان له إلا أن يلحق كاف الخطاب بالمونيم الوظيفي "عن" دون هاء الغائب مثلا، أو يُسْتعمل مكانه مونيم وظيفي لا يقوم مقامه ما دام أن حروف الجر في العربية كثيرا ما يلعب بعضها دور وظيفة بعض، ووظيفتها هنا المجاوزة حِسًا، لأن الشاعر لا يزال بصدد ذكر ديار سلمى وربعها، ولعلنا لا نختلف في تركيبه "إن عرضتما" الّذي حذف فيه جواب الشرط المتقدّم أو لاكتنافه ما يدل عليه، ولأن فعل الشرط (عرضتما) ماضٍ، وفي مثل هاتين الحالتين يُحذف الجواب

في جميع الجمل الشرطية المماثلة، لأن فعل الأمر "أَلِمَّا" من أَلَمَّ يُلِمّ إلمامًا يتضمّن معنى شرط جازم محذوف مفهوم من السياق (إن تُلمَّا بسلمى بلِّغاها) ونحن نعامل هذا التحليل هنا بقاعدة جزم طلب الأمر، لوجود جملة الشرط متأخرة عن جوابها، و إلاّ فإنه يجوز جزم جواب الأمر الطلبي ورفعه،... وما كان الشطر الثاني إلا ان يبدأ بالواو عطفًا ما بعدها على ما قبلها، لأن ما تقدمها جملة إنشائية، ولا يمكن عطف جملة خبرية على إنشائية أو العكس،...

اللغة كمنظومة قائمة بذاتها ينبغي للدارس أن يميّز بين السلسة أو الكمية المتداعية فيها بالغياب، وهي الوحدات التي تتوفر عليها ذاكرتنا، وهذا ما يشكّل المحور العمودي، والسلسلةُ الحاضرةُ أمامنا في تركيب أو جملة أو نص، وهذا ما يشكل المحور الأفقي "محور التوافقات يمثل سلسلة من التعارضات بين وحدات متغيرة ذات قيمة ووظيفة، لكنها منسجمة فيما بينها، وهذه الوحدات تكون في علاقة حضور (حسب دي سوسور) يعني أنها حاضرة بالفعل في تتابعها، في حين أن محور الانتقاءات يمثل سلسلة من التقابلات بين وحدات من نفس الوضع مستبعدة نفسها بالتبادل، وهذه العلاقة العمودية تسمّى متداعية بالغياب"[17].

ومن المورفيمات النحوية ما يكون حرًا مثل عناصر النصب أو الجزم أو... ومنها ما لا يكون كذلك كاللواحق والسوابق في الأفعال والأسماء، أو اللواحق من حروف الجر أو الحروف المشبّهة بالفعل،... وأما الموفيمات المعجمية، فتكون حرة في كل مرة تتزامن فيه مع كلمات ذات أصول جذرية، وانطلاقا من مخزون من المورفيمات الجاهزة على أن تأخذ بعين الاعتبار قواعد التركيب المسموح بها في كل لسان، فإنه يمكن لنا أن نصنع ما نشاء من كلمات، وأن نعيّن لها معنى،ولكن قصورنا وعجزنا عن الإحاطة بما هو متوفر في لغتنا

يفوقنا تحدّيًا، لا يجعلاننا نفكر إلا نادرًا في مثل هذه الصناعة اللغوية، وفي كلمات تقنية محدودة جدا.

ذلك أننا ربما نسينا أنفسنا ظنًا أو اعتقادًا منا بأن الأشياء التي تعايشنا ونعايشها تحمل أسماء حقيقية، إلى درجة أننا كثيرا ما نردّد "لنسمّ الأشياء بأسمائها" أو "لنُسمِّ القط قطًا"، ومن هنا جاء انتقاد النظرية السلوكية الأمريكية القائمة على حافز-جواب، لأن الـ"جواب" على كلمة ليس الجواب على الشيء، وأبسط دليل على ذلك أن كلمة "كلب" لا يعضُّ، وأننا نأكل كلمة "تفاحة"[18]، بمعنى أن الشيء لا يشار إليه عبر حقيقته الفيزيائية، ولا بخصوصياته التي يمتلك، ولا انتمائه إلى صنف معين من الأشياء،... والنشاط اللساني ماهو إلا نشاط رمزي فاللّسان يُسْتَخْدم للإفصاح عن الفكر الّذي يتلفظ بوضوح تصورات لا معالم أو سمات مطبّقة على الأشياء[19].

وعلى أي حال، إن التنظيم النحوي هو بذاته يحمل،ومن خلال نظم كلماته، معنى بمعزل عن الكلمات، فهو يجتذب معناه من البنية النحوية، وليس فقط من الصوت، والفكرة الشائعة بأن علم اللغة يدرس اللغة، ويهمل الكلام فكرة تُطلق بلا شعور، لأن اللغة لا تقوم لها قائمة بدون كلام، بل يمكن القول إن كل كلام لغة وليس كل لغة كلامًا، وإلا فماذا نصنع بغمغمات صوتية كتغمغم فرس عنترة؟

ولعل أحد اللغويين المحدثين لم يبالغ كثيرًا،لمّا أشار إلى أن النحوية ساحل من المستحيلات، حيث كلما انتهى الممكن يبدأ اللاممكن[20]، ومن الناحية النظرية أن القواعد التي نستعملها والمتمثلة في كفاءتنا التي بحوزتنا، وليس في أدائنا بالمفهوم الشومسكي، لا تولِّد أو تُنتِج إلا ما يقال أو ما سبق أن قيل، أي ماهو متفق عليه سلفًا، مستبعدة ما لم يسبق له أن قيل، ولعل أبا القاسم

عبد الرحمان (الزجاجي 337هـ) القائل: "إن علل النحو ليست موجبة، وإنما هي مستنبطة أوضاعًا ومقاييس، وليست كالعلل الموجبة للأشياء المعلولة بها، ليس هذا من تلك الطريق"[21]، أدرك الكفاءة النحوية وكيفية توظيفها قبل وقته الّذي نحن الآن نتداول فيه.

ومثلما قسّم الزجاجي هذه العلل التي سبق للخليل أن أشار إليها بذكاء غريب، إلى تعليمية، وقياسية، وجدلية، فإن المحدثين يقرّون بأن الحدود بين ما قيل وما لم يُقَلْ، ليست جلية ذاهبين إلى أن "الممكن يذوب في المستحيل، بحيث إن النحوية مسألة درجة، مما يطرح مشكل المعيارية، والمتكلم بلغة الأم، والمستعمل كفاءته، هو الّذي يقرّر أن هذه جملة نحوية، وأخرى غير نحوية مستندًا ضمنيًا إلى المعيار La norme، بيد أنّ هذا المعيار غير المؤثر فيه من عوامل اجتماعية، ألا يرتكز جزئيًا على حدسيات معيارية نموذجية مثل المدرسة؟...

كل واحد له الحق في خلق عالم من المعنى أو اللامعنى، وخرق القواعد السانتكسية والدلالية، هو بالضبط من يعطي ميلادًا للشعر، أي خروجا عن المألوف بالنسبة لاستواء ثقافي واجتماعي، وأما الاستعداد لخرق القواعد، فبقدر ما يعتري القواعد، ينطبق على القواعد نفسها، لا شيء يمنع من الحديث عن أفكار خضراء أرقة Insomniaques تنام بحنق Furieusement"[22].

وقبل هذا المثال الشومسكي، قال الشاعر جرير:

سَرَتِ الهُمُوم، فَبِتْنَ غيْرَ نِيَام وأخُو الهُمومِ يرُوم كُـلَّ مَرام

وبعده، قال المتنبي:

وزائِرتـي كـأنَّ بِـه حيـاء فليس تـزورُ إلا في الظـلام

وهذان المثالان وسواهما لا يراد أن يُسوَّى بينهما وبين ما أراده شومسكي الّذي ضرب هذا المثال لما هو سليم سانتكسيا وفاسد دلاليا، وقبله سيبويه بقرون، ولكن إسناد الفعل إلى المعاني كثير في تراثنا اللساني العربي، بشكل تشترك فيه البلاغة والنحو وعلم الدلالة وعناصر أخرى.

وما يمكن أن نسلّم به أنه لا توجد لغة لا ترخّص للصور أن تتنوع تنوعًا لا نهائيًا، وبأسرع مما نتصور، ولكن لا أحسب أن لغة مصونة تملك أنظمة نحوية تاريخية طبعت في متكلميها السليقيين طبعًا نهائيًا، تسمح لقواعدها أن تتغير أو تتحول أو تنحو منحى آخر غير المنحى الّذي عُهِدت هكذا عليه، فالخنساء التي شبهت أخاها صخرًا في جوده وقِراءِ ضيفيه بجبل موقدة فوق قُنَّته نار يهتدي السراة بها ليلاً:

وإنَّ صخرًا لتأتم الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسه نار

لا تمنع معبرا أن ينتج صورة أو صورًا لا نهائية لها، بل إذا صارت صورة مثلاً تعاطاها الناس، ومما جاء مثيلاً لهذا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾[23]، وقوله أيضا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾[24]، وما الجواري هنا إلا جمع جارية، وهي السفينة، وإنما أراد القرآن الكريم أن يقرّب إلى العرب ما تعوّدوا التواصل به، وفق أمثالهم، وحكمهم، وثقافتهم الاجتماعية، وطرائق خطابهم مساعدةً لهم على الفهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[25].

إن نحو لسان ماهو إلا مجموع الإمكانات التي تسمح لنا بتنظيم الجمل، وتعيين وظيفة لكل كلمة، وبيان العلاقات المقامة بين الكلمات، ولذلك يشير القدماء والمحدثون علنًا بأن النحو أو السانتكس النظام الّذي يرأس الجملة، وما

عداه من عناصر لسانية ليس عالة عليه، ولكن النظم درجات، فحين تقول الخنساء:

وإن صخرًا لمقدام إذا ركِبُوا   وإن صخرًا إذا جاعُوا لعقّار

يحتاج تحليل قولها نحويًا إلى صفحات،ولكن ما نريد أن نشير إليه هنا أن السمات البلاغية سمات انتهازية على حساب العناصر النحوية، فالنظام النحوي مهّد لها السبيل تمهيدًا ذلولاً، فما كان للبلاغي أن يدرك أسلوب الخبر الإنكاري في الشطرين، لولا وجود مؤكّدين اثنيْن في ثلاثة أساليب: إنّ ولام التوْكيد مرتان، وتكرير "صخر" في الجملتين الخبريتين اللّتين خرجتا بلاغيًا عن غرضيهما اللّذين هما التبليغ قبل كل شيء، وانظر إلى عطف الجملة الثانية بالواو، والشاعرة لم تستعمل الواو دون سائر أحرف العطف عبثًا، بل لغرض لا يدركه إلا من رُزِق حظًا من الذوق البعيد، فهي أرادت بوظيفته النحوية مطلق الجمع، فشتان بين هذا الوصل ومطلع امرئ القيس:

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل   بِسقط اللّوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لِما نسجتها من جنوب وشمأل

ولذا، فيمكن القول إن النظام النحوي في مستوى جملة أو نص نظام لساني تقعيدي أولى بخطاب متتابع أفقيًا، بينما النظام البلاغي نظام ما فوق لساني، حتى وإن خضع للتقعيد، وهو ليس مما يمكن أن يقال فيه إنه أفقي أو عمودي، لأنه مستوى لا تقوم له قائمة بوحدات لغوية دون ارتكازه سلفًا على عناصر نحوية، فهو يوهمنا، وكأنه مستوى أو علم قائم بذاته، وما هذا إلا تسامح منا أو لا مبالاة بطبيعة الأشياء التي تنحو باستمرار نحو التفكك والتجزّؤ والنفور من التسلط،

بل لو كان المستوى البلاغي في أهمية المستوى النحوي لكانت له شرعية الأسبقية في علم اللسان التاريخي.

السمات المميزة للنظام النحوي

وأما تنظيم الكلمات في تراكيب قد تقصر، وقد تطول، فإنه يشكّل السمات المميّزة لأي سانتكس، والدور الّذي تنهض به هذه الأخيرة تتفاوت أهميته تبعًا لطبيعة اللغة أهي معربة، حيث إعرابها يستخدم فيها لبيان العلاقات، ولذلك نجد ابن فارس يمتدح الإعراب: "من العلوم الجليلة التي خُصّت بها العربُ الإعرابُ الّذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللّفظ، وبه يُعرف الخبر الّذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول،ولا مضاف من منعوت، ولا تعجُّب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد"[26]، ولكن ابن فارس لا يلبث أن يُعقّب على نفسه إحالة إلى بعض أصحابه بأن الإعراب قد يكون في غير الخبر أيضًا، بدليل عمله أو دخوله على الكلمات، وهو ليس من باب الخبر، كقولك: أزيد عندك؟ أزيدًا ضربْت؟ أو هي تحليلية أي خالية من الإعراب، وما من شك في أن اللغة التي تتضمن الإعراب أكثر مرونة وطيعة من تلك التي لا تملكه، واللغات الّتي فقدت الظواهر الإعرابية لم تؤُل نحو التطور المزعوم، بقدر ما انحدرت إلى انحطاط لساني بدائي أي زاغت عن أوجها رغبة منها في العودة إلى أصلها، وهذا أشبه بعودة لغة فصحى إلى لهجة عامية.

ونحن في بداية الألفية الثالثة، لم يعد مسموحًا لنا فكريًا ومنطقيا أن نقول مثلاً: "الفاعل يدل على الشخص أو الكائن الّذي قام بالفعل"، ولكن النظام اللساني بعامة، والنظام النحوي بخاصة، أفادا كثيرا من المعطيات التي ينهجها السانتكس المسمّى اليوم نحوًا تقليديًا، حيث فشلت البنيوية في إزاحته، لأنها

أخفقت في تقديم البديل لتعويضه، ولما جاءت القواعد التوليدية أعادت الاعتبار لهذا السانتكس، وأفادت منه في طروحاتها الجديدة.

كما عاد من الصعب فصل المورفولوجيا عن السانتكس، وهذا لعمري ما انطلقت منه اللّسانيات العربية الأولى، لأن مورفيم الضمير المتصل (ـه) أختير ضد (ـها)، والضمير المنفصل (أنا) اختير ضد ضمائر أخرى بسبب ما تقتضيه الوظائف النحوية، وحين تقول: الطائر يغرّد، فإن الفعل يعرَّف مورفولوجيًا، بانتمائه إلى أحد أقسام الخطاب، وسانتكسيًا لما له من وظيفة إسنادية.

والصعوبة الموجودة لتمييز السانتكس عن المورفولوجيا تمييزًا واضحًا لا تحجب مع ذلك هذين التوجيهين، أي اعتبار كلمات مقتبسة أو مأخوذة بمعزل عن علاقتها في الجملة (المورفولوجيا) والدراسة لتوافقات أو تنسيقات هذه الكلمات في الجملة (سانتكس)، ومن هنا يطرح سؤال: ماهي الأفضلية أو الأولوية التي تعطيها اللسانيات؟ للمورفولوجيا أم للسانتكس؟ ولنصل إلى نظرية لغوية، فبأيّ نظرية نبدأ؟ بنظرية الجملة أم بنظرية الكلمة؟

ممن أجابوا على السؤال المطروح اللساني الفرنسي غيوم GUILLAUME الّذي أوضح أن بنية الجملة يبدو أنها مشروطة ومرهونة ببنية الكلمة "معنى ذلك أن السانتكس الغيومية GUILLOUMIENNE ترتكز على الكلمة، ولهذا السبب، فإن لسانيات غيّوم تعطى مكانة معتبرة للمورفولوجيا، لأنه إذا كان البناء الفعـ للجمل ينتمي إلى الخطاب، فإن العلل التي تسمح وتُدير هذا البناء توجد في اللسان، وذلك يعني أنه، لكي نفهم الوظيفة لكلمة، فيجب، وحتى قبل تحليل بنية الجملة التي توجد فيها، أن نميّز أولاً البنية لهذه الكلمة نظرًا إلى أن فهمنا لطبيعة العلاقة السانتكسية تابع SOBORDONNEE لفهم الطبيعة للكلمات Des Termes التي تدخل فعلاً في هذه العلاقة"[27].

وبالنسبة لهذا اللّساني، ليست دراسة المدلول لكلمة ممكنة وحسب بل تُعدّ عنده من الأولويات، لأنه يعتبر أن العلامة في خدمة المدلول، وأما الكلمات التي تكوّن الجملة، فإنها تمثّل الجوهر المشترك الّذي يعطي قاموسه الشكل، وقواعده النحوية تعطي التقنيات أو التغيرات المحتملة التي تتركب في تنسيق جديد بصورة دائمة، لكن هذا التنسيق المقرّر فقط خلال عملية الكلام تابع للقوانين التي تنتمي إلى اللّسان، وهكذا، فإن الجملة بوصفها إنشاء للكلام والتابعة للكلمة ليست إلا إنشاء أو بناء للّسان، ومعنى هذا أن بالنسبة لغيوم، أن البناء السانتكسي الأساس هو البنية ذاتها للكلمة(28).

النظام النحوي ودلالة العلامة

يستنتج مما سبقت الإشارة إليه أن اللّسانيات هي الدراسة العلمية للغة الإنسانية الصوتية كما تتماثل أو تتحقق بوساطة لسان، أما أداتها المتوصل بها فلا تخرج عن كونها نظاما من العلامات المتميز بعضها عن بعض يرأسها ويُنظّمها نظام من القواعد المنتظمة انتظامًا سطحيًا متباينًا بين كل لغة وأخرى للدلالة على مداليل كونية مشتركة، بل حتى على مستوى لغة واحدة لا تنتظم القواعد سطحيًا لتشير إلى شيء بعينه.

ومما شاع في اللّسانيات الحديثة أن لغتنا نظام أو نظام أنظمة من علامات مكوّنة من دال ومدلول، وإذا مسّ أحدهما تأثر آخرهما، مشبّهين هذه الوضعية بورقة، إذ مُزّق وجهها السطحي، مُزّق سقفها التحتي، وأعتقد أنه آن الأوان، لأنْ نُقْلِع عن هذه الفكرة الديسوسورية التي آتت أكلها زهاء قرن من الزمن، ونعمل على مراجعة كثير من القضايا اللسانية التي أصبحت لدينا نحن المستهلكين كأنها حقائق مسلّم بها، لا يكاد الباطل يأتي من بين يديها ولا من خلفها.

إن الغربيين لا يجرؤون جرأة مقدامة على التعمق في نقد دي سوسور الّذي يعتبر عندهم حتى الآن نبيًا في العلوم الإنسانية، لعاملين اثنين بارزين: أولهما ذلك الفراغ الملحوظ الّذي كان سائدًا في اللّسانيات الغربية، وثانيهما أن أي دارس لساني أضحى لا ينطلق عادة إلا من التراث اللساني العملاق لدي سوسور.

لسنا هنا أمام إثارة موضوع خارجي عما نحن فيه، ولكنّ ما نريد أن نفصح عنه، أنّ النسيج النحوي، كما سنرى في أبيات مَرْقَسِيَّة، نسيج بنيوي من نوع خاص، وعنصر من عناصر البنية اللّسانية ككل، تبعًا لطبيعة التراكيب التي تتوارد كما ترى دون أن تتكرر بعينها:

عَجِبتُ لِبَرقٍ بِليلٍ أهلْ	يُضيء سناهُ بأعلى الجبلْ
أتاني حديث فكذَّبْتُهُ	وأمرٌ تزعْزعُ منهُ القُلَلْ
لِقتْلِ بني أسدٍ ربَّها	ألا كلُّ شيءٍ سواه جَلَلْ
فأين ربيعةُ عن ربِّهم؟	وأيْن السَّكونُ وأيْن الحُوَلْ
ألا يحضُرون لدى بابِهِ	كما يحضُرون إذا ما أكلْ!

ما من تركيب اسمي أو فعلي أو سواهما ورد في هذا النص إلا وهو منتظم انتظامًا مشارًا به إلى علامة لسانية بعينها، أي القواعد هي التي تنتظم العلامات اللّسانية، وليس العكس، ولكنها لا تَنْظِمها إلا في إطار ما تواضعت عليه الجماعة، صحيح لا أحد يمنعك من أن تردّد وتستعمل ما ورد في هذا النص أو غيره من علامات لسانية، ولكن لا أحد يفكّر في أن نظمك يكون نظمًا طبق الأصل لنظوم غيرك، لأن العلامات اللّسانية تتآزر تآزرا ذاتيًا يجعلها لا تسمح

لأكثر من بنية لسانية، وتكرارها إلى مالا نهاية وارد لكن في بنيات متوالية وغير متشابهة، وإلا وجب الاكتفاء بترداد البنية الأصل، وبمتكلم واحد في لغة واحدة.

ليست القواعد ملكًا للّغة التي يمارسها أصحابها، به هي ملك مشترك لفائدة بنياتها اللّسانية، بل قد يذهب الأمر بنا إلى أبعد من ذلك إذا ادّعينا أنّ العناصر اللّسانية الوظيفية ذاتها ليست ملكًا لنفسها، لننظر إلى حرف الجرّ (اللام) كيف ورد مرّتين:

- لبرق بليل أهلٌّ.
- لِ[illegible]تْلِ بنِي أ[illegible]دٍ[illegible]بَّهَا.

وإلى حرف الباء أيضًا:

- بليل أهلٌّ.
- بأعلى الجبل.

والحرفان الوظيفيان كلاهما تابع لا متبوع، ومثلهما سائر العناصر الوظيفية من حروف، وأفعال، ومشتقات، وروابط،...

وقد يتراءى لنا لأول وهلة أن المتبوعات تتواتر تواترا متشابها،وإذا ما أبينا إلا أن نُصِرَّ على ذلك انسياقًا مع ما تمدّنا به الظواهر السانتكسية والمورفولوجية والصوتية، فإن الوقائع اللسانية ترشدنا إلى أن المتبوعات المسماة معمولات في النحو القديم لا تتواتر إطلاقا تواترًا متشابهًا، حتى لو تعلّق الأمر بوحدة لسانية واحدة، لأن السياق والخطاب والحدث الّذي يجمع أو يقتضي متبوعًا بعينه في بنية لسانية متباينة تباينًا لا يتفق إلا مع مجموعه، فكلمة "البرق" متبوعة وتابعة في آنٍ، متبوعة لعنصرها الجارّ، ولكنها تابعة للسياق الخاصّ الّذي

وردت فيه، فنحن لا نعرف شخصًا قتل أبوه ثم أنشأ يذكر ما ذكره هذا المتكلم، وبهذا النسج المترابط سانتكسيًا والمتداعي دلاليًا، كل شيء مرتبط ببعضه في البيت الأول ارتباطًا سطحيًا وتحتيًا ودلاليًا وانزياحًا، فالانتظام السطحي يبرزه الترابط السانتكسي المتتالي والقائم سابقه على لاحقه فالبرق ألمع ما يكون ليلاً، وأكثر سماع تصويت رعده يكون ليلاً لا نهارًا، وانعكاس ضوئه في قمة جبل أشد انقشاعًا وأبصرُ رؤية مما لو كان سناه في سهْل أو منخفض، والخرق يتمثل في أن الإشارة إلى البرق إشارة إلى الملك المغتال تهويلاً وتعظيمًا وتعجبًا، لأن المغتال كان لقومه بمثابة هذا البرق الساطع من أعدائهم والرعد المرتفع حماية لهم من أعدائهم، وتاج ملكه مضيء سناه على رأسه كإضاءة سنا البرق في أعلى جبل، وما عجب المتكلم مما حدث إلا كعجبه لإمكان أن يلحق قوي أو ضعيف، إنس أو جن ضررًا بالبرق اللامع، فكيف وقد حدث ذلك فعلاً لأبيه؟ ولذلك فإن المنفعل لم يصدّق ما سمع:

أتاني حديث فكذّبته   وأمر تزعزعُ منه القُلل

لأن ما سمعه إذا كان حقيقة تتزلزل من حدوث أمره أعالي الجبال المحيطة ببني أسد،... فهذه خروقات دلالية نتجت عن نسوج سانتكسية وبلاغية، وعلامات لغوية، وإشارات سيميائية.

النظام النحوي نسيج بنيوي شامل

ونحن نفكر في علاج هذا الموضوع خطر لنا إشكال تعلق بوسمه "النظام النحوي..."بدلاً من البنية النحوية..." مثلاً، والواقع أنّ وسمه بذلك نابع من اقتناع، بأن النظام النحوي الّذي نقصد به هنا النسيج للأدوات النحوية التي تستعمل في خطاب، لا يشكّل إلا عنصرًا أو بضعة عناصر من مستوى النص،

وفي الوقت نفسه لا يمكن لهذا النظام أن ينوب عن أنظمة لسانية أخرى تصحبه، من باب استحالة حلول نظام محل نظام، إذ اللسانيون حتى الآن يقرون باستحالة فصل النظام الصرفي عن النحوي فصلاً حقيقيًا، كقول أنطوان ماييه: "فعندما نميز بين علم الصيغ وعلم النظم جاعلين موضوع أحدهما صيغ الألفاظ، وموضوع الآخر بناء الجمل، يكون تمييزنا مصطنعًا لا يمكن أن نتابعه في التفاصيل، ولكم من مرة يميزون فيها بين علم الصيغ MORPHOLOGIE باعتباره العلم الّذي يدرس بناء الصيغ النحوية، وعلم النظم Syntaxe باعتباره ذلك الّذي يتناول وظيفة تلك الصيغ، وهذا تمييز أحمق، ثم إن ما يعتبر في لغة ما داخلا في علم الصيغ كثيرًا ما يكون في لغة أخرى من موضوعات علم النظم "[29].

النظام النحوي بين لغة معربة وغير معربة

من ذلك أن وظيفة الإعراب في اللّغة العربية عند قولنا "يجب أن أسافر" هي نفس الوظيفة التي يؤديها ترتيب الكلمات في اللغة الفرنسية " Il faut que je voyage"، بل لساني كدي سوسُّر، يذهب إلى أن ليس للصرف لسانيًا غرض حقيقي مستقل، ومن ثم لا يمكنه تشكيل علم متميز عنه[30]، ومن السابق لأوانه القول إنّ اللغات التي فقدت إعرابها آلت إلى انحطاط،وأن تلك التي لم تعرفه إطلاقًا ستضطر إليه يومًا ما، ولكن اللغات المعربة أكثر ديناميكية، وأسهل مناورة بفضل قابلية التناوب الإعلامي أحيانًا من نظيراتها التي تعدم الإعراب:

- ليس البرُّ أن تولُّوا وجوهكم/ ليس البرَّ أن تولّوا وجوهكم.
- هؤلاء بناتي هنَّ أطهرُ لكم/ هؤلاء بناتِي هنَّ أطهرَ لكم.
- ومن يكُ ذا فضلٍ فيبْخلْ بفضله على قومهِ يُسْتغنَ عنهُ ويُذْمَم

فلولا مراعاتنا لسلامة العروض، لما كان مانعًا أن نقرأ "فيبخل" بنصب اللام بالفاء الدالّة في كل حالة مثل هذه على السببية، ولما كان حائلاً دوننا من أن نقرأ "يُذمم" نصبا على إضمار أن وجوبًا على أن تكون الواوُ واو المعية، أو جزمًا بالعطف على جواب الشرط (يُستغن)، أو رفعًا للفعل (يذمم) على تقدير استئناف الكلام وابتدائه، فهل النظام النحوي في اللغات غير المعربة تحوي هذه السعة والليونة والاختيارات أمام المتكلم والمبدع؟ ولذا فإن الطاقة المخزونة المسماة Compétence عند شومسكي، لدى المنتسب للغة معربة أو فر دائمًا من الطاقة المستخدمة المسماة Performance عند شومسكي أيضا بالنسبة لمنتسب إلى لغة غير معربة، والنظام النحوي الّذي يعطيه أكثر من اختيار نظام، بلغ ذروة لسانية سامقة،ونظام يوجّه من يتبنّاه إلى مجموعة من الإمكانات الداخلية المتصلة اتصالاً وثيقًا بعلله وخصوصياته، وفي الوقت نفسه، لا يمتنع من أن يتفاعل مع علل وخصوصيات خارجية مرتبطة بلغات أخرى تختلف عنه أنظمة وسلالات، علما بأن دافيد كوهين David Cohen فسّر الطاقة المخزونة بأنها الشيء الفطري عند كل إنسان بينما فسّر الطاقة المستخدمة بأنها استغلال للإنسان لهذا الشيء[31].

ولم لا نقول، إن النظام النحوي هو الذي يصون البنية النحوية من أن تتكرّر على نفس النسق في أصواتها ووحداتها وعوامل صيغها، وهذه العناصر الثلاثة هي عناصر النحو بمعناه المعروف، إذ لا توجد صيغة نحوية مجردة من هذه العناصر الثلاثة مجتمعة إلا في الخيال، واللّفظة المفردة، وعامل الصيغة Le Morphème.ليسا دائما منفصلين في الخطاب، فاللغات المعربة، ومنها العربية، تكون فيها اللفظة وكامل الصيغة، متحدين اتحادًا وثيقا بحيث يكوّنان كلاّ لا يتجزّأ إلاّ بالتحليل، فمثلا في اللاتينية Morspatris "بالعربية موت الأب" أو:

Mors fabri "مـوت الحـداد"، "نجـد في Patris "الأب" وفي Fabri "الحـداد" عناصر تدل على معنى الأب ومعنى الحداد، ومعها عناصر أخرى تدل على علاقـة التبعية القائمة بين "الأب" و"الحداد" وبين "الموت" وهيئة عامل الصيغة تتوقـف على اللفظة المفردة إلى حد ما، ففي المثل اللاتيني السابق نجد أن هذا العامل ليس واحدًا في Fabripatris، وفي اللغة العربية نجد أن الجر يكـون أحيانـا بالكـسرة وأحيانًا بالفتحة أو غيرها"[32].

ولسنا في مجال التمييز بين معطيات مصطلحية بعضها لم يتبلور بعد حتـى في حد ذاته، فضلاً عن قصورنا في إدراك حقيقته إدراكًا مانعًا، وخاصـة النظـام، العنصر، البنية، المستوى، الدلالة النحوية الشائكة،... ولكنّ هذا لا يـنهض لنـا مبرّرا شبه مقنع لنا ولغيرنـا، لإعطـاء انطبـاع بـالهروب مـن الإقـرار، بأنـه مـن الصعوبة بمكان أن نترك الحبل على الغارب، بالنسبة لما نحن فيه من إشكال.

لقد سبق أن ألمحنا إلى معنى النظام النحوي بأنه بكل بساطة ذلك النـسيج البنيوي المستعمل في خطاب، ولكنه لا يشكل إلا عنصرًا أو عنـاصر مـن البنيـة الكلية للنص، إذ لا يمكن لبنية إلا أن تتكوّن من أجزاء، حتـى يمكـن تحليلهـا أو تفكيكها إلى مستويات كلما رغبت قـراءة في ذلـك، ولكـن النظـام لا يتفكـك، وإلا تفكك النص بكامله وفسد، ولولا هـذا النظـام بالنـسبة لمـستواه أو بنيتـه، لتغير النص بتغير متلقّيه، وتعدّد بتعدد قراءاته، ولئن تعدّد النظام النحوي أحيانًـا داخل النص ليحتمل أكثر من وجه، كما نجد في القراءات القرآنيـة، فـإن الـنص ثابت ولا يتأثر مدلوله بتعدد نظامه النحوي الّذي هو كائن من مكوناته.

مراجع البحث :

1)- يراجع: Les voix du langage, P : 105-109, BORDAS, Paris 1982.

2)- في عالم النص والقراءة، ص: 9، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر 2007.

3)- نفسه، ص: 9.

4)- Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, P : 375, O. Ducrot, TODOROV, Editions du Sevil 1972.

5)- Les vois du langage, P : 105.

6)- نفسه، ص: 105.

7)- Linguistique et poétique, P : 57, Librairie LAROUSSE 1973.

8)- الموازنة بين اللّهجات العربية الفصيحة (دراسة لسانية المدونة والتركيب)، ص: 5-7، عبد الجليل مرتاض، دار الغرب (وهران) 2002.

9)- يراجع في عالم النص والقراءة، ص: 8-9.

10)- يراجع:
Dictionnaire de didactique des langues, P : 561, Librairie HACHETTE 1976.

11)- Pour lire le Roman, P : 103, Edition A. de BOECK BRUXELLES 1980.

12)- Comprendre la linguistique, P : 107 Sous la direction de BERNARD POTTIER, Edition MARABOU, Paris 1975.

13)- Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique, P : 45-47, Editions LABOR, Bruxelle.

14)- استوحينا هذا الجدول من كتاب:

Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique, P : 46.

15) - Pour comprendre la linguistique, P : 55, MARINA YAGUELLO, Edition du SEUIL 1981.

16)- ديوان امرئ القيس، ص: 324، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2/1964.

17)- ينظر: Pour comprendre la linguistique, P : 55-58.

18)- Comprendre la linguistique, P : 41, sou la direction de BERNARD POTTIER, MARABOUT Université 1975.

19)- يراجع: Pour comprendre la linguistique, P : 92.

20)- ينظر المرجع السابق، ص: 149.

21)- الإيضاح في علل النحو، ص: 64، الزجاجي، تح: مازن المبارك، دار العروبة، القاهرة.

22)- Pour comprendre la linguistique, P : 149.

23)- سورة الرحمن، الآية: 24.

24)- سورة الشورى، الآية: 32.

25)- سورة إبراهيم، الآية: 4.

26)- الصاحبي في فقه اللّغة، ص: 77 أحمد بن فارس، تح: د.مصطفى الشويمي مؤسسة أ.بدران للطباعة والنشر، بيروت 1963.

27)- Initiation à la linguistique, P : 106, CHRISTIAN FAYLON PAUL FABRE, Editions FRNAND NATHAN 1975.

28)- نفسه، ص: 107.

29)- منهج البحث في اللغة والأدب (النقد المنهجي عند العرب)، ص: 446، أنطوان ماييه، ترجمة: د.محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة.

30)- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 164.

31)- راجع الموضوعية البنيوية (دراسة في شعر السياب)، ص: 21، د.عبد الكريم حسن، المؤسسة الجامعية، بيروت- 1/1983.

32)- منهج البحث في اللغة والأدب، ص: 441.

اللسانيات وفلسفة اللغة
بين "التأسيس والنقد"

د. الزواوي بغوره
قسم الفلسفة ، كلية الاداب،
جامعة الكويت

تعد اللسانيات بوجه عام واللسانيات البنيوية بوجه خاص، شكلا من اشكال عودة اللغة ومنعطفا اساسيا في الفلسفة المعاصرة، وذلك لما تتميز به من خصائص علمية وتطبيقات ميدانية، مكنتها من ان تصبح نموذجا علميا ومنعطفا لغويا ثالثا مقارنة بالتحليل المنطقي والتاويلي. لذا من الطبيعي بل ومن الضروري، ان يطرح سؤال العلاقة بين فلسفة اللغة بوصفها تفكيرا فلسفيا في اللغة والعلوم اللغوية المختلفة. وإذا كان من غير الممكن منهجيا تقصي جميع العلوم اللغوية، فانه من المهم ان نبين علاقة الالسنية بفلسفة اللغة وبالمنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة.

على أننا قبل أن نفصل القول في هذا الموضوع، فانه من الجدير الاشارة إلى أن هنالك من يفترض وجود "فلسفة السنية"، تقوم بتحليل مبادئ وقواعد ومناهج الألسنية، و تحتل المرتبة الثانية مقارنة بعلم الالسنية. تتضمن هذه الفلسفة الألسنية مواضيع أساسية منها على وجه الخصوص، الجانب الانطولوجي لعلم اللغة، وأسس علم اللغة، ووظيفة علم اللغة وتطوره التاريخي. كما تناقش فلسفة الألسنية، القضايا والموضوعات الخلافية بين المدارس الألسنية المختلفة، مثل أطروحات شومسكي المتعلقة بالأفكار الفطرية، وطبيعة اللغة والنحو

العام، ومشكلة النماذج الالسنية، التي تنحصر في الغالب بين نموذجين هما النموذج الجينيالوجي"Modèle généalogique " الذي يسمح بدراسة تطور النحو واللغات في التاريخ، والنموذج التوزيعي "Diffusionniste" الذي يصف اللغات، ويحلل مشكلة المنهج كما تبينه، على سبيل المثال، أعمال شومسكي القائمة على الطريقة التكوينية التحويلية في مقابل الطريقة الوصفية التزامنية. كما تقوم بتقييم النظريات اللغوية بين المدارس المختلفة، ومشكلة التفسير في الألسنية، والاختيار بين النظريات المتساوية من حيث القيمة الإجرائية، ومناقشة المبادئ المعرفية مثل البساطة والاتساق او الانسجام[1]. وسنعالج مسالة علاقة الألسنية بفلسفة اللغة وفقا للعناصر الآتية.

أولا . بين فقه اللغة والألسنية:

1. فقه اللغة:

يشكل فقه اللغة المرحلة الثانية والأساسية في دراسة اللغة بعد النحو والمنطق. ولقد بدات ابحاث فقه اللغة، انطلاقا من أعمال المدرسة الألمانية وخاصة اعمال "فريديريك فون شليجل" الذي دعا الى"النحو المقارن" في كتابه الذي صدر سنة 1808 بعنوان "عن اللغة والمعرفة عند الهنود"، وتبعه في ذلك " فرانز بوب" في سنة 1816 بكتاب عنوانه "عن نظام التعريف في السنسكريتية مقارنا بكل من اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية "، حيث حدد معالم "فقه اللغة المقارن".

ومنذ هذا التاريخ توسعت الدراسات الفقهية اللغوية، وتعمقت الابحاث في اللغة السنسكريتية. فما هو مضمون هذا العلم؟ يقول الدكتور زكي مبارك ، (ذكر السينيور جويدي في محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (17كتوبر 1926)

ان كلمة philologie يصعب ترجمتها إلى العربية، وان لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب. فمنهم من يرى ان هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية، ومنهم من يرى انه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها. واذا صح ذلك، فمن الممكن ان يدخل في دائرة "الفيلولوجي" علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الواسع، فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام)[2].

يجسد هذا التعريف، المباحث الكبرى لفقه اللغة ويجملها في اتجاهين كبيرين، اتجاه لغوي محض يختص باللغة وفروعها كالنحو والصرف والعروض وتحقيق النصوص والمقارنة بين اللغات، واتجاه عام يتخذ من اللغة وسيلة لدراسة الحياة العقلية والفكرية والثقافية لأمة من الأمم او لشعب من الشعوب، وذلك بدراسة آدابها وفنونها وفلسفاتها وأديانها، ولعل أهم معلم من معالمها، هو التفسير الديني الذي لا يمكن ان يقوم من دون درس فقه اللغة.

ومن الناحية التاريخية، تعد المباحث الفقهية اللغوية المتصلة بالمدرسة الألمانية متزامنة مع التفسير والتأويل الديني المسيحي، وخاصة في المذهب البروتستانتي وخير مثال على ذلك هو الفيلسوف واللاهوتي الألماني شلايرماخر، وكذلك "فريدريك نيتشه" الذي يعد مثالا للفيلسوف الذي جمع بين فقه اللغة والفلسفة، فلقد (كان اول فيلسوف كبير في عصرنا قام بعملية هدم كاملة للفلسفة منطلقا من اعتبارات لغوية، نيتشه جاء الفلسفة من فقه اللغة)[3]. وذلك لأنه يرى أن الأنساق الفلسفية ـ ومنها على وجه الخصوص النسق الهيغلي ـ قد

استسلمت لإغراء اللغة وافتتنت باستقرار النحو ومثاليته. فالوجود مثلا وهو مقولة مركزية في الميتافيزيقا هو مجرد استعارة، واستعارة ميتة أخذت من النمط اللغوي. وبالتالي فان المفاهيم الفلسفية مجرد استعارات، والفلاسفة في نظره بنو المفاهيم الفلسفية كاستعارات ميتة كانت بالنسبة لهم قلاعا يختبئون فيها خوفا من الحياة.

ان المفهوم تجريد، والتجريد يعني غياب الحياة، وبالتالي فان مفهوم الوجود وهو المفهوم الأول في الفلسفة يصبح الشبح الأكبر، والفلسفة تصبح في مثل هذه الحال(مجموعة من الأشباح أو مجموعة من الاستعارات الميتة)[4]. ويكمن الحل في نظره، في استعمال استعارات حية او مجاز حي، استعارات تعكس الحياة أو إرادة القوة. وهكذا برزت من خلال فقه اللغة مشكلات الفلسفة اللغوية. الا أن فقه اللغة من الناحية العلمية، عرف تطورا جديدا تمثل في ظهور علم اللغة الحديث أو اللسانيات أو الألسنية، فما هي مساهمتها في فهم اللغة وما هي علاقتها بالمنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة؟

2 . **الألسنية:**

جسدت اللسانيات المرحلة الرابعة من تطور علم اللغة، بعد النحو والمنطق وفقه اللغة وفقه اللغة المقارن، ويعتبر العالم السويسري " فردينا ند دي سوسير،1857-1913" مؤسس هذا العالم الذي عرض معالمه العامة في كتابة " دروس في الألسنية العامة " سنة 1916.

إن اللغة أداة لكل ما هو دال، ولكل معرفة واضحة، ولكنها في الوقت نفسه(مجال للمعرفة، تتمتع بقوانينها وبنياتها، وشروط تواجدها)[5]. وهذا يعني أن اللغة، يمكن أن تكون موضوع علم قائم بذاته. من هنا فان موضوع الدراسة

الألسنية الوحيد والحقيقي هو اللغة التي ينظر إليها كواقع بذاته، ويبحث فيه لذاته، وإن كان من الممكن دراسة اللغة في علاقاتها بالعلوم الأخرى، ودورها في المجتمع وعلاقتها بالثقافة والفكر.

وإذا كان موضوع الألسنة هو اللغة، فإن هدفها كما يقول "دي سو سير" هو عدم (التصرف ببنية اللغة، بل تحديد هذه البنية ووصفها).[6] ومن أجل هذا الهدف، تصطنع الألسنة منهجا في معالجة موضوعاتها، يعتمد على النظرة الكلية والتحليل التزامني، وذلك من أجل الكشف عن البنية اللغوية.

يقوم المنهج الألسني، على سلسلة من العمليات والخطوات الأساسية لدراسة موضوعه منها: ملاحظ الأحداث والمعطيات اللغوية ورصد تشابهاتها الجزئية وصياغة بعض التعليمات بهذه الأحداث المتماثلة والمتشابهة قصد إحداث بعض التعديلات في الوقائع التي تم ملاحظتها. وعلى أساسها يتم التقدم ببعض الفرضيات لتفسير هذه الأحداث، وهي مرحلة الفرض. ثم محاولة التأكد من ملائمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي، وذلك من خلال القيام بملاحظات جديدة وهذه هي مرحلة التجربة. ثم تليها مرحلة بناء النظرية القائمة على هذه الافتراضات التي تفسر عمل اللغة بصورة عامة[7].

إن هذه الخطوات الأساسية في المنهج الألسني، ذات علاقة واضحة مع خطوات المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، وذلك من حيث الاعتماد على الملاحظة العامة والخاصة، ثم التقدم بفرض ومحاولة التحقق منه عن طريق التجربة، ومنه إلى صياغة قانون عام، يعادله في الألسنية، النظرية العامة. وكنتيجة لهذه الخصائص التي يتميز بها المنهج الألسني، اعتبرت الألسنية علما دقيقا قائما بذاته.

يقول "مشال زكريا" (إن هذه الخصائص التي تتصف بها الدراسة اللغوية تجعل من الألسنية علما حديثا، يعتمد على العموم والتجريد في صياغة القواعد، ويتبنى لغة كلية، قائمة على رموز متعاقبة تفسر المعطيات اللغوية وتساهم بصورة مباشرة في تعميم اللغة واختبارها)[8].

واللسانيات بهذه الشروط – الشمولية أو التعميم والتجريد واعتماد اللغة الرمزية الشكلية – تكون قد حققت الشروط العلمية، وأصبحت تصنف ضمن قائمة العلوم الدقيقة. وعلى هذا الأساس العلمي، اتخذتها العلوم الإنسانية نموذجا موجها يعتمد عليه في الدراسة والبحث، وذلك(لأنها تقدم في تطورها المستقل النموذج الفعلي لمعالجة صارمة للأمور الثقافية والاجتماعية، وثانيا لأنها تدعو إلى معالجة الأنظمة الاجتماعية نفسها كأنظمة اتصال)[9].

كما تشكل اللغة، أداة للاتصال وتبادل المعلومات، بواسطة الرسائل، وهي رسائل متعددة، منها الصوتية الشفوية والبصرية والخطية، باختصار، تحقق عملية التواصل عبر نظام من الرموز، وتعد اللغة النموذج الرمزي الأكثر وضوحا لفعل التواصل، وهذا ما تبناه على سبيل المثال "كلود ليفي ستروس" في دراساته الانتربولوجية البنيوية، حيث طبق النموذج الألسني اللغوي على المجتمعات البدائية وبين أن التواصل في تلك المجتمعات يتم من خلال تبادل النساء والمنافع والرسائل.

وتعتبر مساهمة "دي سوسير" في اللسانيات ، بمثابة القاعدة النظرية والعلمية لظهور مختلف المدارس والاتجاهات الالسنية ولذا من الضروري، في تقديرنا، ان نشير الى بعض ملامحها العامة، وأثارها في ظهور المنعطف اللغوي باسم التحليل البنيوي المنغلق داخل البنية اللغوية.

يرى "دي سوسير" ان اللغة واقع قائم بذاته، ولا تحتاج اللغة إلى أي عنصر خارجي لتحديدها، حيث عرفها بقوله(اللغة نظامSystème لا يعرف إلا نظامه الخاص به)[10]. وتعني كلمة النظام او النسق (مجموعة القضايا التي تحدد ضمن اللغة استعمال الأصوات، والصيغ والتراكيب، وأساليب التعبير النحوية والمعجمية)[11].

إن اللغة، بهذا المعنى، نظام يتألف من بنى صوتية ومعجمية، انها " ألفاظ " وتراكيب "جمل " ودلالات " معاني"، وباعتبارها نظاما قائما بذاته، ، فان هذا سيسمح بالحديث عن السنية جديدة، ذلك لأن مفهوم النظام أو النسق هو المقدمة الأولى لمفهوم البنية، الذي سيحتل مكان الصدارة، في التحليلات ألا لسنية، ضمن المدرسة البنيوية.

وبالرغم من أن دي سويسر لم يقل بالبنية، إلا أن مفهوم " النظام – النسق " يؤدي نفس المعنى والغرض الذي سيؤديه مفهوم البنية. هذا وأن التقابلات التي أقامها كانت العلامة البارزة في إنشاء المنهج البنيوي، ومن بين هذه التقابلات:

أ. اللغة — الكلام: يعتبر هذا المبدأ من أهم المبادئ التي قال بها دي سوسير، وتم تطبيقه في العلوم الإنسانية، وخاصة في الانثربولوجية والنقد الأدبي و(يعد مسؤولا إلى حد كبير عن تطور فكرة البنية ذاتها، لأن الفصل الحاسم بين التصورات الذهنية للغة والتطبيق العملي للكلام، هو الذي ساعد على إضفاء صفة النظام التجريدي المترابط على المجموعة الأولى ونماذجها التي تحتذى في العمليات الأولى)[12]. وهذا المبدأ، يعني أن للغة ماهية اجتماعية، هذه الماهية مستقلة عن وعي الفرد، ومن هنا طابعها اللاوعي، هذا الطابع الذي سبق وان كشف عنه " فرا نز بواز ". وبهذا المعنى، تصبح اللغة (تقنين اجتماعي أو

مجموعة من القواعد)[13]، في حين أن الكلام، تحقيق عيني للغة، وهو مجرد عمل فردي، لذلك فهو يتنوع بتنوع الأفراد.

و عليه، فان الكلام يرتبط باللغة، و يتحقق كنتيجة لاستعمال اللغة، وهو في هذه الحالة مظهر لغوي محدد. أما اللغة فتمثل واقعا اجتماعيا ثابتا، بينما الكلام، فعل فردي متغير. اللغة هي الجزء الاجتماعي من عملية التكلم، فهي تكمن خارج نفوذ الفرد الذي لا يستطيع، والحالة هذه، أن يوجدها أو أن يعدل فيها [14].

إن هذه الخصائص هي التي جعلت اللغة تمتاز بالطابع، اللاشعوري أواللاوعي، هذا الطابع سيركز عليه كثيرا التيار البنيوي، بحيث جعل من اللغة، قانونا للتفكير. يقول احد الباحثين (وعلى هذا فالنظام اللغوي مسترعند أفراد البيئة اللغوية في اللاوعي، ومهمة البحث اللغوي أن يستخرج تلك العناصر والعلاقات المكونة للنظام اللغوي. ولقد التقى " دي سوسير " في محاضراته 1906 – 1911 والباحث الأمريكي " بواز" 1911 ، هنا حول القول بالطابع غير الواعي للظواهر اللغوية)[15]. إن هذا اللقاء حول نقطة اللاوعي، هو ما سيستغله أعلام البنيوية في دراسة المظاهر المختلفة للثقافة الإنسانية.

ب . الدال – المدلول: إن الدال هو الترجمة الصوتية لتصور ما، في حين أن المدلول هو الجانب الذهني للدال، وتتضح وحدتهما البنيوية في إطار العلامة، ذلك أن العلامة (عبارة عن اتحاد لصورة صوتية ألا وهي " الدال "، بتمثل ذهبي أو تصور ألا وهو "المدلول" وعلى حين أن الدال يندرج تحت النظام الذهني تكون العلامة عبارة عن ذلك الكل المتآلف من دال ومدلول، وان الدلالة هي مجرد علاقة تتحقق من تآلف هذين العنصرين)[16]. ومعنى هذا أن الدال هو الجانب الصوتي والمادي من العلامة، في حين أن المدلول هو الجانب المعنوي

والذهني من العلامة، وأن اتحادهما يؤلف بنية الدلالة رغم كون العلاقة التي تربط بينهما مجرد علاقة اعتباطية " Arbitraire ".

ج . **التزامن ـ التعاقب:** لا أحد يجادل في أن هذا المبدأ، هو الذي ميز اللسانيات البنيوي، وجعل منها نموذجا للعلوم الإنسانية. ويعني المحور التزامني أو الأفقي، أن الدراسة تقوم على رصد العلاقات بين الأشياء المتواجدة أو المتوافقة على أساس ثابت، ليس للزمان فيه أي دخل، وهذا يؤدي إلى دراسة الظاهرة في آنيتها أو في صورتها البنيوية. أما محور التعاقب، أو الدراسة العمودية، فتكون الدراسة فيه حسب العلاقات بين الأشياء المتتابعة على أساس التغير الزمني والتاريخي.

وبهذا المعنى تكون الدراسة التزامنية دراسة وصفية، في حين أن الدراسة التعاقبية دراسة تاريخية، أي أن التزامن يترجم،(جميع المظاهر التي تتصل بأوضاع النظم اللغوية من الوجهة الوصفية). بينما يترجم المحور التعاقبي (أشكال التطور التاريخية)[17]. ومن أهم مميزات المبدأ التزامني، اعتماده على استقلالية اللغة، بالنسبة إلى الأحداث التي تنتجها، وهذا ما يجعل من دراستها دراسة أولا وصفية وثانيا ثابتة وثالثا مستقلة عن جميع الظواهر والمتغيرات. كما يسمح، بدراسة العناصر اللغوية، من حيث علاقتها بالتنظيم اللغوي. وسيشكل مبدأ العلاقة، القضية المركزية في التفكير البنيوي، ويحل محل قضية الوجود أو الكينونة، حسب رأي "غارودي"[18].

ولقد أجمل " مشال زكريا " الأسباب التي جعلت الألسنية تأخذ بالمحور التزامني بدلا من التطوري أو التعاقبي، في هذا النص(ان التنظيم اللغوي بالغ التعقيد، وبالتالي لابد من دراسته قبل دراسة تطور اللغة، بكلام آخر، لابد من معرفة اللغة كواقع قائم بذاته، قبل تطورها عبر الزمن، من هنا إقرار

"دي سوسير "بضرورة الالتزام بالدراسة الوصفية للغة، قبل القيام بغيرها من الدراسات في المجال اللغوي)[19].

ومما لا شك فيه، أن هذه الأفكار، أو بالأحرى الأسس التي قال بها دي سوسير، قد عرفت تطورا من قبل المدارس اللسانية وخاصة من قبل ما يعرف بحلقة " براغ" التي تأسست في " تشيكوسلوفاكيا " سابقا، وضمت العديد من العلماء، ينتمون إلى بلدان مختلفة كـ"روسيا" و"هولندا" و" ألمانيا "و " إنجلترا " و"فرنسا ". ولقد قام هؤلاء العلماء بصياغة مبادئهم ونشروها في المؤتمر الدولي الأول لعلماء اللغة الذي انعقد في " لاهاي " سنة 1928، بعنوان : "النصوص الأساسية لحلقة براغ".

ومن أكبر ممثلي هذه الحلقة "جاكبسون " و" تروبتسكوي "، ويعتبر هذا الأخير مؤسس " الفونولوجية Phonologie" أو علم الأصوات الحديث، ولقد جمعت أعماله في كتاب صدر سنة 1939، وذلك بعد وفاته بسنة، تحت عنوان " مبادئ الفونولوجية Principe de Phonologie "، فماذا تعني الفونولوجية وما علاقتها باللسانيات وبالبنيوية؟

إن الفونولوجية عبارة عن(مجموع الدراسات التي تبحث في تنظيمات الفونومات الخاصة باللغات المعروفة)[20]. فالشيء الجوهري في الدراسة الفونولوجية هو الصوت، ليس كعنصر معزول أو جزئي، بل في علاقته بمجموع الأصوات. لذلك فعلم الفونولوجية يختلف عن علم الفونتيكا" Phonétique "، الذي هو (مجموع الدراسات التي تعالج أصوات اللغة وكيفية النطق بها وطبيعتها الفيزيائية)[21]. ولقد ساهم هذا العلم مساهمة فاصلة في بلورة المنظور الجديد للغة.

تعتمد الفونولوجية، على جملة من المصطلحات مثل "الفونيم Phonème" و السمة الفونولوجية، والتضاد الفونولوجي. الفونيم هو كل وحدة فونولوجية لا يمكن أن تنقسم إلى وحدات فونولوجية أصغر، وتكون الوحدة الفونولوجية طرفا فونولوجيا في مقابل طرف فونولوجي آخر، وكل تقابل صوتي يستخدم في لغة بعينها للتمييز بين المعاني. ومعنى هذا أن اللغة تنظيم وظيفي أي (تنظيم قائم على الوسائل التعبيرية المستعملة بهدف إقرار غاية معينة)[22] . يقول " تروبتسكوي" (ليس بإمكان صوت لغوي أن يؤدي وظيفة تمايزية إلا بمقدار ما يكون مضادا لصوت آخر)[23]. لذا يرى، أن مفهوم الفونام، يأتي من مفهوم التقابل والتضاد في المجال الصوتي.

ولقد حصر تروبتسكوي خصائص علم الأصوات في أربعة مبادئ هي: الجانب اللاشعوري، ذلك ان علم الأصوات لا يدرس الظواهر اللغوية الشعورية، بل يعتمد على دراسة البنية اللاشعورية. كما انه لا يدرس " الحدود، او الاصوات " منفصلة، بل يدرس العلاقات القائمة بينها. وتؤلف هذه العلاقات الضرورية، من ضروب التقابل وأشكال التنظيم "نسقا" صارما ومحكما. وأخيرا فان هذا العلم، لا يسير على نهج تجريبي، انطلاقا من وقائع تم ملاحظتها، بل يسير على نهج منطقي استنباطي، انطلاقا من نموذج قد تم تركيبه، مما يسمح له بالوصول إلى قوانين عامة. يعني هذا، أن المنهج الفونولوجي يعتمد على تحليل نسق العلاقات التي تنطوي على وظيفة داخل التنظيم اللغوي لأي دال على اعتبار أن كل فونيم مركب من السمات الخاصة التي تميزه عن فونيمات النسق، والتي تمثل هويته أو وحدته الخاصة[24].

ولقد كانت حلقة براغ أول من استعملت كلمة "بنية Structure " كمفهوم جديد، وذلك سنة 1928 حيث أصبحت البنية، تعني (دراسة العلاقات

داخل لغة من اللغات)[25]. وشكلت مرجعا ونموذجا للعلوم الإنسانية، تم تطبيقه من قبل عديد العلماء، كان أولهم كلود ليفي ستروس، وفي هذا السياق يقول احد الباحثين(يشير "ليفي ستروس " إلى بحث نشره " تروبتسكوي" سنة 1933، يبين فيه الأساس النظري لمراحل التحليل بحيث تمضي: من الظواهر الواعية إلى دراسة العلاقات اللاواعية، فالنظام أو النسق، ثم القانون، ويرى " ليفي ستروس " أن علم الفونولوجية يكون بهذا، هو أول العلوم الاجتماعية التي نجحت في بيان طبيعة الظاهرة قيد البحث، وفي بلورة المنهج المناسب لها) [26].

ولقد تعززت حلقة براغ بجهود "رومان جاكبسون" الذي أسس ما يعرف في اللسانيات بنظرية وظائف اللغة، وذلك في كتابه" مدخل أو محاولات في الالسنية العامة" حيث بين ان اللغة، او الرسالة، او الخطاب، تتم من خلال عملية المرسل او الباعث والمستقبل او المتلقي، والرسالة او الخطاب، والرمز أو القانون الذي يحكم الرسالة، وان اللغة تنجز وظائف يمكن إيجازها في الوظيفة الاحالية، حيث يصف الخطاب العالم، وهي وظيفة اولية وأساسية، ركز عليه كثيرا بول ريكور في تحديده للغة[27]، وهنالك ثانيا الوظيفة التعبيرية حيث يتم التركيز على الباعث أو المرسل أو المتحدث أو الذات، وهنالك ثالثا الوظيفة الإحائية حيث يتم التركيز على المستقبل أو المتلقي أو القارئ أو المستمع، وينتظر أن يحدث الخطاب فيه سلوكا أو فعلا وهو الجانب الذي طورته نظرية أفعال الكلام وخاصة في الجانب المتعلق بالفعل التأثيري، وهنالك وظيفة رابعة وهي وظيفة ما بعد اللغة، حيث يتم التركيز على الخطاب أو الرسالة أو اللغة ذاتها، حيث تصبح اللغة ذاتها موضوعا للغة، ويدرسها علماء اللغة أو فلاسفة اللغة أو غيرهم، وهنالك الوظيفة الخامسة وهي الوظيفة الاتصالية أو الترابطية حيث تقام العلاقة مع الآخر، وهنالك أخيرا أو الوظيفة السادسة وهي الوظيفة الشعرية حيث يتم التركيز على اللغة ولكن في جوانبها

الجمالية ويتم البحث عن القوانين الخاصة باللغة الجمالية، ولقد كان لهذه النظرية أثرها البالغ على تقدم الدراسات الألسنية وعلى فهم بنية اللغة[28].

وإذا كانت حلقة براغ تشكل جانبا أساسيا من جوانب النظرية البنيوية في اللسانيات، فان المدرسة الأمريكية بزعامة شومسكي، تشكل تطويرا ونقدا للسانيات البنيوية، بل وخروجا على النموذج البنيوي، القائم على دراسة النسق اللغوي بطريقة تزامنية بعيدة عن المتغيرات التاريخية والاجتماعية.

ثانيا . شومسكي في سياق المدرسة اللغوية الأمريكية:

1 . في المدرسة الأمريكية:

لا نستطيع الحديث عن مساهمة شومسكي اللسانية، من دون الإشارة إلى أهمية المدرسة اللسانية الأمريكية سواء في مفهومها للغة أم في أثرها على نظرية شومسكي اللغوية. وتأتي أهمية المدرسة اللسانية الأمريكية من حيث تأكيدها على الجانب التوزيعي في اللغة، وهو ما بينه "سابير" و" بلومفيد "، ثم العملية النقدية التي أنجزها " شومسكي "للألسنية البنيوية، وتقديمه لنظرية جديدة في اللغة.

يعتبر "إدوارد سابير1848-1939" من تلامذة "فرانز بواز" مؤسس فقه اللغة المقارن والانثربولوجية الأمريكية، قام بدراسات ميدانية حول اللغات " الأمريكية ـ الهندية "، ومن أهم أفكاره، دعوته الى التمييز بين التنظيم اللغوي المثالي أو النموذجي وبين التنظيم المادي أو الواقع الكلامي، معتبرا أن التنظيم الحقيقي والهام في حياة اللغة هو التنظيم المثالي، وهو ما يمكن مقارنته بالتمييز الذي أقامه دي سويسر بين اللغة والكلام، او ما قال به "همبولت" وشدد عليه كسيرر، الذي أكد على الطرح الكانطي للمعرفة القبلية[29]. وحدد اللغة من

حيث أنها بنية وشكل قائم على علاقات العناصر ووظيفتها. وفرق بين المستوى التاريخي والمستوى الوصفي، وبين المستوى الفونولوجي والمورفولوجي[30].

وإذا كانت هذه الأفكار تجمعه أكثر باللسانيات البنيوية، فإن أهميته، تظهر كذلك في العلاقة التي أقامها بين اللغة والمجتمع، وذلك في إطار دراساته الانثربولوجية. يقول احد الباحثين(والواقع أن أول فيلسوف استطاع أن يشمل اللسانيات وفلسفة اللغة والحياة الاجتماعية هو " إدوارد سابير " الذي وضع الأسس الانتربولوجية لدراسة اللغة)[31].

وقد كان له الأثر الكبير في تطور الدراسات اللغوية والانسانية على حد سواء، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات المتبادلة بين اللغة والفكر وبين الفكر والبنية الاجتماعية، كما وضع أسس التحليل التزامني للنظام اللغوي، وهو تحليل يوازي تحليل دي سوسير أصالة وجدة.

كما بين سابير الطابع اللاوعي والاجتماعي للغة، يقول (إن اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معين والتي يتكلمها أبناء هذا المجتمع ويفكرون بواسطتها هي" المنظم L'organisateur " لتجربة هذا المجتمع، وهي تصوغ بالتالي عالمه وواقعه الحقيقي فكل لغة، بكلمة مختصرة، تنطوي على رؤية خاصة للعالم).[32] ووفقا لهذا الفهم، فإن اللغة هي القانون المنظم للحياة الاجتماعية، وتعتبر أداة للكشف عن ماهية المجتمع.

كما ساهم في بلورة المدرسة اللغوية الأمريكية "ليونارد بلومفيد1887-1949"، مؤسس النزعة التوزيعية في اللسانيات الحديثة، تأثر بالمذهب السلوكي في علم النفس، وأكد على أن(فعل الكلام مجرد سلوك له طبيعة خاصة)[33]. وأن الكلمة يجب أن تحلل بواسطة شروطها الخارجية، لذلك فهو يعارض بين آلية

اللغة والنظرة الذهنية، وتستند هذه النظرة، على القاعدة السلوكية القائمة على" المؤثر والاستجابة "وأهم مميزاتها، جمع أكبر عدد ممكن من الكلمات والمفردات، ووصف وترتيبها، والاهتمام بالسياق بدلا من الوظيفة والمعنى، وضرورة القيام بعملية(وصفية دقيقة نقتصر فيها على وصف اللغة)[34].

إن هذا الاتجاه، كما توضحه مميزاته، حاول إقامة لسانيات تصنيفية" Taxinomique "، تعد تكملة للبنيوية، وهو ما حاول احد تلامذة "بلومفيد" وهو "هاريس Harris" في كتابه " مناهج اللغويات البنيوية " سنة 1951 ان يبينه. وسيعمل شومسكي على مناقشة هذا الاتجاه ونقده.

2 . مساهمة شومسكي:

جمع العالم اللغوي الأمريكي "نعوم شومسكي 1928" بين البحث العلمي الألسني وبين الطرح الفلسفي للكثير من القضايا الفلسفية واللغوية، مع اهتمام دائم بالقضايا السياسة كالسلم العالمي والديموقراطية والعولمة. ويعد مؤسس " النظرية التوليدية والتحويلية " في اللغة، كتب العديد من الأعمال الألسنية والفلسفية منها على سبيل المثال، "التراكيب النحوية 1957" و" اللغة والفكر 1968" و"تأملات في اللغة 1975" و"دراسات في الشكل والتفسير 1977" و"اللغة ومشكلات المعرفة،1990".

و تكمن أهمية " شومسكي " بالنسبة لبحثنا، في العملية النقدية التي قام بها تجاه اللغويات البنيوية، ومحاولته تجاوزها وذلك بإقامة ألسنية توليدية تحويلية، تتماثل ومشروع "بياجي" في تأسيس بنيوية تكوينية[35]. والحقيقة أن نقده، لا يقتصر على الألسنية البنيوية بل امتد إلى النحو التقليدي أو " النحو المقارن "، إذ يرى أن الألسنية المسماة بنيوية أو النحو التقليدي لم يستطيعا تجاوز مرحلة

الملاحظة والتصنيف، وأن ما يظهر من اختلاف بين الاتجاه النحوي القديم والألسنية البنيوية مجرد اختلاف على المستوى الكمي، لذلك فإن نقطة الضعف في الألسنية البنيوية هو اقتصارها على الوصف "Description دون التفسير ." Explication

كما تكمن أهمية شومسكي، في محاولته تجاوز الثنائيات التي أقامتها اللسانيات البنيوية، وذلك باعتماده على الجملة اللغوية كأساس، باحثا في الوقت نفسه عن(جوهر اللغة في عملية الكلام التي تمثل وظيفتها وانفتاحها متحدرة من النظام إلى الحدث إلى القول، وباحثة عن البنية في الكلام)[36]. وبين ذلك في جملة من المبادئ أهمها:

أ. **الكفاية اللغوية والأداء الكلامي:** يميز شومسكي بين الكفاية اللغوية أي المعرفة الضمنية لمتكلم اللغة المثالية والعارف بقواعد لغته، وبين الأداء اللغوي أي طريقة استعماله للكفاية اللغوية بهدف التواصل. (تتوصل نظرية الكفاية اللغوية إلى اكتشاف وتنظيم القواعد الضمنية التي تمثل اللغة الكامنة ضمن الكلام العادي، في حين تتوخى نظرية الأداة الكلامي دراسة المبادئ التي يستعملها في إنتاج هذا الكلام وتفهمه)[37].

ب . **البنية السطحية والبنية العميقة:** يعتمد شومسكي على مستويين لدراسة الجمل اللغوية، ويميز بين البنية السطحية أو الظاهرة، ويتم التوصل إليها عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلم، والبنية العميقة أو الباطنية التي تعكس المنطق الداخلي للجمل اللغوية.

ج . **وظيفة اللغة:** ركز شومسكي على الوظيفة الإبداعية للغة، التي ترتبط أساسا بذات المتكلم، على خلاف الألسنية البنيوية التي تهتم باللغة بعيدا

عن ذات المتكلم، فما (أصبح يمثل اليوم النقطة المركزية التي تدور حولها كل الدراسات اللغوية الحالية إنما هو المظهر الإبداعي للغة...إن الظواهر لتوحي بأن الذات المتكلمة تخترع لغتها، بوجه من الوجوه كلما عمدت إلى التعبير عن نفسها)[38]. وفي هذا تقارب كبير بينه وبين همبولت وكسيرر في تركيزهم على اللغة بوصفها طاقة إبداعية.

يرى شومسكي، أن الطفل يمتلك قدرات فطرية تساعده على تقبل المعلومات اللغوية. ولقد حاول في نظريته الألسنية، إحياء بعض المفاهيم التقليدية العائدة إلى "القواعد الفلسفية " أو الألسنية الديكارتية كما يسميها، وتتمثل تلك القواعد في البحث عن الروابط التي تقرن الأصوات بالدلالات، ومواضيع اكتساب اللغة عند الطفل والكفاية الفطرية والمبادئ الكلية وتنوع اللغات. ولا يجب، في تقديره، القيام بعملية الفصل بين علم اللغة وعلم النفس والفلسفة، ذلك أن علم اللغة قادر على أن يساهم في دراسة ومعرفة طبيعة العقل البشري، أي مجموع الملكات المعرفية التي نسميها بالعقل، وكتب في هذا الشأن عدة دراسات أهمها علم اللغة الديكارتي، واللغة والعقل، واللغة ومشكلات المعرفة.

واللغة في نظره، إذا كانت تستحق الدراسة، فلأنها هي التي تميز الإنسان ولأنها لازمة للفكر، لذا يرى أن الهدف الأساسي لعلم اللغة هو بناء نظرية استدلالية خاصة بتركيب اللغة الإنسانية، بحيث يمكن تطبيقها على جميع اللغات وليس على اللغات التي نعرفها فحسب بل وعلى جميع اللغات المحتمل معرفتها، ويرى أن هذه النظرية لا ينبغي أن تكون مغرقة في التعميم حتى يمكن تطبيقها على نظم الاتصال الأخرى أو أي نظام آخر نريد له أن يدخل في إطار

ما نطلق عليه مصطلح "اللغة " أي بعبارة أخرى، إن علم اللغة ينبغي أن يكون عاما وشاملا ومحددا للخصائص الأساسية للغة الإنسانية[39].

ولعل من أهم الخصائص التي تميز شومسكي وتبين أصالته، ما يشير إليه دائما تحت مصطلح الصورية الكلية، وهي عبارة عن مبادئ عامة تحدد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال النظم النحوية لعدة لغات معينة،[40].

كما دعا إلى قيام نحو عالمي أو كلي، لخصه في هذا النص(لنعرف "النحو العالمي" بأنه نظام من المبادئ والقواعد والشروط، نظام هو عبارة عن عناصر او خصائص مشتركة بالنسبة لسائر لغات العالم، نظام ليس فقط وليد الصدفة ولكنه نتاج الضرورة، أيضا ـ الضرورة الحيوية لا المنطقية بطبيعة الحال ـ وهكذا يمكن اعتبار النحو العام، تعبيرا عن ماهية اللغة الإنسانية وجوهرها، وهو لا يختلف باختلاف الإفراد، وإنما يعمل على تخصيص حالة متعلم اللغة حينما يتم هذا الأخير بنجاح. ويحتوي موضوع التعلم كبنية معرفية مكتسبة على جميع خصائص النحو العالمي، مع وجود خصائص محتملة أخرى وستكون جميع لغات العالم متطابقة مع النحو العالمي ولن يكون الفرق إلا في هذه الخصائص العارضة...هكذا نعرف النحو العالمي إذن بأنه مجموع الخصائص الصوتية والدلالية والبنائية.)[41].

لا يختلف هذا الطرح على مستوى النحو، عن الطرح الذي دافعت عنه الفلسفات العقلية في العصر الحديث، باسم لغة عالمية، وإذا لم يكتب النجاح بعد لقيام لغة العالمية، فكذلك الحال بالنسبة للنحو العالمي، إلا أن ما يجب التأكيد عليه، هو أن شومسكي، وبناء على هذه المبادئ العقلية استطاع نقد النموذج البنيوي، لأن الألسنية البنيوية تدرس المستوى السطحي للكلام، ولا

تبحث في المستوى العميق، كما لا تراعي التحول(فالألسنية البنائية لا تحاول تفسير الكلام بل لا تبحث في مسار عملية التكلم ولا في آليتها الكامنة ضمن المظهر الإبداعي في استعمال اللغة، فالمنهج الوصفي التطبيقي لا يفي بالهدف العلمي للدراسة الألسنية)[42].

ومن هنا نستطيع القول، أن الألسنية البنيوية قد بلغت في الواقع حدود قدرتها من حيث هي منهجية وصفية، ولكن ثمة قضايا ومشكلات لغوية عديدة بقيت دون أن تستطيع معالجتها بصورة وافية، ولابد والحالة هذه، من اعتماد المبادئ التفسيرية للتوصل إلى دراسة آلية اللغة وارتباطها بالفكر الإنساني.

يسمح هذا النقد الذي قدمه شومسكي للسانيات البنيوية، أن نتعرف على الموقف المعرفي للألسنية البنيوية وهو ما يظهر في عملية انشطار الجسم اللغوي وانقسامه إلى ثنائيات أو تقابلات متعددة من مثل اللغة والكلام..الخ. إن هذا الانشطار هو كما يقول احد الباحثين،(سمح ببناء خطاب حول مجال اللغة، ضيق ومحدود أساسا كموضوع للمعرفة...كما أن لعملية الانشطار هذه نتيجة مزدوجة: انغلاق أمام أي تدخل للعالم الخارجي، وتحليل ما هو داخلي على أساس نسقي .. أخيرا بإخضاعه "سوسير"المنهج التعاقبي للمنهج التزامن، ينفي المشكلة الوراثية التاريخية، مبتعدا عن التفكير في العوامل الزمنية والذاتية التي قد تؤثر على اللغة) [43].

ثالثا. بين شومسكي وميشيل فوكو:

إن ما دعانا إلى تخصيص عنصر لمناقشة موضوع اللغة بين شومسكي وفوكو، هو نقدهما لنموذج اللسانيات البنيوية، ولعل هذا يبدو غريبا بعض الشيء بالنسبة إلى أولئك الذين تعودوا تصنيف ميشيل فوكو في التيار البنيوي من دون

تمييز أو تخصيص، وسيتبين للقارئ، مدى اختلاف وجهة نظر فوكو في اللغة عن الطرح البنيوي أولا ومدى نقده كذلك لطرح شومسكي رغم اتفاقهما كما قلنا في نقد اللسانيات البنيوية ثانيا.

أكد فوكو، على أهمية اللسانيات البنيوية في تشكيل المنعطف اللغوي، ومحاولته الخروج منه عبر مفهومه للخطاب، يقول(إن أهمية الألسنية وتطبيقها على معرفة الإنسان تعيد بإلحاح لغزي طرح كينونة اللغة، التي سبق وأن رأينا مدى ارتباطها بالإشكاليات الأساسية في ثقافتنا. وهي إشكالية يزيدها ثقلا الاستعمال المتزايد للمقولات اللسانية، إذ يجب من الآن فصاعدا التساؤل عما يجب أن تكون عليه حتى تبنى هكذا ما لم يكن في ذاته مع ذلك كلاما ولا خطابا من أجل أن تتمفصل على الأشكال البحتة للمعرفة)[44]. وخص الألسنية في كتابه" الكلمات والأشياء"، وبين ان فقه اللغة والألسنية والأدب وجهود نيتشه و"مالارميه"، في العصر الحديث، بالإضافة الى تقنيات التأويل عند "ماركس" و"فرويد" و"نيتشه" والفلسفة الظواهرية والمنطق الرمزي، تؤكد العودة القوية للغة.

يقول فوكو(تدعي الأولى ـ التأويل ـ استنطاق الكلام للكشف عما يقال خلفه ومن دونه، وتدعي الثانية ـ التشكيل ـ السيطرة على أي كلام محتمل، وإخضاعه للقوانين التي تنص على ما يمكن قوله. فأضحى التأويل والتشكيل الشكلين الأولين للتحليل في عصرنا(...) لكنه لا يتصف بما يكفي من الدقة، والخيار الذي يفرضه لا يغوص إلى حد كاف في ثقافتنا(...) وفي الحقيقة يشكل هذان الفرعان تقنيتين متضايفتين، ذلك ان اللغة التي نشأت على عتبة العصر الحديث شكلت لهما الأرضية المشتركة التي انطلقت منها إمكانية وجودهما)[45].

وهو ما تلخصه عبارة المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، التي صاغها الفيلسوف الأمريكي "ريشارد رورتي" سنة 1967[46].

اهتم فوكو بالنحو العام وجماعة "بورروريال"، هذا الإهتمام لا يعكسه فقط المكان الكبير المخصص له في كتاب "الكلمات والأشياء" واتخاذه نموذجا للنظر اللغوي، بل خصه بدراستين فرعيتين، الأولى بعنوان "النحو العام لبورروريال"،والثانية عبارة عن مقدمة لكتاب "أرنولد ولانسلو، النحو العام" وحملت عنوانا هو: النحو العام واللسانيات وذلك في سنة 1969، وهي السنة التي نشر فيها كتاب "اركيولوجية المعرفة" والخاص بالخطاب كما هو معروف.

وأول ما يمكن ملاحظته على الدراستين كونهما تشكلان دراسة واحدة، ليس فقط لأنهما تدرسان موضوعا واحدا وفترة واحدة، بل لأن الثانية مجرد إضافة للأولى تم ربطها بالألسنية الحديثة، فإذا كانت الدراسة الأولى عرض لنظرية النحو العام من خلال التمييز بين العقل والفكر والمنطق، وبين فن القول وفن التفكير، وبين نحو محايث يشكل بنية داخلية للقول ونحو وصفي للغة، وهو ما يشبه العلاقة بين الفكر والمنطق، وإذا كان النحو هو منطق القول، فإن المنطق هو نحو الفكر، وكذلك نظرية الأصوات ونظرية أشكال الكلام، وغياب نظرية العلامة وتعويضها بنظريات التمثيل، القائمة على: التمثيل ->الشيء، ثم ، الشيء->التمثيل،أو، فكرة->[موضوع = فكرة--> موضوع] وهو ما سمح للغة أن تتشكل في وحدة جديدة هي وحدة الخطاب [47].

إن هذه الأفكار نجدها في الدراسة الثانية مقرونة بالألسنية، حيث ناقش فوكو أفكارا أساسية منها:النحو العام واللسانيات، والنضج البيداغوجي لـ"بورروريال"، العقل والتعميم، العلاقة بالمنطق، نظرية العلامة، خصوصية الكلمات والأشكال، وأخيرا ما بعد "بورروريال".

يرى فوكو، أن علم اللغة الحديث أو الألسنية لا ينفصل عن النحو العام، وأنه سواء تعلق الأمر بالنحو العام أم بمحاضرات "دي سوسير" فإن الموضوع واحد من حيث المرجعية، مرجعية نظرية العلامة وتحليل اللغة، كحالة خاصة ومعقدة. وهي (نفس المحاولة لتحديد شروط عمل اللغات، ونفس الأفضلية المعطاة للتنظيم، لتنظيم اللغات، ونفس الإرادة في تحليل النحو العام على أساس النظام أو النسق)[48].

ويتساءل فوكو عن أوجه التشابه بين النحو العام واللسانيات، ويرفض إكتشاف صلة القرابة من نوع أن النحو العام مجرد حلقة في تاريخ الألسنية، وهنا يشير إلى محاولة "شومسكي" لإقامة ألسنية تحويلية، وذلك من خلال قراءة نحو "بورروبال" ، تلك المحاولة التي ترى في النحو لا النظام، وإنما الإبداع أو بتعبير آخر الطابع الإبداعي للغة.

في تقدير فوكو، ان ما لم يطوره النحو العام، هو نظرية العلامة، لانه حصر المسألة في الدال والمدلول، أوفي الإسم والمسمى،أو في التمثيل-> الشيء،والشيء-> التمثيل. وان غياب نظرية العلامة هو ما ستتكفل به الألسنية، وخاصة الألسنية البنيوية.

كما أن عمل "لانسلو - ارنولد" لا يشكل انقلابا في الدراسات الألسنية، كما يذهب إلى ذلك شومسكي، وإنما يعتبر تحولا في المعرفة النحوية وتحليلا جديدا للغة، أو على حد تعبيره "حيز إبستيمولوجي جديد". هذا الحيز هو الذي سيعرف في القرن التاسع عشر باسم النحو المقارن وفقه اللغة، وبذلك يتم إعادة النظر في نظرية العلامة والتمثيل، وعلاقة الشيء بالفكر. إنها المرحلة الثالثة في البحث اللغوي، الذي عرفه العصر الحديث.

فما هو موقف شومسكي من النحو العام؟ على عكس فوكو، يرى شومسكي أن العصر الكلاسيكي هو عصر العبقرية، حيث (وضعت قواعد العلم المعاصر)[49]. وأصول الفلسفة العقلية مع "ديكارت"، وهو الشيء الذي ينظر إليه فوكو بكثير من الريبة والنقد. ومن هذا العنصر، استخرج شومسكي نظريته اللغوية المسماة بـ"النحو التحويلي"، والقائمة على دراسة البنية العميقة والبنية السطحية، والكفاية اللغوية، والأداء اللغوي، والوظيفة الإبداعية، هذه المعالم الكبرى للنظرية أطلق عليها إسم " اللسانيات الديكارتية" في إطار النحو التحويلي، كما بينا ذلك سابقا.

ولقد شكلت المدرسة الديكارتية، وجماعة "بورروبال" خلفية تاريخية ومعرفية لهذه النظرية،يقول(لقد إتحدت الفلسفة العقلانية، التي اهتمت باللغة، بمختلف التطورات الأخرى المستقلة عن القرن السابع عشر، وأدت إلى قيام أول نظرية عامة، ذات دلالة تتعلق بالبنية اللغوية، أعني وجهة النظر العامة التي حصلت على تسمية "النحو الفلسفي" أو"النحو الكلي")[50].

يشير شومسكي إلى غياب الدراسات اللغوية حول جماعة بور رويال، وينفي عنها فكرة أن تكون "بضعة من اللغة اللاتينية"، ويرى أن المفهوم المركزي في هذا النحو هو "النظام"، كوحدة نحوية، وهو ما أشار إليه فوكو. ومن الغريب أن "شومسكي" لا يشير إلى فوكو في كتابه "اللغة والعقل" الذي صدر سنة 1972، ويعود إلى طبعة سنة 1967 ويتأسف لعدم إهتمام الباحثين- كما قلنا- بهذا العمل الرائد. ويرى أن عمل "بورروبال" تحقيق لما ذهب إليه في نظريته النحوية، وهو ما لا يوافق عليه فوكو.

وإذا كان شومسكي يرى أن (العلاقة القائمة بين نظرية بور رويال واللسانيات البنيوية والوصفية المعاصرة واضحة إلى حد ما، وتتحدد هذه

العلاقة في تحليل ما أسميته بالبنية السطحية، وفي الخصائص الصورية الظاهرة في الإشارة وفي المركبات والوحدات التي يمكن أن يتم صوغها بدقة بفضل تقنيات عملية التقطيع والتصنيف)[51]. فإن فوكو لا يصرح بذلك مشيرا إلى أن النقص النظري في ميدان العلامة والطابع الثنائي للدال والمدلول، هو الذي سمح بظهور فقه اللغة الذي أشاد به.

كما أنه إذا كان شومسكي، يوحد بين الجهد الفلسفي للنحو العام، والجهد العلمي للسانيات البنيوية، وهو ما قاله في محاضرته الأولى عن العقل واللغة بأنه (يمكننا أن نصف اللسانيات المعاصرة بأنها علم يهتم بالوقائع المفصلة، ونصف النحو الفلسفي بأنه يهتم بدوره بالتعميم المجرد، لقد آن الأوان، في نظري، لكي نوحد هذين التيارين الأساسيين ونبلور تركيبا خالصا يجمع نتائج وخلاصات كل منهما)[52].

فإن فوكو يميز ويفرق بين جهود الألسنية الحديثة وجهود النحو العام وحدوده الإبستيمولوجية. يتضح هذا في دراسته لعلاقة الألسنية بالعلوم الاجتماعية، حيث يرى أن الألسنية لا تمثل نموذجا للعلوم الإنسانية، كما هو حال البيولوجيا أو الإقتصاد التي كانت نماذج لهذه العلوم في القرن التاسع عشر، بل يرى أن الألسنية تشكل (منطلق قراءة أولية، فالأشياء من المنظور اللساني لا تدخل حيز الوجود إلا إذا كانت عناصر لمنظومة دالة. فالتحليل اللساني هو إدراك أكثر مما هو تفسير: أي أنه هو الذي يكون موضوعه نفسه)[53]. ذلك أن الألسنية مجال معرفي قائم بنفسه، حقق مجموعة من الشروط العلمية التي تصنفه مع باقي العلوم الدقيقة. لذلك فتحليلاتها تشكل معرفة قائمة وليس تأويلا لغويا مثل ما هو الحال في العلوم الإنسانية، وباعتبارها كذلك فإنها هي التي تشكل موضوعاتها.

ومع ظهور مفهوم البنية، كعلاقة ثابتة بين مجموعة من العناصر، يمكن لنا في نظر فوكو طرح العلاقة بين العلوم الإنسانية واللسانيات. وذلك لما تتمتع به البنية من خصائص معرفية، وهو ما يسمح بربط العلاقة بين العلوم الإنسانية والعلوم الشكلية والقبلية كما يقول. كما حلل مجموعة من المسائل منها: أن الألسنية في صورتها الحديثة قد بلغت مع "دي سوسير" وأتباعه وكذلك في تطبيقات "ليفي ستراوس" مستوى العلمية، بالاضافة الى تقنيات التشكيل وعلاقتها بالعلوم الإتصالية والإعلامية، وعلاقتها بالبيولوجيا والهندسة الوراثية، وهذا يعني أن الألسنية بلغت مستوى من العلمية نقلت فيه العلوم الإنسانية من المعرفة التأويلية إلى المعرفة الشكلية، وهكذا أصبحت الألسنية علما حقيقيا أو دقيقا. ولأنها حققت مستوى من العلمية، فإنها أصبحت نموذجا للعلوم الإنسانية مثل ما هو حاصل في تحليل الأساطير والتحليل الأدبي وعلم الإجتماع.

إلا انه يرى أن العلاقة بين الألسنية والعلوم الإجتماعية ليست جديدة، كما نتصور ذلك عادة، وخاصة تحت تأثير الألسنية البنيوية، بل إن هذه العلاقة تعود إلى القرن الثامن عشر، عندما صنف "دالمبير " موسوعته في شكل لغوي، كما يمكن الإشارة إلى نص "شلايجل " الذي كتبه سنة 1807، حول اللغة وحكمة الهنود حيث حلل المجتمع والدين والفلسفة عند الهنود، على أساس لغوي. كما يجب التذكير بأعمال "جورج دوميزل " الذي لم يكن لسانيا وإنما متخصصا في فقه اللغة، وتمكن من اعادة بناء وتشكيل بنية المجتمع والدين لبعض المجتمعات الهندو-أوروبية، إنطلاقا من التحليل الفيلولوجي أو الفقهي.

وعليه،استنتج فوكو، ان العلاقة ليست جديدة بين اللغة والعلوم الإجتماعية، وكذلك الإنفصال بين اللغة وباقي العلوم الإجتماعية. وإنما تعود

العلاقة إلى أيام "راسك" و"شلايجل" و"غريم" الذين أسسوا مجال فقه اللغة بخطوطه العامة ومناهج تحليلية وتطبيقات حققت نتائج قيمة[54].

على أن جديد الألسنية يتمثل، في أنها تقدم للعلوم الإجتماعية إمكانية معرفية أو إبستيمولوجية مختلفة عن تلك التي عرفتها إلى حد الآن، وهذا يعني أن الإنفصال بين اللغة والعلوم الإجتماعية كان واقعا، وما حصل الآن هو تغير في الشكل، في شكل الإنفصال، وبشكل جديد أيضا أصبحت الألسنية نموذجا للعلوم الإجتماعية.

وهكذا ظهرت إلى الوجود علاقة الألسنية البنيوية بالعلوم الإجتماعية، تلك العلاقة القائمة لا على أساس المعطيات الإمبريقية والذرية مثل (الجذور، الإعراب، الكلمات) و إنما على أساس المنظومة النسقية بين العناصر. وهنا تطرح مسألتين: الأولى متعلقة بحدود العلاقات التي يمكن للألسنية أن تقيمها مع باقي المجالات، والثانية بين هذه العلاقات والعلاقات المنطقية، أي العلاقة بين التحليل الألسني والتحليل المنطقي، وبالتالي يطرح مشكلة العلاقة بين التحليل المنطقي والواقع.

إن هذه المكانة المعرفية الجديدة للألسنية، هي التي جعلت فوكو يرفض مختلف المقاربات من نوع مقاربات "شومسكي" القائمة على التحليل الديكارتي للغة والنحو العام لجماعة "بورروريال" التي ترى في اللغة ترجمة للفكر. هذه المقاربات تتجاهل في نظر فوكو، واقعة أساسية، وهي أن اللغة شكل من أشكال التواصل، ومن هنا أقامت علاقات جديدة من نوع باعث ومستقبل ورسالة، ومجموعة من العلامات والقواعد التي تبنى عليها تلك الرسائل.

إن خصوصية التحليل الألسني في نظر فوكو، ينبع من كونه ينتمي إلى التشكيل الرياضي، وهذا نظرا لعلاقته بنظرية الإعلام والتواصل، التي تحلل مختلف القواعد والرسائل المتبادلة "Messages,Codes" وهكذا تتحدد العلاقة الجديدة بين الألسنية والعلوم الإجتماعية على أساس تحليل مجمل القواعد والرسائل الإجتماعية.

إلا أن هنالك مشكلة عادة ما يطرحها الباحثون الإجتماعيون، وهي مشكلة التاريخ مقارنة بالألسنية التي تعتمد التزامن والوصف، فإذا كان صحيحا أن الألسنية البنيوية تعتمد على التزامن، فإن هذا في نظر فوكو لا يجعلها مناهضة أو مضادة للتاريخ. إن العلاقة بين التاريخ والتزامن في الألسنية، تتحدد فقط بصورة مغايرة، شريطة أن لا نفهم من التاريخ التسلسل فقط بل التسلسل والتزامن في نفس الوقت، كما أن تحليلات الألسنيين ليست تحليلات للثبات، بل هي تحليلات لشروط التحول[55].

إن هذا يعني إن فوكو يرفض ذلك النقد المشهور الذي يعارض التحليل البنيوي بالتحليل التاريخي، وخاصة أنه يرى أن الألسنية لا تحلل اللغة فقط وإنما الخطاب. يقول فوكو(وفي الخلاصة نستطيع القول، أن الألسنية تتمفصل مع العلوم الإنسانية والإجتماعية في بنية إبيستيمولوجية خاصة، تسمح بإظهار العلاقات المنطقية النابعة من الواقع، كما تسمح أيضا بإظهار الطابع الكلي لظواهر الإتصال... وتناقش ما يمكن تسميته بالإنتاجات الخطابية" (Productions Discursives)[56].

وبهذا القول تنتمي الألسنية البنيوية إلى تقنيات التشكيل كما قلنا، وتكون البنيوية صورة من صور التشكيل الرياضي، وتجد مكانتها ضمن هذا التحليل الذي بدأ منذ القرن التاسع عشر، أي منذ انبعاث فقه اللغة والمنطق الرمزي.

وفي سنة 1967، أي سنة بعد نشر كتاب الكلمات والأشياء، ألقى محاضرة بنادي "الطاهر حداد" بتونس تحت عنوان البنيوية والتحليل الأدبي، تعرض فيها إلى مسائل النقد الأدبي الجديد وعلاقته بالبنيوية، وما يهمنا من هذا هو مفهوم فوكو للبنيوية، فما هو هذا المفهوم ؟ وما هي علاقته بموضوعنا؟

يرى فوكو أنه من الصعب إعطاء مفهوم موحد للبنيوية، وذلك لأنها تجمع إتجاهات ومباحث وطرائق مختلفة، إنها(مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة "Document"، بمعنى مجمل العلامات وآثار الإنسان التي تركها خلفه، والتي مازال يتركها إلى يومنا هذا)[57].وما يجب البحث عليه هو النظام أو النسق الذي يحدد هذه الوثائق كوثائق، وهو ما يمكن إيجاده في مبحث يمكن أن نسميه "Deixologie" الذي سيتم تعويضه بالاركيولوجية، وللألسنية المكانة المركزية في هذا التحليل الوثائقي، ذلك أن اللغة هي الصورة الأكثر عمومية، التي تظهر فيه الوثيقة.

ولم تفعل البنيوية، إلا الكشف عن هذا الموضوع. لذا عليها أن تختفي لتترك مكانها للتحليل "الدياكسولوجي" أو "الاركيولوجي" وهو التحليل الذي سنجده في أركيولوجيا المعرفة باسم التحليل الخطابي، القائم على وصف المنطوق ووظيفته. وهكذا وكما يقول فإننا نصل إلى نتيجة مؤداها (إن تحليل الخطاب لا يكون فقط بكلمات لسانية، كما أنه ليس حالة داخل اللغة... الخطاب شيء يتجاوز بالضرورة اللغة)[58].

وهذا يعني أن وصف المنطوقات "Enoncés" تتم بطرائق مختلفة،إلا أن السؤال الواجب طرحه في هذا السياق هو: لماذا يرى فوكو أن وصف الخطاب يتم بأدوات غير لسانية، وخاصة في صيغتها البنيوية؟إن الجواب على هذا السؤال في نظرنا يكمن في موقف فوكو من طبيعة اللغة في الألسنية البنيوية.

يقول(لا يمكن لي أن أكون بنيويا، وذلك لأن البنيوية تضع الشروط الصورية لظهور المعنى، متخذة من أسبقية اللغة نقطة إنطلاق...ومن هنا لا يمكن لي أن أكون بنيويا، وذلك لأني لا أهتم لا بالمعنى ولا بالشروط التي تظهر المعنى، ولكن بشروط تحول أو توقف المعنى، الشروط التي ينتفي فيها المعنى ليظهر شيء جديد)[59].

أي أن ما يهتم به فوكو هو مختلف الكيفيات التي يعمل بها الخطاب، في حقبة تاريخية معينة، أو بتعبير آخر، كيف يشتغل خطاب معين في مرحلة معينة، ولا يهتم بمعنى أو شكل الخطاب، الذي ما تزال البنيوية تطرحه، وعليه فانه يختلف عن الطرح البنيوي للغة، ليؤسس منظورا لغويا خاصا به، يقوم على فهم معين للغة والخطاب، يتجاوز المنعطف اللغوي في صورته البنيوية.

وبذلك يكون ميشيل فوكو ونعوم نشومسكي، قد قاما بنقد النموذج الألسني البنيوي وذلك من خلال تركيز الأول على الوظيفة والدور الذي يقوم به الخطاب في مرحلة تاريخية معينة، وتأكيد الثاني على دور المتكلم وعلى العملية الابداعية وإعادة تقييم جديد لدور النحو والدعوة إلى إقامة لسانيات تحويلية شاملة، ومع اختلافهما في تقدير مساهمة بور رويال ومكانة النحو واللسانيات، الا أنهما قد بينا بطريقة جديدة كيفية الخروج من المنعطف اللغوي كما مثلته البنيوية اللسانية.

الهوامش

1 . Sylvain Auroux ,La philosophie du langage ,Ed, PUF,Paris ,1996 , pp . 287-290.

[2] . زكي مبارك، في فقه اللغة، الدار العربية للكتاب، (د.ت)، ص 37 .

[3] . جورج زيناتي ، الموسوعة الفلسفية العربية، مركز الانماء العربي،بيروت، 1986، ص،708 .

[4] . المرجع نفسه، ص. 708 .

[5] . فردينا ند دي سويسر، دروس في الألسنية العامة، ترجمة محمد القرماوي، محمد الشاوش، محمد عجين، الدار العربية للكتاب، تونس 1982، ص.8.

6 . المرجع نفسه، ص،23. وكذلك يمكن العودة الى :

-Noël Mouloud, Langage et structure, essai de logique et de sémiotique, Ed. Payot – Paris, 1969. P.230.

[7] . مشال زكريا، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط 2 ، 1985 ، ص.143 .

[8] . المرجع نفسه، ص.9 .

[9] . جان كويزيني، البنيوية ،في مجلة، الفكر العربي المعاصر، تصدر عن مركز الإنماء القومي، بيروت،1980، العدد 7–6 ، ص.50.

[10] . دي سو سير، دروس في الألسنية العامة ، مرجع سبق ذكره، ص.43.

[11] . صلاح فضل،النظرية البنائية في النقد الأدبي،مكتبة الانجلو المصرية،ط 2 ، 1980، ص.29.

[12] . المرجع نفسه، ص.43.

[13] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، (د.ت)، ص.48.

[14] . مشال زكريا، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ والإعلام، مرجع سبق ذكره،ص.43 .

[15] . محمود فهمي حجازي، أصوله البنيوية في علم اللغة والدراسات الأتنولوجية، في مجلة، عالم الفكر، وزارة الإعلام في الكويت، المجلد 3 ، العدد1 ،1976 .

[16] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مرجع سبق ذكره، مصر، ص.49.

[17] . المرجع نفسه، ص،31.

[18] . روجيه غارودي، البنيوية، فلسفة موت الانسان، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، 1979.

[19] . مشال زكريا، الألسنية، علم اللغة الحديث، مرجع سبق ذكره ، ص.227 .

[20] . مشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، مرجع سبق ذكره، ص،209.

[21] . المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22] . فهمي حجازي، أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الانتربولوجية، مرجع سبق ذكره، ص.164.

[23] . المرجع نفسه، ص.237.

[24] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مرجع سبق ذكره، ص.10.

[25] . أنطوان الصباح، تطور مفهوم البنيان في اللسانيات الحديثة، في مجلة، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد 25 ، السنة 1983 ، ص.25.

[26] . محمود فهمي حجازي، أصول البنيوية في علم اللغة والانتربولوجية ، مرجع سبق ذكره، ص.138 .

[27] . بول ريكور، فلسفة اللغة، في، العرب والفكر العالمي، العدد الثامن، خريف 1989، ص. 16.

28 . جاكبسون، رومان: العلاقة بين علم اللغة والعلوم الأخرى، ترجمة : انطوان المقدسي، في: الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية،ترجمة، جماعة من الأساتذة، اليونسكو، مجلد2 ، مطبعة جامعة دمشق، 1976.

[29] . Ernst Cassirer, la philosophie des formes symbolique, 1.le langage, trad, Ole Hansen – Love et Jean Lacoste, Ed, Minuit, 1972,p.73.

[30] . J.P , Bronckart , Théories du Langage , Ed, Pierre Mardrga, 1986, p.126.

[31] . بسام بركة، اللغة والبنية الاجتماعية، في مجلة، الفكر العربي المعاصر، يصدر عن مركز الانماء القومي، بيروت، العدد 40 ، السنة 1986 ، ص.70.

[32] . المرجع نفسه، ص، 72.

[33] - Oswald Ducrot & Tzveten Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du Langage, Ed, Le seuil, Paris, 1972 , p.49.

[34]- Ibid., p,.50.

[35] . هنالك حوار مشهور بين شومسكي وبياجي حول تعلم اللغة ، انظر :

- Jean Francois Dortieu, Langage et apprentissage, le deabat Piaget/Chomesky, Auscerre, 1999.

[36] . صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي ، مرجع سبق ذكره ، ص.155.

[37] . مشال زكريا، الألسنية، علم اللغة الحديث، المبادئ والإعلام، مرجع سبق ذكره ، ص.262.

[38] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية ، مرجع سبق ذكره ، ص.79.

[39] . جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية ، ترجمة د.حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، 1985 ، ص ،236.

[40] . المرجع نفسه، ص 239 .

[41] . N . Chomsky,Reflexion sur le langage , Ed, Maspero , 1977, pp. 40-41.

[42] . مشال زكريا، الألسنية ـ علم اللغة الحديث ـ المبادئ والإعلام، مرجع سبق ذكره، ص، 269-268.

[43] . جورج دورليان، بحثا عن وجهي دي سويسر، في مجلة، دراسات عربية، مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية، تصدر شهريا عن دار الطليعة ، بيروت ، العدد4 ، السنة1983 ، ص،85.

[44]. Michel Foucault, Les mots et les choses, Ed, Gallimard, Paris,1966,p.257.

[45]. Ibid., p.310.

[46] . Richard Rorty, the linguistic turn, Chicago, the university of Chicago Press,1967.

- يتضمن هذا الكتاب أهم نصوص فلاسفة اللغة في أوربا وامريكا ومنهم: مورتس شليك، كارناب، ويزدم، كواين، ستراوسن،و بالطبع رورتي، الذي ميز بين الطرح المنطقي والمعرفي للغة.

[47] . Michel Foucault , La Grammaire générale de port-royale, In,Langage, N°7, Sept.1967,p , 15 .

[48] . Michel Foucault, Grammaire Génerale et Linguistique, In , Arnauld & LAncelot, Grammaire Générale et Raisonnée, ed. Republication Paulet, 1969, p.4.

[49] . نعوم تشومسكي، اللغة والعقل، ترجمة، إبراهيم مشروح ومصطفى خلال، مطبعة دار توبقال للطباعة والنشر. مراكش، 1993، ص،14 .

[50] . المرجع نفسه، ص، 24 .

[51] . المرجع نفسه، ص،30.

[52] . المرجع نفسه، ص،ص.34-35 .

[53] . Michel Foucault, Les mots et les choses, p.310.

[54] . Michel Foucault , Linguistique Et Sciences Sociales , In , Revue Tunisienne des Sciences Sociales , N°19, Dec.1969, p, 249.

[55] . Ibid., p.253 .

[56] . Ibid ,p,253.

[57] . Michel Foucault, Structuralisme et Analyse Litteraire,In,Les Cahiers de Tunisie, N° 149-150,1989,p. 24.

[58] . Ibid.,p .28 .

[59] . Michel Foucault , Entretien Avec Paolo Caruso, In , Conversazion , Con, Levi-Strauss , Foucault , Lacane, Traduit par ,Christian Azzerinilan , Mursia, 1969, p.03.

اللغة العربية بين خصوصيات الهوية وعالمية الفكر

مقاربة لسانية اجتماعية

د.نعمان بوقرة

مُقـَـدّمة

تعاني العربية اليوم من غربة حضارية وثقافية و اجتماعية بين الناطقين بها عن قصد وغير قصد ،وكان من نتاج هذه الغربة الاجتماعية ظهور غربة ثقافية للذات العربية نفسها ،وأزمة في تفكير الإنسان العربي وقدرته على العطاء الحضاري بشكل عام ،وطريقة رؤيته للآخر في عالم متداخل من اللغات والإيديولوجيات والقيم ،وبات من القدر المحتوم أن يعاني الناطقون بهذه اللغة من ويلات التهميش في ركب التقدم العلمي الزاحف ،ومن هنا يظهر أنه ليس من السهل الدفع بالعربية إلى ساحة مواجهة غير متكافئة مع لغات أخرى تسيطر على حلبة الصراع الثقافي والمعرفي والتكنولوجي مما يتحتم على الذات العربية أن تعيد بناء قدرتها الذاتية لمواجهة الآخر بمنافسته على كافة الأصعدة ، وبكل الأدوات علها تحقق استقلالها المفقود ،وخصوصيتها الحضارية، ومن هنا يمكن أن نشرع لسؤال مهّم هو: كيف السبيل إلى إحداث قفزة نوعية لترقية اللغة العربية وجعلها لغة عالميةفي ظل التحديات العولمية الكبرى ؟في ضوء هذا الإطار المفهومي تتنزل رؤيتنا المحاورة للواقع اللغوي العربي، وتجلياته المشهدية

في الراهن الثقافي المنجز ، على أن نتوقف عند أهم الآليات المتصلة بتفعيل الدور التداولي للغة العربية في المستوى التعليمي بشكل خاص من خلال التوقف عند النقاط التالية:

1-ضرورة تيسير منظومة القواعد العربية في العملية التعليمية بالتركيز على مبدإ الوظيفة والتحديد الكمي، والغرض التداولي مع الاستفادة من النظرية اللسانية الحديثة التي مازالت موضع رهان واختلاف عند الكثيرين .

2-الفصل بين تعليم مسائل اللغة وكيفية استخدام اللغة في التواصل ،وهذا من صميم التوظيف البراغماتي للغة في الحياة العامة للمتكلمين(اللغة والهوية)

3-إعادة النظر في نوعية النص التعليمي الذي يعكس بنية اللغة العربية وخلفياتها الثقافية الراهنة بشكل خاص،فقد آن الأوان لكي يعاد الاعتبار النوعي والكمي **للنصوص الأصيلة** في العملية التعليمية في جميع المستويات مثلما هو معمول به في البيداغوجيا الغربية .

لقد شهد العالم اليوم تحولات جذرية في مناهج التفكير والبحث العلمي في جميع نواحي الحياة البشرية والكونية تتجه به نحو فلسفة وجودية وحيدة المسلك والغاية، محاولة صياغته وقولبته بطريقة واحدة[1]،سعيا إلى خرق فكري منظم لبنية الهُويه[2]وأنساقها الثقافية والأخلاقية واللغوية والنفسية والاجتماعية[3]، وثمة مسألة جد مهمة تتعلق بخطورة عدم التمييز بين المنظور اللغوي للهوية والمنظور الثقافي لها ،فقد كرس الخلط بينهما مشكلات اجتماعية وإيديولوجية لا يمكن تجاهلها في كثير من البلاد العربية، مما يجب أن نعيد النظر فيه، ذلك أن المعادلة الكلاسيكية التي تحدد تشكل الدولة بالشعب واللسان لا تلقي بالا لتلك المتغيرات الثقافية الداخلية في الجسم الواحد، وربما نزعم أن فشل

بعض البلدان في تعميم التعريب يعزى إلى هذا العامل بالذات فتحولت العملية من مسارها العلمي (ترجمة وتأليفا و إبداعا) إلى مشكلة إثنية مستعصية الحل.

1- اللغة ووحدة الرؤية (رؤية العالم) في المنظومة اللسانية الحديثة

من الواضح أن أفراد المجتمع الذي يتكلمون لغة واحدة يشتركون في النظرة الكونية ، فلكل لغة طريقتها في تقطيع العالم الخارجي كما يشير إلى ذلك اللساني الدانماركي **لويس هيلمسليف** في استشهاده بألوان قوس قزح من حيث اختلاف اللغات في تحديد عددها ومن ثم التعبير عنها بوسائط علامية مختلفة([4])، غير أنه من الممكن أن تشترك جماعات مختلفة ثقافيا في لغة واحدة، كما يمكن أن توجد لغات مختلفة نمطا ثقافيا مهيمنا في جماعات مختلفة ، لقد ذكر **سابير** في أوائل القرن العشرين ، أن اللغة والجنس والثقافة[5] ليست بالضرورة متلازمة ، إلاّ أن هذا لا يعنى أن لا تتلازم أبدا[6]،وكتب **سومارفليت** في هذا فقال:إن اللغة ظاهرة اجتماعية ، والتغيرات التي تعرفها هي أيضا ذات طابع اجتماعي لكن هذا لا يعني أن هناك تقابلا بين البنية اللغوية والمجتمع الذي يستخدم هذه البنيات كوسيلة للتواصل ،إن البنية اللغوية يمكن أن تبقى على حالها من غير تغيير بالرغم من التغيرات الثورية التي يمكن أن تحدث في الأنماط الثقافية والاجتماعية[7]، كما يقرر **سابير** في سياق آخر أن العالم الحقيقي للفرد يتحدد بتلك العادات اللغوية المختلفة بالضرورة عن أخرى في أنظمة اجتماعية مختلفة لغويا عن نظامه الخاص ،وفي هذا السياق يستوقفنا رأي **وورف** الأمريكي الذي يقرر أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل هي نفسها التي تشكل تلك الأفكار[8]، ولعل هذه الفكرة هي نفسها التي عبر عنها **جوزيف فندريس** بقوله : إن الكلام يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية ، ويسمح لنا

بالخروج عنه؛إنه مبدع وصانع الحياة الاجتماعية[9]، واللغة نفسها هي المرشد إلى الواقع الاجتماعي، إنها تؤطر بالقوة تفكيرنا جميعا[10]، كما تشير مجموعة الآراء اللسانية المنسوبة للتيار الوظيفي في اللسانيات الحديثة إلى عمق الصلة بين اللغة والسياق الثقافي والاجتماعي إذ لا يمكن أن تحلل الظواهر اللغوية نفسها بمعزل عن العامل الاجتماعي ، كما لا يمكن التكهن بالأدوار اللغوية للعبارات والملفوظات في التخاطب اليومي بالاكتفاء بالوصف البنيوي الشكلي أو التوزيعي ، لقد ذهب **ماثسيوس** رائد حلقة **براغ** اللسانية إلى أن جذور اللغة تمتد إلى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها من ذلك مثلا أساليب الحديث المختلفة والتي تشي في اختلافها بتنوع المستوى الاجتماعي والثقافي والفكري والأيديولوجي للمتحدثين ، كما أن اللغة تهدف بالأساس إلى نقل المشاعر والرغبات الخاصة التي تغلف العبارات المنطوقة بحكم الانتماء إلى البيئة المائجة بشتى المعطيات الثقافية والدينية والفلسفية[11]، فمن إفرازات البيئة الاجتماعية العربية-مثلا-قول العربي واصفا حالة الانبساط النفسي الناتجة عن الطمأنينة : هذا حدث أثلج الصدور ، بينما يواجه الفرنسي الحالة النفسية نفسها بتعبير مغاير تماما يقول فيه cette chose sa me chofe le Coeur والبون شاسع بين التعبيرين هنا .وعلى صعيد البحث الأنثروبولوجي يشير **مالينوفسكي** العالم البولندي الذي كان له التأثير الكبير في نظرية **فيرث** السياقية في كتابه الشهير الحدائق الساحلية وسحرها (Coral gardens and their magic) أنه من الصعوبة بمكان ترجمة ما يتعلق بالعادات والتقاليد من مفاهيم وتصورات خاصة إلى لغة أخرى، فهي أنساق تند عن التعبير اللغوي لخصوصيتها المطلقة[12]،كما نجد تأكيدا على تمازج البنية اللغوية والمكون الثقافي عند مؤسس النحو النظامي(systemic grammar) **مايكل هاليدي** وخلاصة رأيه : **أن الاختيارات**

اللسانية المتاحة في نظام لغوي ما هي التي يعول عليها المتكلمون للتعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم المرتهنة بالثقافة الاجتماعية السائدة[13]، كما يؤطر الحدث اللغوي بالعادات والأعراف الاجتماعية والموروث الشعبي بحسب وجهة نظر **ديل هايمز**.

2-**اللغة والهوية**

أحاول الابتداء في هذا السياق بطرح سؤال مهم كان قد طرحه أحد الغربيين في كتاب عنوانه ***هستريا الهوية*** ،وهو : من أنا ؟ومن الطريف أن يسعى في الإجابة على سؤاله إلى تأكيد المفارقة بين المساواة والتميز ،مشير إلى أن الفكر الأوربي قد غيّر موضوعه بفعل مد العولمة من المساواة والعدالة التي طالما بحث عنها خلال عصر النهضة إلى الرغبة في أن يستقل الفرد عن غيره بعدما كان همه السعي إلى أن يكون مثل غيره ، وهذا تماما جوهر الهوية ، والتي تبدو بنية موروثة في الضمير الجمعي ، متجذرة في الذات بعمق على حد تعبير **ديول ريكور** إلا أن هذا البعد الوراثي للهوية في علاقتها مع الذات لا يجب على الإطلاق أن يحجبها عن الواقع ثم يأسرها بقيود الماضي فتنغمس فيه بعيدا عن اللحظة الراهنة ذلك ،أن استنادا إلى المقوم التراثي بأبعاده الثقافية واللغوية يجب أن يكون دافعا إلى العمل المستقبلي والمشاركة الفاعلة في صناعة الحضارة العالمية[14]، وبالتالي سيكون المثقف العربي مطالبا بالتمييز بين موقفين متناظرين أحدهما يشي بالاتكاء على الحمولة الثقافية الماضوية ، اتكاء سلبيا ،وثانيهما مستند إليها استنادا إيجابيا ليصوغ منها حاضره وغده بوعي أصيل،لقد وقعت الأجيال في مأزق صعب لم تسطع الفكاك منه ، لا أجد له صياغة لغوية تعبر عنه غير استحضار النص التراثي نفسه ، فقد عبر **التوحيدي** عن مأزق الاستلاب

والتبعية للآخر: لقد أشكل على الإنسان الإنسان، فما كان منا إلا أن جردنا سلاحنا الأخير ،متّخذينه متراسا في الآن نفسه، وقلعة نحتمي بها ذلكم هو التراث الذي احتمينا به منذ سقوط الأندلس وسقوط بغداد وسقوط الخلافة!!، فما كان من هذا الاحتماء القصبي إلا أن جعل الذات العربية تخسر حاضرها ومستقبلها وماضيها في الآن نفسه، غير أن هذا لا يعني إحداث انقلاب على الذات بمهاجمة هذه القلعة التعيسة التي احتمى بها كل نادب ومندوب، ومحاولة هدمه من الداخل ،أو نقبها سرا كما فعلت **يأجوج ومأجوج** نتيجة شعور مستلب بالذنب، كما فعلت نخب التجديد الحديث في وطننا بحجة الاندماج في الحداثة ثم أخيرا العولمة، مزينة لها الهلاك في صورة تضحية أو فناء في الذات الغربية.

3-اللغة العربية ولغة الآخر

إن الحديث عن اللغة العربية العالمية يتنزل في سياق معايشتها للغات أجنبية تنافسها في العطاء الحضاري بوجهيه الثقافي والتكنولوجي ، وهذا يتطلب منها احتواء لكثير من الأنساق الصوتية والتركيبية ضمانا لتحقق التكيّف البنوي والمعرفي في وسط راهن متعدد الثقافات تؤطره فلسفة العولمة[15]التي تقضي في مسارها الحتمي باستيعاب كل الأنساق غير القادرة على الإسهام في الحراك الحضاري العالمي ،ولما كان القرن الحالي تراكما لمنجزات معلوماتية رهيبة تعاين اللغة العربية تحديات جد معقدة لا ينفع معها إعداد متكلم عربي أحادي اللغة ، بل لابد أن تنصرف جهود المؤسسات العلمية والتعليمية إلى نشر معرفة لسانية متعددة تعبر عن الاختلاف اللساني المعيش بانتهاج طرائق تعليمية جديدة تدخل في حسابها الاختلاف البنوي للأنظمة اللسانية ،والخصوصية الثقافية ،

وحاجات المتعلمين ورغباتهم وأهدافهم ،والربط بين الغرض التبليغي للغات والبعد التداولي لها فتتحول اللغة العربية بجهود العاملين إلى وسيلة نقل معرفي في إطار حركة الترجمة الآلية العالمية ،وترقية الكفاية اللسانية بالقدر الذي يؤهلها إلى أن تكون قادرة على الإنتاج والإبداع(16)، وسيكون هذا الضمان الوحيد لاستمراريتها في العالم الحديث كلغة حية تجمع بين الوظيفتين التواصلية -وهذا أمر تشاركه فيها جميع اللغات -والوظيفة الحضارية كوعاء لإنتاج الثقافة والمعرفة واستقبالهما في إطار حوار الأنا مع الآخر ،ذلك أن العولمة في رأي بعض المفكرين ليست قسرا على الأمريكان واللغة الإنجليزية فقط ،فإذا كان للغات الأخرى حضور فعلي فالعولمة وقائع وانجازات و إمكانات موضوعة برسم البشر أجمعين(17)،وأهم ما يميّزها كونها عملية مستمرة من التغيير الحيوي في مجالات عديدة (18)،وهذا التصور يقود إلى إمكان الحديث عن شراكة لسانية بعيدا عن روح الهيمنة و الاحتواء التي تمارسها العولمة الجديدة المكرسة لسياسة التحويل القسري للألسن نحو لسان واحد ورفضا لمبدأ التنوع اللساني في العالم ، وسعيا حثيثا نحو تنميط الفكر الإنساني ليقبع خالدا في سجن العبودية الأمريكية والمركزية الغربية،وربما هذا ما قصده رئيس جمهورية **فرنسا** في خطاب ألقاه يوم 14 يوليو 1998 دعا فيه إلى ضرورة انفتاح المؤسسات التعليمية على التعدد اللغوي بما يضمنه من تنوع ثقافي يمكن أن يكون ضمانا مهما للتصدي لمخاطر العولمة الثقافية،وفي هذا الإطار سخرت الحكومة الفرنسية إمكانيات هائلة لتقيق نجاعة تعليم ونشر الفرنسية برعاية الأكاديمية الفرنسية **واللجنة العليا لحماية الفرنسية**(19)، كما دعا الاتحاد الأوربي إلى العناية بتعليم اللغات بشكل جدي ،متخذا سنة 2001 سنة للّغات في كامل أوربا تكريسا للغاية نفسها(20)، بل ضمنت السياسة الإمريكية العناية بالتعليم متعدد اللغات في قانون 1968 على

الرغم من التكلفة الباهظة له ،[21]وفي ظل مد العولمة أضحت العربية المستهدف الأول في هذه الهجمة بخاصة وأنّ دعاة العولمة الأمريكية لاينفكون يقرنون الإرهاب بالثقافة الإسلامية التي تمثل العربية وعاءها ، والتعريب وسيلتها الأساسي[22].

إن مواجهة هذا التحدي يكون بالتّفعيل داخل منظومة العولمة ذاتها دون التخلي عن الخصوصية الحضارية[23]بدءً بإصلاح منظومة التعليم العربي وتعليم اللغات وفي مقدمتها العربية للناطقين بها وكذا للأجانب وفق منطلقين أساسين أولهما :

- التخلص تدريجيا من حمولة الماضي في الطريقة والهدف وبعض الممارسات التنظيرية ،ولعل أسلم طريق أن يندمج التفكير النحوي التراثي في النظرية اللسانية الحديثة فيكون جزءًا أساسيا منها ورافدا لا ينضب لمجراها السريع.

- أما ثانيهما فضرورة الدخول بقوة في الإبداع اللغوي باستحداث وسائل نوعية في تعليم اللغة العربية وتعلمها ونشر ثقافتها ،والترويج لها بوصفها لغة مهمة في التواصل المعلوماتي الحديث لا تقلّ كفاءة عن غيرها من اللغات ،وهذا ما يمكن عدّه عن طريق القياس اللغوي **عوربة** ،وفي سبيل ذلك يجب أن تبذل أموال طائلة وبسخاء لإنجاز المشاريع اللسانية التي تجمع الذخيرة اللسانية([24]) العربية وتطورها وتهذيبها بما يساير التدفق الهائل للمعرفة الإنسانية ،بعيدا عن ثقافة إنشاء المؤسسات في مناسبات بعينها لا تختلف كثيرا عن مقامات التأبين والتّشييع الجنائزي.

إن البعد التطبيقي في الممارسة التعليمية للغة العربية في شراكتها اللّسانية للغات عالمية أخرى كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية واليابانية

والإيطالية يجب أن يكون مدعما برؤية مستقبلية متجددة ومطلعة على عدد من التجارب التعليمية الرائدة في العالم بعيدا عن الدوافع الأديولوجية يكون همها الأساس التركيز على ربط الوجود اللساني العربي بالوجود الحضاري للأمة سعيا لتحقيق الوعي بالذات ومعرفة الآخر و إمكانات التعايش معه ،وتحقيقا لهذا التصور لابدّ من ضرورة الاستفادة من الوسائل السمعية البصرية والتنسيق مع الجامعات والمراكز الثقافية داخل الوطن العربي وخارجه بدرجة أكثر تأكيدا على تيسير وتعميم وترقية استعمال هذه اللغة على أن تكون هناك إرادة جادة من لدن الجميع ليتحول هذا المطمح الوجودي والمصيري بكثير من التضحيات إلى حقيقة معيشة.

4- المسألة اللغوية العربية والمتغير الحضاري

إن الوقوف على أزمة اللغة العربية في علاقتها بالثقافة والتراث والواقع ينطلق من محاولة الإجابة على تساؤلين مهمين هما:

أ- ما هو مصير اللغة العربية في ظل عولمة الثقافة وثقافة العولمة ؟

ب- كيف السبيل إلى إحداث قفزة نوعية لترقية اللغة العربية وجعلها لغة عالمية في ظل هذه التحديات الكبرى ؟ وينطوي تحت هذا السؤال الأصولي سؤال ثانوي هو :هل يمكن أن نعد العربية اليوم لغة عالمية حقا؟

وقبل الإجابة على هذين السؤالين لابد من الإقرار بأنّ اللغة العربية اليوم تعاني غربة اجتماعية بين الناطقين بها عن قصد وغير قصد ،وكان من نتاج هذه الغربة الاجتماعية ظهور غربة ثقافية للذات العربية وأزمة في تفكير الإنسان العربي، وطريقة رؤيته للآخر[25]في عالم متداخل من اللغات والإديولوجيات

والقيم ،وبات من القدر المحتوم أن يعاني الناطقون بهذه اللغة من ويلات التهميش في ركب التقدم العلمي الزاحف[26]، ومن هنا يظهر أنه ليس من السهل الدفع بالعربية إلى ساحة مواجهة غير متكافئة مع لغات أخرى تسيطر على حلبة الصراع الثقافي والمعرفي والتكنولوجي لذلك يتحتم على النخب أن تعمل على إيجاد حلول جريئة لبعض المشكلات المبدئية تتعلق ب:

1- ضرورة تيسير منظومة القواعد العربية في العملية التعليمية بالتركيز على مبدإ الوظيفة والتحديد الكمي ،والغرض التداولي للاستعمال اللغوي .

2- الفصل بين تعليم مسائل اللغة وكيفية استخدام اللغة في التواصل .

3- إعادة النظر في نوعية النص التعليمي الذي يعكس بنية اللغة العربية ، وقد آن الأوان لكي يعاد الاعتبار النوعي والكمي للنصوص الأصيلة في العملية التعليمية والمحادثة في جميع المستويات كما هو معمول به في البيداغوجيا الغربية .

4- كذا الإسراع في ضبط خطة تنموية صارمة مهمتها تنقيح المجموع من ألفاظ الحضارة والمصطلحات المختلفة وإيجاد آلية إجرائية تعمل على تعميم استعمال هذه الثروة في التعليم والتكوين.

5- إنّ بقاء وعطاء العربية في ظل ما تواجهه من تحديات يفرض علينا التخلص من مومياء النحو بفروعياته وتمحلاته في مرحلة تملك الملكة ،وحصر ذلك على المتخصصين فقط ،ولا أكون مبالغا إذا قلت بإزاء ما أراه من تدن في المستوى اللغوي لطلابنا في شتى البلاد العربية بأنني أشايع من دعا إلى تشييع جثمان النحو في صورته التي وصلنا بها، وكذا القول نفسه بالنسبة إلى البلاغة

المعيارية التي تفسد الذوق ولا تحسّنه أبدا ، فلِمَ لا نصطنع لعصرنا بلاغته ونحوه بعيدا عن الماضي والآخر؟ .

6- بالنسبة إلى مناهج التعليم يجب التركيز على أسلوب التعليم المستمر ، والتعليم الداخلي الذي تضمنه المؤسسات لموظفيها كما هو الشأن في دول العالم المتقدم .

7- إن الحالة اللغوية للجالية العربية في البلاد الغربية وجنوب شرق آسيا موضوع جدير بالدراسة قصد التعرف على الاحتياجات اللسانية لمتكلم العربية في محيط خليط من اللغات المتباينة(27)، والثقافات الخاصة ،والظاهر أن حاجات هذه الفئة محكومة بضرورتين أولاهما دينية وثانيهما حضارية ،وربما تمكنا بروح متفائلة من تحويل المحيط العربي والإسلامي إلى نموذج ناجح **لعوربة اللغات** بأن يعمل الناطقون بالعربية في تلك البلاد على تثبيت العربية ونشرها .

إن جملة من العقبات غير اللسانية تندّ عن الحلّ مرجعها الأساس حالة الضياع التي تعيشها الأمة في جميع المستويات، لعل أهمها المشكلة الاقتصادية ، وما ترتب عنها من تبعية للآخر الذي استغل الوضع الراهن إلى أبعد حد فراح يملي شروطه بلا هوادة إمعانا منه في الهيمنة وبسط النفوذ، والحقيقة أن سلفنا تنبه إلى ماغفلنا عنه زمنا إلى ارتباط اللغة بالعمران والغلبة فهذا **ابن حزم** الأندلسي **(ت 654 هـ)** يربط الوجود الإنساني بالوجود اللغوي ،مقررا أن اللّغة يَسقط أكثرها ويَبْطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم (...) فإنما يقيّد لغة الأمة وعلومَها وأخبارَها قوةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوّهم (...) فمضمونٌ منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك

سببا لذهاب لغتهم (...) ،وهذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة [28]. وفي السياق نفسه يتنزل موقف **ابن خلدون** (ت 808 هـ) الذي صاغه قانونا كونيا ثابتا إلى حد بعيد من خلال ربطه بين اللغة والعمران البشري ؛فغلبة اللغة بغلبة أهلها، وأن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم.ومن هذا المنطلق التراثي ندلف إلى الحقيقة الحاضرة.

أما مسألة **الهوية** فهي الأكثر تعقيدا فبعضهم لم يفصل فيها إلى الآن ، بل الغريب أننا أصبحنا نشاهد صراعا طائفيا حلّ محل الهوية الوطنية تغذيه بعض الآراء المتطرفة الداعية إلى اتهام التاريخ ، والتشكيك في الكفاءة اللغوية للعربية لصالح اللهجات المحلية والدعوة إلى الارتماء بين أحضان الآخر دون قيد أو شرط ،فاتسع الشرخ بين الذات وهويتها اللغوية. ،وهنا لابد من التذكير بنقطة مهمة أفادنا بها د.**عبد السلام المسدي** ملخصها رفض عد العاميات وسيطا ثقافيا موازيا للغة العربية بالرغم من كونها شقيقا طبيعيا مايلبث أن يتحول إلى عدو إيديولوجي بكل قيمه السلبية الناسفة[29]وكذا اللغات العالمية المستعملة في نفس النطاق الجغرافي ،وجعل المتكلمين يركزون على اللغة العربية الحية ممثلة في العاميات المنتشرة هنا وهناك إلى درجة توظيف هذه الأنظمة في الممارسة الرسمية في الصحافة والكتابة والتدريس بمختلف مستوياته من الإعدادي إلى الجامعي،بالإضافة إلى انتشار الأمية بخاصة بين البالغين[30]لذا لايتوقع أن يتعلم الآخر العربية والذات العربية عاجزة عن تحقيق ذلك لنفسها ،ناهيك عن حالة الاستلاب الحضاري والشعور بالهزيمة أمام الآخر ومحاولة اتخاذ ذلك مبررا للتبعية الثقافية واللسانية والإدعاء الواهم بالسقوط القسري في هوة العولمة وشراكها المتين ،وكفى أن نلقي بأبصارنا من بعيد على لغة **الخطاب الإشهاري** !

إنّ الإشكالية اللغوية في الوطن العربي ملخصة في تحييد العربية عن أداء دورها التواصلي في التنمية ومعادلات الأرقام في عالم المال والأعمال وهذا ظاهر من واقع التعريب في الاقتصاديات العربية جملة ،وهذا ما أسس لذهنية سلبية ترى في العربية مجرد واقع اجتماعي قائم لامناص منه،بل نذهب بعيدا إلى حد عدّها ميراثا تركه الآباء والأجداد لا يمكن أن يمثل عالم اليوم بإنجازاته وابتكاراته وتجاوزا لكثير من التناقضات في إطار ترقية التعليم اللغوي لابد من استثمار مناهج وطرائق التدريس الحديثة في اللسانيات التطبيقية في تعليم العربية لأنّ هذه الطرائق تأخذ بعين العناية الاختلافات الجوهرية بين المتعلمين ورغباتهم وميولهم وكفاءاتهم ومهاراتهم وثقافاتهم ،ولأنها تركز عما يسمى بالمتكلم المفترض ، كما أن هذه الطرائق الحديثة تسعى إلى بناء أشكال اتصالية بين المتعلم للغة والمعلم لها من خلال التركيز على كفايات ومهارات المتعلم نفسه[31]، بالإضافة إلى ضرورة الإفادة من اللسانيات للإجابة عن كثير من الأسئلة المتعلقة بخصائص النظام اللغوي وإمكان تداخله مع آخر[32]وكيفية الاستفادة من هذا التداخل وتوجيهه وجهة الشراكة لا التناقض في عملية تعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية في الآن نفسه[33]،وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى أنه ومن بداية القرن العشرين الى نهايته كانت المسألة اللّغوية في الفكر العربي الرّمزَ الأبلغ في معضلة اللقاء بين الأنا والآخر ،وثمرة ذلك أن انبرى بعض اللغويين يصاهرون بين التراث والعلم الجديد المعروف في الغرب باللسانيات، وبرزت جهود أعلام روّاد بدأها **علي عبد الواحد وافي** ،وشاركه الجهدَ التأسيسي **إبراهيم أنيس وحسن ظاظا وأحمد مختار عمر ومحمّد كمال بشر وتمام حسان ومحمود فهمي حجازي**، و**رمضان عبد التواب** وهم أعمدة هذا العلم في مصر، وقد سموه

علمَ اللّغة وسايرهم في هذا علماء العراق وفي مقدمتهم **إبراهيم السامرائي**، ووازى جهدَهم جهدُ رواد من المدرسة اللبنانية سمّوه الألسنية ،وكان من بينهم **أنيس فريحة وريمون طحان** ثمّ **ميشال زكريا** ،وفي سوريا **مازن الوعر** في كتابه قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ،وفي السعودية **حمزة بن قبلان المزيني** من خلال أعماله القيمة في ترجمة الخطاب اللساني عند رائد التوليدية وأشهر أعلامها، وفي الجناح الآخر من العالم العربي تبوأ ريادة العلم في الجزائر **عبد الرحمان الحاج صالح** من خلال مدرسته الخليلية الأصيلة وأبحاثه في الصوتيات المختبرية، وفي تونس **صالح القرمادي**،و**محمد رشاد الحمزاوي**، وفي المغرب **أحمد الأخضرغزال** و**أحمد المتوكل** و **الفاسي الفهري** ، واستقر على هذا العلم في المؤسسات العلمية الجامعية بوصفه أهم ميدان لدراسة اللغة العربية دراسة علمية نظرية وتطبيقية ، وكانت الأزمة في كيفية التوفيق بين التراث وما جاءت به اللّسانيات المعاصرة ،وهذا مظهر آخر من مظاهر انشطار الذات على نفسها في ضوء موقفها من الآخر وعلاقة ذلك بالهوية التي تلبست بالتراث فأصبح هو هي عند السواد الأعظم من الناس(34)وفي هذا السياق أرى أنه من الضرورة الملحة أن تخلص الرؤية العربية والإسلامية من وهم الصفاء الذي عكر صفو العلاقة مع اللغات الأخرى على الرغم من أن القرآن نموذج العربية الراقي يستوعب التعدد اللغوي والخصوصيات الثقافية في ضوء مبدإ العالمية(35)، كما أن القدماء أنفسهم رفضوا هذا الوهم وقد نص **ابن حزم الأندلسي** على هذا بقوله : ...وقد توهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن جوه الفضل معروفة،و إنما هي بعمل أو اختصاص(36) ... ، وهذا التصور هوالذي ضمن بقاءها متعايشة مع لغات أخرى(37).

5-البحث اللغوي العربي الحديث ومسألة الهوية اللغوية

إن التراجع عن دراسة التراث في الفترة الأخيرة-في نظري- لحساب النظريات الغربية الحديثة في ميادين اللغة والأدب والثقافة بوجه عام لهو دليل هزيمة وقبول بمنطق الآخر الداعي إلى تغييب الذات بدعوى الإصلاح،علما أنه -أي الآخر- كان قد امتلك ناصية تراثه فحاوره ونقد أنساقه الداخلية تحليلا وتركيبا ، ثم صاغ وجوده الحديث معرفيا ومنهجيا اعتمادا عليه في علاقة حميمية مع متطلبات اللحظة الراهنة ،وربما لا أكون مغاليا إذا قلت بأن اللحظة الغربية الراهنة بما تحيل عليه من منجزات في جميع الأصعدة وفي مقدمتها الأنظار اللسانية المختلفة لهي وليدة عملية تفريعية واشتقاقية من اللحظة التراثية ممثلة في الفكر الأرسطي والأفلاطوني والتيار العقلاني في القرون الوسطى(38)،إلا أن أصنافا من الباحثين في الضفة الشرقية لأوربا رأوا أن النجاة كلها في اقتفاء أثر هذه الإيديولوجيا الجديدة وما تطرحه من أفكار ومناهج ونظريات،دون رعاية للاختلافات المتكررة والتي تصل إلى حد التناقض بين مكونات هذه الإيديولوجيا، ومما أسفر عنه في درسنا اللغوي المعاصر -مثلا- الاقتلاع الخاطئ للنظريات اللسانية الغربية وأفكارها النظرية ومناهجها التحليلية ، ومحاولة زرعها في تربة غير مخصبة ، ليست تربتها الأصلية بدعوى أن المناهج لا تعرف الحدود الجغرافية وأنها عالمية كعالمية الفكر البشري هكذا تتراءى لي دعوات بعض اللغويين العرب في المشرق والمغرب العربيين في هذا السياق .

6-مستقبل اللغة العربية بين التعليم والتعميم

إنّ النظر إلى اللغة العربية في زحام العولمة بالقدر الذي يأسف فيه على تراجعها الحضاري ،ولذلك أسباب مستقلة عنها من حيث هي لغة طبيعية

لا يفارقه التفاؤل وهو يتطلع إلى الآفاق المستقبلية بإمكان اللحاق بركاب اللغات العالمية في إنتاج المعرفة بها ثم انتشارها ، على أنّ واقعها الراهن يعكس احتلالها لموقع مقبول نوعا ما إذا قيس بالتدني الاجتماعي للأمة ؛فهي مستعملة رسميا في التعليم بمختلف أطواره في أغلب الدول العربية وفي تخصصات دقيقة وعلمية وفي المحافل الدولية ،ولها مواقع مهمة على الشبكة الدولية للمعلوميات، ولها وسائل إعلامية وأقمار فضائية تروّج لها ، كما أن الثّقافة العالمية في إطار حركة الترجمة لا تنفك تعتني بترجمة الآداب المكتوبة بها ،واستعمالها وسيلة تبليغية في المسرح والسنما والصحافة المكتوبة والمرئية المحلية منها والعالمية وهذا أمر يبعث على التفاؤل دوما .

الهوامش والإحالات

[1] - مصطفى العبد كفري ،العولمة الهاجس الطاغي في المجتمعات المعاصرة ، موقع الحوار المتمدن .

[2] - يمكن أن أشير إلى تعريف المفكر الجزائري أحمد بن نعمان للهوية في كتابه اشهدي ياجزائر؛ الهوية لفظة مركبة من هو الضمير والمضاف إليه ياء النسبة لتدل اللفظة على ماهية الشخص ، أو الشخص المعني كما هو في الواقع، والهوية اسم الكيان بناء على مقومات ومواصفات معينة تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشياء ، دار الأمة ، الجزائر ، طبعة .

[3] -انظر في سياق مماثل ، محمود الطناحي ، القرآن الكريم وتفسير العوام ، مجلة الهلال ، عدد يناير،1999، ص75.

[4] -محمد الحناش، البنيوية في اللسانيات ، ص214 كما يمكن أن يشار هنا إلى موقف البنيوية الأمريكية من العلاقة القائمة بين النسقين اللغوي والاجتماعي الثقافي وهي قائمة على التغاير عند هوكيت مادام التطور يمس النسقين بشكل مستقل وفي اعتقاده أن محاولة الربط بينهما محاولة يائسة الغرض منها الحط من لغات معينة تنعت ثقافتها بعدم النضج أو التخلف فيحكم على رداءة اللغة بهذا العامل ،محمد الحناش ،البنيوية في اللسانيات ، ص148

[5] - ولعل من أهم التعريفات المحدثة لمصطلح الثقافة ذلك الذي صاغه في بدايات القرن العشرين **إدوارد برنت** ؛حين قرر أن الثقافة بمعناها الإثنوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدرات والعادات الأخرى ،والتي يكتسبها الإنسان الاجتماعي، ويتسق هذا التصور مع كثير من الآراء النظرية العربية التي تشيد بمبدأ الخصوصية في المكون الثقافي ، ولعل الدراسة التي قدمها **أحمد أبو زيد** والموسومة بهوية الثقافة العربية من النماذج الجديرة بالتنويه في سياق توصيف خطاب الحداثة الثقافية العربية، ناهيك عن اتصاله بالبعد اللساني العربي والذي يمثل أهم الركائز التي تقوم عليها الذات العربية، في إثبات خصوصيتها بالإضافة إلى ركيزتين أخريين لا تنفصمان عن بعضهما هما الدين والتراث، لقد باتت هذه المكونات الثلاث بتلاحمها هوية للعربي في كل زمان ومكان.

[6] -سابير ،اللغة،ص68و75

[7]-A.Sommerfelt,structures linguistique de groupes sociaux,p13

[8] –ميشال زكريا ،الألسنية علم اللغة الحديث ، ص223

[9]-J.vendryes,langage orale et langage par jeste,1950,p05

[10] - إيدجر بولوم ، اللغة والسلوك ضمن الموسوعة اللغوية،منشورات جامعة الملك سعود ، 460/3، من المعلوم أن بنيامين لي وورف صاغ فرضيته حول النسبية اللغوية في مقابل التصور العالمي لما هو مشترك من قواعد لغوية كلية .

[11] - يحي أحمد ، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة ، مجلة عالم الفكر ، مجلد 20، عدد3، ص75.

[12] - المرجع نفسه ، ص76.

[13] - المرجع نفسه، ص89.

[14] -كان هذا الموضوع إشكالا أكاديميا في مؤتمرات عدة عقدت في الجامعات الجزائرية لعل أهمها مؤتمر دولي عقد بالجزائر العاصمة بتاريخ 12-2004/5/13، وكان موضوعه : العولمة وأثرها على الثقافة الإسلامية وكان من بين المحاور : الهوية الثقافية في زمن العولمة.وكذا مؤتمر المجلس الأعلى للغة العربية ، اللغة العربية ومكانتها بين اللغات العالمية ،شارك فيه لفيف من الباحثين العرب،من أمثال نهاد الموسى وتمام حسان وأحمد حساني ,وغيركم بتاريخ2003

[15] - العولمة أوما يسمى ب:GLOBALISATION في الثقافة الإنجليزية و MONDIALISATION في الثقافة الفرنسية،الشائع كونها رديفا للثقافة الشمولية والنزعة إلى تعميم الظاهرة الخاصة على العالم كله لأغراض محددة سلفا ،والدعوة إلى الاقتصاد الحر من خلال هيمنة مطلقة للشركات متعددة الجنسيات التي لا تعترف بالحدود القارية بل تنظر إلى العالم نظرة رقمية بحتة ،مختزلة التعددية الثقافية والخصوصيات الحضارية في إيديولوجيا واحدة هي العولمة.

[16] -منظمة اليونسكو ، التربية ذلك الكنز المكنون ، مجلة التربية ، الدوحة ، قطر ، عدد 120، سنة 1997ص38 بتصرف

[17] -علي حرب ، حديث النهايات ،فتوحات العولمة ومآزق الهوية ،بيروت ،2000،

[18] -السيد يسن ، العرب والعولمة ، ص24.

[19] -فلوريان كولماس ،اللغة والاقتصاد ، سلسلة عالم المعرفة ، ص140.

[20] -زكا نجيب ، رحلة اللغة والثقافة العربية إلى فرنسا تعليمها في المعاهد العليا والجامعات ، أعمال ندوة 6-8 نوفمبر ، الجزائر ،2000، ص470ومابعدها .

[21] -فلوريان كولماس ،اللغة والاقتصاد ، ترجمة أحمد عوض ، عالم المعرفة ، عدد263، سنة 2000، ص 130.

[22] -عبد السلام المسدي ،العولمة والعولمة المضادة ، كتاب سطور ، ط1 ، القاهرة ،2000، ص393 .

[23] -عبد الهادي التازي ، هل في استطاعة العولمة أن تهدر الهوية ؟ مجلة الأكاديمية الملكية ، الرباط ، 1997، عدد العولمة والثقافة ، ص67 بتصرف .

[24] -انظر تصور الذخيرة اللغوية وأهدافه وآلياته فيما وضعه عبد الرحمن الحاج صالح الذي أوصى بضرورة ترشيد العامية بتقريبها إلى العربية عن طريق البحث في أصول الكلمات و إدماج ذلك كله في الذخيرة ونشرها عن طريق وسائل الإعلام والمؤسسات العلمية والتربوية ،وكذا بناء المناهج الدراسية الخاصة بتعلم العربية على أسس علمية ولسانية ، أنظر مقالته في ندوة بناء المناهج التعليمية، جامعة محمد بن سعود ، الرياض ، 1985، نشر في المجلة العربية للتربية ، مجلد 5، عدد02، 1985 ،ص11-30.

[25] -نعمان بوقرة ، صناعة المصطلح عند الفارابي ،مجلة اللغة العربية المجلس الأعلى للّغة العربية ، عدد08 ،سنة 2003، ص177.

[26] -سعيد السريحي ،شجاعة العربية وأوهام النقاء ، أعمال الندوة الدولية :مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية نظمها المجلس الأعلى للغة العربية،6-8نوفمبر ن2000، الجزائر ،105.

[27] -نبيل علي ،الثقافة العربية وعصر المعلومات ،عالم المعرفة ،عدد2001،276 ،ص270.

[28] -ابن حزم الأندلسي ، الإحكام في أصول الأحكام 13/1

[29] -عبد السلام المسدي ، العولمة والعولمة المضادة ، ص409.

[30] -موجز استراتيجية تطوير العلوم والثقافة في الوطن العربي ،المجلة العربية للعلوم ،عدد15، 1990، ص16 وما بعدها .

[31] -ميلود حبيبي ،الاتصال التربوي وتدريس الأدب ،دراسة وصفية تصنيفية للنماذج والأنساق ، المركز الثقافي العربي ،ط01،الدار البيضاء ،ص73.

[32] -لمزيد من التفصيل في أهمية المنهج اللساني في تعليم اللغات بعامة والعربية بخاصة أنظر عبد الرحمن الحاج صالح ،أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية،مجلة اللسانيات ، عدد04،سنة 1974 ، الجزائر ، ص24.

[33] -Denis Girard ,linguistique applique et didactique des langues,Paris ,Armand Colin .p19, 1972, وفي هذا الإطار يجب التركيز على الدافع البراغماتي في اختيار اللغات التي نعلمها ونتعلمها في سياق تعليم العربية وفق أسس ثلاثة هي :

1-عالمية اللغة وعلميتها

2-التأمل الاقتصادي والتكنولوجي والثقافي أنظر تفصيلا صالح بلعيد ،رأي في تعميم استعمال اللغة العربية ، مجلة التعريب ، سوريا ،المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، سنة ، 1998،عدد 16 .بتصرف

[34] -عبد السلام المسدي، الهوية اللغوية ورياح السياسة ، أفكار ، مجلة فكرية إلكترونية ،afkar@afkaronline.org

[35] -سعيد السريحي ، شجاعة العربية وأوهام النقاء،ص106 بتصرف.:ما ينظر مقال علي القاسمي،شروط عالمية اللغة العربية وكيفية توفيرها للغة العربية ، الذي لخّص فيه شروط عالمية اللغة ،مركزا على الشروط التاريخية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ، دون التقليل من دور التقدم التكنولوجي والموقع الجغرافي والتوزيع الجغرافي للناطقين باللغة ،ص200ومابعدها

[36] -ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام ، تحقيق ،32/1.

[37] -علي القاسمي اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى ،جامعة الرياض ، الرياض ،1979 ،ص15 وما بعدها .

[38] -كان جاك دريدا مؤسس مذهب التفكيك من أوائل المفكرين الغربيين الذين حاولوا قراءة التراث الغربي المتمركز حول اللوغوس محاولا هدم أنساقه المعرفية لصالح مركزية الكتابة التي تعبر عن الوجود الغربي الجديد في قطيعة مع أصول التفكير الماضوي.

السياحة واللغة العربية

أ.د.عبد المجيد حنون
ج.باجي مختار/عنابة

مُقـدّمة

السياحة نشاط إنساني تطور بتطور الإنسان نفسه. فمن قائل بأنها وسيلة الاسترزاق الأولى حيث راح الإنسان الأول يسيح وراء الماء أو الكلأ أو الثمار أو التجارة فيما بعد.ومن قائل بأنها الوسيلة الأولى التي مكنت الإنسان الأول من الفرار من المتاعب فساح في البراري حرا طليقا من كل هم أو قيد.ومن قائل بأنها وسيلة الاطلاع والمعرفة الأولى حيث كانت الوسيلة الأولى التي مكنت أول إنسان خرج من مغارته وجازف بدخول مغارة غيره، ولما رجع سالما عند أهله، نقل إليهم، بما يملك من وسائل تبليغ، ما شاهد أو سمع عند الآخرين(1).

وتطورت السياحة، عبر العصور، بتطور وسائل النقل وهياكل السفر وتنظيماته،وبتطور وسائل الاتصال من بريد إلى وسائل سمعية بصرية، ثم بتطور نمو الدخل الفردي في كثير من بلدان العالم، الأمر الذي جعل النشاط السياحي يتسع اجتماعيا ولا يبقى حكرا على الطبقات العليا أو النخبة، حتى أصبحت السياحة وسيلة تهذيبية في العديد من المجتمعات الأوروبية، فلا يعد الشاب فيها مهذبا إلا إذا قام بجولة سياحية معينة(2).

تعددت أنواع السياحة باختلاف الأهداف المرجوة منها: فمنها الدينية التي يهدف صاحبها إلى زيارة أماكن مقدسة أو معالم دينية أو شخصيات دينية حية أو ميتة قصد الاستشارة أو الزيارة بغض النظر عن طبيعة الديانة وموقعها في الزمان والمكان،والأمثلة على ذلك كثيرة عند الهنود والإغريق واليهود والمسيحيين والمسلمين...الخ، ومنها التثقيفية التعليمية التي يهدف صاحبها إلى الاطلاع على عجائب الدنيا وإلى ما عند الغير، وعرف هذا النوع من السياحة ازدهارا متزايدا منذ القرن الثامن عشر حيث ساح أدباء أوربا وفنانوها ومثقفوها في مختلف ربوع العالم بحثا عن الجديد والغرابة، وعدت السياحة لديهم مصدرا تثقيفيا لا غنى عنه. ومنها الترفيهية التي لجأ إليها كبار القوم في العصور السابقة ترويحا على أنفسهم من ثقل المسؤوليات وتجديدا للحيوية والنشاط، ثم أصبحت ظاهرة جماهيرية في القرن العشرين مع نمو الدخل الفردي وسهولة وسائل النقل والاتصال وتنظيم العمل وضغط الحياة اليومية في المصانع والمدن الكبرى. ومنها الصحية التي لجأ إليها أناس بحثا عن الراحة والشفاء كما هو الحال مع كارل ماركس (K.Marx) وأندري جيد (A.Gide) اللذين ساحا في الجزائر هربا من برودة ورطوبة بلديهما بحثا عن جو دافئ وجاف يخفف عنهما آلام الربو والمتاعب الصدرية التي كانا يعانيان منها، وكما هو الحال اليوم مع شركات سياحية تغري طبقات اجتماعية أوروبية بسياحة طبية في بلدان تجمع بين خدمات طبية زهيدة الثمن وبين السياحة كما هو الحال مع تونس والمغرب والبرازيل ...الخ.

تعددت أنواع السياحة حتى أصبحنا نسمع بتسميات سياحية لاعد لها ولا حصر وتطورت أهدافها ووسائلها وخرجت من طور النشاط الفردي إلى طور النشاط المؤسساتي المنظم تتسابق الدول والشعوب في تنظيمها وترقيتها لاستقطاب أكبر عدد ممكن من السواح نظرا إلى دور السياحة الفعال في تنشيط

اقتصاديات البلد ولفوائد أخرى متعددة مثل نسج خيوط الاتصال مع الآخرين لأن الحياة المعاصرة أصبحت تقوم على التواصل والتفاعل معهم في مختلف المجالات عن طريق تعريفهم بتراث البلد وفنه وذوقه ولغته.

لقد أصبحت السياحة اليوم نشاطا استراتيجيا متعدد الغايات والأهداف تتنافس فيه الدول والأمم يحقق أهدافا تبدو اقتصادية في الظاهر إلا أنها تتجاوز ذلك في الباطن .ومن فوائد السياحة اليوم أنها أصبحت أداة فعالة في تطور اللغات وآنتشارها.

2- السياحة واللغة:

تعد اللغة أعظم اختراع عرفته البشرية حتى يومنا هذا، بها يتواصل الإنسان مع الغير ويعبر ويفكر. ونظرا إلى خصوصية اللغات من حيث نظامها اللساني (قال ابن جني: اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[3] وآرتباطها تعبيريا وتواصليا بأهلها وبيئتهم فقد كانت اللغة، فيما مضى، العقبة الكأداء أمام السائح الذي كان يصطدم بأناس لا يفهمون ما يريد حتى لو طلب أتفه الأشياء[4] معتقدا أنهم يجهلون طلبه البسيط غير مدرك أن المشكلة لغوية بالدرجة الأولى.

ولما تطور تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها وشاع بعد الحرب العالمية الثانية، وأصبحت السياحة نشاطا اقتصاديا مربحا ومنظما اكتسبت لغات صفة "لغة سياحية"مثل الانكليزية في مختلف أنحاء العالم والإسبانية في شبه جزيرة إيبريا وأمريكا اللاتينية والصينية واليابانية في جنوب شرق آسيا، والفرنسية في البلدان الفرانكوفونية مثل بلجيكا وسويسرا وكندا والمغرب العربي وبلدان إفريقية أخرى.

تعاملت هذه اللغات مع السواح في ميادين النقل برا وبحرا وجوا، والإيواء بمختلف أصنافه ودرجاته والإطعام بمختلف أنواعه والترفيه الفني والثقافي وكانت محصلة ذلك ظهور معاجم لغوية سياحية تجسدت في الأدلة (جمع دليل) التي يجدها السائح في الوكالات السياحية وفي المكتبات وفي المطارات ومحطات السفر وفي الفنادق...الخ. وفرضت هذه اللغات بفضل قوتها السياحية نفسها على السائح الأجنبي الذي وجد نفسه مجبرا على التعامل بها داخل بلد اللغة الأصلي وخارجه أيضا حيث تعاملت الكثير من البلدان سياحيا بتلك اللغات"السياحة" غير مكترثة بتبعات ذلك.وهكذا كانت حركة السياحة عاملا أسهم في تطور اللغات السياحية المشار إليها سابقا وفي آنتشارها، وبالتالي انتشار ثقافتها وذوقها و كل ما يترتب عن ذلك، وبالتالي أسهمت في تطور تلك اللغة وآنتشارها.

3-اللغة العربية والسياحة:

خرج العرب من حيزهم اللغوي والثقافي سائحين في مختلف أنحاء العالم في جولات نخبوية منذ القرن التاسع عشر مثل رحلات أحمد فارس الشدياق وعلي مبارك وغيرهما، ثم تزايدت وتيرة السياحة العربية حتى أصبح الكثير من العرب يجوبون، سائحين، أوروبا وأمريكا وآسيا...الخ. غير أن الملاحظ في سياحة العرب عبر العالم أن الشركات السياحية العالمية- من طيران وفنادق ومطاعم وبرامج سياحية- لا تقدم لهم خدمات سياحية باللغة العربية إلا في القليل النادر عندما يتعلق الأمر بمعاملات سياحية هدفها الربح المالي الوفير، وعليه يجد السائح العربي نفسه مضطرا إلى التعامل بواحدة من اللغات السياحية العالمية، كالإنكليزية أو الفرنسية، مضحيا بلغته وعلى نفقته في الوقت نفسه(!!).

فرض السياح الأجانب تعاملا سياحيا بلغاتهم على البلدان المستقبلة لهم حتى في أوروبا نفسها فنجد الإنكليزية والألمانية إلى جانب الفرنسية، ونجد الإيطالية والفرنسية والإنكليزية إلى جانب الإسبانية وهكذا دواليك في العديد من بلدان العالم. أما العربية فلا يعثر لها السائح العربي على أثر، وإذا حدث ذلك في القليل النادر فإن المستخدم منها لا يؤدي الخدمة السياحية أداء ناجعا ولا يفي بالغرض لهزال المعجم السياحي العربي، حيث بقي المعجم العربي حبيس دلالات بدوية في مختلف الميادين موروثة منذ قرون عديدة ولم يعرف التطور الذي عرفته الحياة اليومية عند العرب.

وإذا كان الآخرون معذورين في تجاهلهم استخدام اللغة العربية في تعاملاتهم السياحية لأن أهل الأمر أولى به، فإن الأدهى من ذلك أن بلدانا عربية مثل مصر وتونس والمغرب ولبنان والشام والخليج تعرف نشاطا سياحيا معتبرا ومتناميا إلا أنها تتعامل مع السائح الأجنبي بلغته الأصلية أو بلغة أخرى وسيطة مهملة اللغة العربية إهمالا تاما ومرد ذلك:

أ- الاعتقاد بأن السائح الأجنبي يجهل العربية جهلا تاما قد يكون التعامل بها معه سببا في نفوره، ونسي الذاهبون هذا المذهب أن اللغة ليست هي العنصر الأساس في الجذب السياحي ولو كان الأمر كذلك لما تخطى سائح حدوده اللغوية.

ب- احترام مبالغ فيه للسائح الأجنبي والسعي إلى إرضائه بكل الوسائل علما بأنه جاء سائحا بحثا عن التميز والاختلاف والغرابة فكيف نقدم له ذلك بلغته(؟!).

جـ- هزال في المعجم اللغوي العربي السياحي حيث يجد المتعاملون السياحيون العرب أنفسهم أمام رصيد لغوي محدود من حيث الكم وبسيط من

حيث الاستعمالات يتسم بطابع المحلية وشيء من البداوة والريفية في حين تحتاج السياحة إلى معجم حضري في مختلف آلياتها كالنقل والإيواء والإطعام والترفيه والتثقيف...الخ. وما تتطلبه كل آلية سياحية من مصطلحات وتعابير قاموسية ذات دلالات ثابتة وآستعمالات لغوية معمول بها في مختلف أنحاء العالم ، ويبدو أن هذا الهزال اللغوي لم يحث العرب على الاجتهاد في ميدان لغة السياحة بقدر ما دفعهم إلى إهمال لغتهم شيئا فشيئا، في تعاملاتهم السياحية، واستبدالها باستعمالات لغوية من لغات أخرى وكأن صيغا وتراكيب مثل "أهلا" أو "مع السلامة" أو "صباح الخير" أو "إلى اللقاء"أو "الغرفة" أو "الفطور"أو "الزيارة" أو "الجولة"...الخ. أصعب من مقابلاتها في اللغات الأخرى أو أقل دقة وتعبيرا(!!).

لا يستطيع أحد أن ينكر أن العربية تعرف ضعفا لغويا في مجال السياحة، ليس لضعف في طبيعتها أو في نظامها اللساني تركيبا أو دلالة .فاللغة التي حملت القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وحوت حكمة الهند وحكم فارس وفلسفة اليونان وعمران الرومان لا يعجزها أن تعبر عن نشاط بشري يومي قوامه الحل والترحال والأكل والشرب وتعريف الآخرين بالمآثر والآثار، وإنما لحداثة عهد العرب بالنشاط السياحي. وبما أن اللغة -أية لغة- تعامل وآستعمال فإن اللغة العربية بحاجة إلى استعمال وتوظيف في مجال السياحة. ومن المستحيل أن يفعل ذلك غير العرب لأن المثل يقول "ماحك جلدك مثل ظفرك". فالحرص عليها والحفاظ عليها وتنميتها وترسيخها ونشرها يبقى دائما وأبدا دينا في أعناق أهلها لأن ضعفها ضعف لهم جميعا.

يتضح من خلال ماسبق ذكره أن السياحة العربية لا تخدم اللغة العربية، عدا السياحة الدينية في البقاع المقدسة ، ولا توجد جهة تعمل على إصلاح هذا

الوضع الذي ينخر أساس الأمة العربية بهدوء ونفاذ نخر السوس لركيزة البيت لأن اللغة العربية هي الرباط الأساس الذي يربط العرب اليوم، ولابد من الحفاظ عليه تفاديا للاستلاب والتشتت والضياع.فما هو المطلوب لوضع حد لهذا الوضع؟ ومن هي الجهات المطالبة بذلك؟

أ- المطلوب بطبيعة الحال هو أن تحل اللغة العربية محلها الخليق بها في عالم السياحة فتصبح أداة تواصل في مختلف النشاطات السياحية العربية العربية أو العربية الأجنبية مع مراعاة مستوى الاستعمال اللغوي تماشيا مع الطرف المخاطب ومستواه في اللغة العربية والهدف المنشود من التعامل معه بها.

ب- أما الجهات المطالبة بذلك فهي الإنسان العربي عموما الذي يجدر به أن يحافظ على لغته باستعماله وتعامله بها مع الآخرين عربا أو أجانب مع مراعاة تحقيق الغاية التواصلية بها وبذلك ينميها ويطورها لأن اللغة تعبير وتواصل، وتبقى الجهات والهيئات المعنية بالسياحة أو باللغة العربية المعني الأول بهذا الشأن ومنها:

- الهيئات والدوائر الرسمية المعنية بالسياحة مثل وزارات السياحة ودواوينها التي يتوجب عليها أن ترسم سياسة سياحية ذات أبعاد وأهداف لغوية ضمن مخططات عملية مثل الحث على وضع برامج سياحية باللغة العربية أو تشجيع الباحثين على إنجاز معاجم عربية سياحية ولنا في تراثنا الكثير من الكتب التي يمكن استثمارها سياحيا.

- كليات السياحة ومعاهدها وهي المحور الذي تدور حوله رحى السياحة واللغة العربية لأنها منطلق الفعل السياحي يتعلم فيها العنصر السياحي حرفة السياحة وفق قوانينها ومتطلباتها ومقاييسها، فإذا ماأضيف إلى ذلك **تمكن فعلي**

وتام في اللغة العربية التخصصية (أي لغة السياحة)، فإنه سيؤدي مهمته السياحية على أفضل وجه من حيث الكفاءة والاحترافية محققا الأهداف السياحية المرجوة منه، كما سيؤدي مهمة أفضل وأجل باستعماله لغة عربية متخصصة وترسيخها وبالتالي الإسهام في تطوير اللغة العربية، ونشرها داخل الوطن العربي وخارجه.

- ولن يتأتى ما سبق ذكره إلا إذا تضافرت جهود الهيئات والدوائر الرسمية مع جهود كليات السياحة ومعاهدها بجهود مجامع اللغة العربية وأقسام اللغة العربية في الجامعات حيث ينبغي أن يدفع علماء اللغة والباحثون فيها وطلبتها إلى الاهتمام بعربية السياحة، وما هو المانع من أن تنجز بحوث ورسائل في عربية السياحة وقضاياها؟ أو من ترجمة مصطلحات سياحية؟ وما هو المانع من التفكير في برامج تعليمية لغوية سياحية تدرج ضمن مقررات الليسانس؟ أو ضمن مقررات كليات السياحة ومعاهدها؟ وما هو المانع من ترجمة البرامج السياحية. إنها تصورات لمشاريع كثيرة وكبيرة تهدف إلى إيجاد تراكم لساني في السياحة باللغة العربية قصد تنمية عربية السياحة وتوحيدها وخلق معجمها المتخصص، في مختلف مراحلها ومجالاتها مثل عربية النقل، وعربية الإيواء، وعربية الإطعام،وعربية الترفيه...الخ.

هذا المخطط عام يمكن لأي بلد عربي أن يسهم فيه بالقسط الذي يراه أو المناسب له، غير أن ضبط مخطط لغوي عربي، يسهم فيه كل بلد، حسب إمكاناته السياحية والعلمية، يبقى شرطا لابد منه لأن اللغة العربية عنصر مشترك بين جميع العرب، لا يستطيع بلد عربي أن يطورها بمعزل عن بقية البلدان العربية. وعليه فإن دور وزارات السياحة ومؤسساتها المختلفة يبقى الركيزة الأساس في هذا المشروع العلمي والحضاري.

4-1- البعد السياحي غير العربي:

يبدو أن السياحة غير العربية تتجه في بلدان عربية معينة كالبلدان الخليجية نحو الصفوة والنخبة من الأثرياء والنجوم والمفكرين والمثقفين والأعلام، وعليه فإن التعامل السياحي بغير اللغات العالمية سيكون أمرا صعبا نظرا إلى طبيعة الجمهور السياحي ومطالبه ورغباته، غير أن التعامل معه بمصطلحات وتراكيب عربية بسيطة ومحددة سيضفي على المنتوج السياحي المقدم إليه نكهة عربية حتى لو كان في أفخم فندق أو شقة في الدنيا، ولن يضره في شيء أن تقدم إليه أسماء الأطعمة بأسمائها العربية -ولو مكتوبة بحروف أجنبية- إلى جانب تسمياتها الأجنبية وكذلك الحال بالنسبة إلى العديد من المنتجات السياحية.

ولا أعتقد أن السائح غير العربي سينفر من السياحة في البلدان العربية لمجرد أنه سمع خلال مخاطباته وتعاملاته كلمات ومصطلحات عربية دقيقة واضحة المعنى، نطقها سهل من الناحية الصوتية مثل:"أهلا" و"مع السلامة" و"فندق" و"مطار" و"جولة" و"سباق"و"بحر"...الخ. وبذلك نضبط معجما سياحيا عربيا أساسيا يكون أداة للتعامل مع الأجانب، ووسيلة عصرية وحضارية فعالة لنشر اللغة العربية وما يتعلق بها من ثقافة وفكر وذوق خارج حدودها اللسانية.

ولا شك أن السائح الأجنبي سيكون أسعد إذا ما وجد منتوجا سياحيا عربيا أصيلا يذكره-بعد رجوعه إلى بلده- بجولته السياحية العربية كالأغاني الأصيلة والتحف والنقوش والمنسوجات المزينة بخطوط عربية جميلة، الأمر الذي يجعله يحقق رغبة الاكتشاف فعلا والاطلاع على الآخر، ويبعده عن

الإحساس السياحي المتمثل في أن ما يحصل عليه من منتوج سياحي لا يختلف عما حصل عليه في أماكن أخرى. وبالتالي فإن إضفاء الطابع العربي -بدءا باللغة العربية أو انطلاقا منها - سيميز المنتوج السياحي العربي عن بقية المنتوجات السياحية العالمية، ويصبح مصدر جدب للسواح وليس مصدر نفور كما يعتقد البعض.

4 - 2- البعد السياحي العربي:

تعرف بلدان عربية عديدة سياحة عربية متنامية لأسباب تجارية بالدرجة الأولى وبدأت، هذه السياحة تستقطب مختلف شرائح المجتمع العربي في حركة سياحية عربية متنوعة الأغراض. ويجدر بالأطراف المعنية. بهذه الحركة السياحية أن تستثمرها استثمارا لغويا ينمي اللغة العربية ويطورها حفاظا على الرباط العربي الأساس. ومن الآليات التي يمكن أن تعتمد في سبيل ذلك:

-التعامل مع السواح العرب بعربية سياحية بدلا من الإنكليزية الركيكة تلفظا ودلالة وتراكيب أو الفرنسية الممسوخة التي درج العديد من العرب - وبصفة خاصة في بلدان المغرب العربي -على استعمالها معتقدين أن ذلك أمارة تقدم وتحضر (!!) وآستخدام عربية وسطى تعبر بدقة ووضوح عن متطلبات الفعل السياحي بدءا بوسائل السفر، مرورا بمتطلبات الإقامة والطعام، وآنتهاء باحتياجات الفعل السياحي في مختلف نشاطاته ومظاهره كالحفلات الفنية والزيارات التاريخية والجولات السياحية والتسوق، وكل ذلك بالاعتماد على معجم لغوي عربي سياحي قاعدي تسهم في وضعه أو إنجازه كل الأطراف المعنية بالسياحة واللغة، وأقصد بذلك مجامع اللغة العربية، والجامعات

والمؤسسات السياحية وهيئاتها من خلال برامج تعليمية لغوية أو برامج بحث متخصصة في "عربية السياحة" ولا أعتقد أن هذا الأمر سيكون صعب المنال لأن أسلافنا وضعوا العديد من الكتب والمعاجم في أسماء "الخيل" و"المزروعات" و"المشروبات" و"المأكولات"، فما الذي يمنع الآن من ضبط الاستعمالات اللغوية في ميادين معينة أو ترجمة مصطلحات لا وجود لمقابلاتها في العربية؟!.

يبدو لي أن التصور قابل للتنفيذ ولا يحتاج إلا لتنسيق الجهود على مستوى الهيئات السياحية الآمرة ثم على مستوى الهيئات السياحية الفاعلة وأخيرا على مستوى الهيئات اللغوية العربية التي ستجد في هذا المشروع متنفسا لها من الجمود اللغوي الذي تعيش فيه، ونافذة لغوية مشرعة على الحياة تربط العربية بالحياة اليومية المعاصرة.

-تأسيس مواقع وأنشطة سياحية عربية : وبالإضافة إلى تعريب السياحة العربية مع العرب وتحميلها وظيفة لغوية ثقافية حضارية موحدة (بكسر الحاء) على السياحة العربية أن تقدم إلى السائح العربي منتوجا سياحيا عربيا راقيا أصيلا يرسخ فيه اللغة العربية وثقافتها ويمكنه من التفاعل معهما (أي اللغة والثقافة) تفاعلا فعليا ومن الأمثلة على ذلك:

- بعث فكرة أسواق الشعر بمختلف مظاهرها القديمة (الأسواق البدوية في الخيمة...الخ) أو الحديثة (في المسارح والإذاعة والتلفاز والأشرطة الشعرية المسموعة أو المرئية...الخ).

- بعث فكرة المواقع السياحية اللغوية أو الأدبية وربطها بشعراء وأدباء ولغويين مثل شعراء الجاهلية في شبه الجزيرة العربية، ومعرة النعمان في سوريا

ومايمكن بعثه من مجالس في بغداد...الخ وبعث نشاط سياحي باللغة العربية حول تلك الأسماء.

- تأسيس نشاطات فنية وثقافية ولغوية ومهرجانات باللغة العربية تكون مناسبة سياحية وترفيهية وثقافية بين العرب وأداتها اللغة العربية، لترسيخ اللغة العربية أولا وتنميتها ونشرها بين أبنائها والقضاء على التباعد الصوتي والدلالي الذي نسمعه يوميا في وسائل الإعلام بين الناطقين بها، فضلا عن هزالها أمام اللغات الغازية.

وهكذا ستعمل السياحة العربية على ترسيخ اللغة العربية وترقيتها ونشرها، بدلا من تقزيمها وتهميشها، وتصبح فعلا حضاريا منتجا على المستويين الاقتصادي واللغوي.

5- **وخلاصة القول:** هذه مجرد فكرة لربط السياحة العربية باللغة العربية ربطا علميا وعمليا وواقعيا بغية توظيف النشاط السياحي توظيفا حضاريا تكون نتيجته إن شاء الله:

- الحفاظ على اللغة العربية من الهزال الذي تعرفه أمام اللغات السياحية العالمية الغازية.

- إثراء معجم لغوي عربي سياحي ينمي اللغة العربية ويربطها بالحياة العصرية.

- دفع السواح الأجانب إلى الاحتكاك بالعربية وبثقافتها لإعطاء المنتوج السياحي العربي نكهة عربية ونشر العربية خارج حدودها اللسانية ولوكان نشرا محدودا.

- تنمية عربية السواح العرب وترسيخها وتوحيدها في إطار الحفاظ على اللغة العربية ووحدتها وبالتالي وحدة الأمة العربية وكل ما يرتبط بها من فكر ومعتقد.

ويمكن أن تقوم الجامعة الجزائرية بإنجاز نصيب من هذا المشروع بوساطة تأسيس مسارات تعليمية في السياحة باللغة العربية أساسا- إلى جانب تمكن الطلبة في اللغات الأجنبية كالإنكليزية والفرنسية- في إطار النظام التعليمي الجديد" لسانس، ماستر، دكتوراه LMD" تخصص فيه مرحلة الليسانس للتعرف على عالم السياحة وأنواعه ووظائفه...الخ، وتخصص مرحلة الماستر لتكوين متخصصين في أهم ميادين النشاط السياحي مثل تسيير المؤسسات السياحية أو الإعلام السياحي أو البرمجة السياحية...إلخ، وتبقى مرحلة الدكتوراه لتكوين المكونين في متطلبات السياحة.

وبذلك تحقق الجامعة الجزائرية شيئا من التفاعل مع المحيط وتقدم له منتوجا فعالا، وتسهم من جهة أخرى في تطوير اللغة العربية وترسيخها ونشرها.

وختاما فإن هذا المقال، يبقى مجرد فكرة مطروحة للدراسة والبحث عن قضية مهمة جدا في الحياة المعاصرة على المستويين.

أ- المستوى الاقتصادي والاجتماعي والترفيهي...الخ.

ب- المستوى اللغوي والمعرفي والثقافي...الخ.

إنها قضية السياحة وعلاقتها باللغة، وأعتقد أن الوقت حان للاهتمام بها.

الهوامش:

1-Brunel (p), pichois(cl) et Rousseau (A.M) : Qu’est ce que la littérature comparée. Armand Colin .Paris 1983 p34.

2-I.dem.p.p.34-38.

3- ابن جني: الخصائص.تحقيق محمد علي البخاري الجزء الأول، دار الهدى للطابعة والنشر بيروت ص33..

4-Brunel (p), pichois(cl) et Rousseau (A.M) : Qu’est ce que la littérature comparée. Armand Colin .Paris 1983 p37.

كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية "دراسة وصفية تحليلية"

أ. أيت إحدادن كريمة
ج.تيزي وزو

المؤلف الذي نحن بصدد دراسة كتابه هو« أبو حاتم أحمد بن حمدان ألليثي الورسناني الرازي[1]»، وتسمّيه الفرقة الإسماعيلية «سيدنا أبو حاتم» تعظيما لمكانته. ولم تتحدث الكتب عن تاريخ ولادته (مجهول تاريخ الميلاد)، أما عن تاريخ وفاته فتشير المراجع إلى أنّه « توفي سنة 322هـ الموافق لـ934م .[2]»والملاحظ أنّ تاريخ وفاة أبي حاتم الرازي يدل على أنه عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، ليكون بذلك معاصرا لفئة من اللغويين أمثال عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت320هـ)، قدامة بن جعفر(ت337هـ)، وابن دريد (ت321هـ) وغيرهم من اللّغويين .

1- مولــده: أما عن مولده فقد أشارت المراجع إلى أن أبا حاتم ولد في "**بشاور** "قرب" **الرّي**«Ragha» "، ومدينة الري القديمة موجودة في الجبال، يشاهد "الرائي [*]"أطلالها على مسيرة خمسة أميال تقريبا من الجنوب الشرقي من طهران، وترجع أهميتها الجغرافية إلى وقوعها بين الجبال والصحراء، وهي المنطقة التي كانت منذ أقدم الأزمنة طريق المواصلات بين غرب إيران وشرقها.

2- مذهبه: لم يفصح أبو حاتم الرّازي عن انتمائه المذهبي، إلاّ أنّ أغلب المراجع تقول إنّه كان « شيعي المذهب » مولعا بالدّعوة **الإسماعيلية** فنشط فيها وتولى أمرها على عاتقه وأرسل إلى المدن المحيطة دعاته، وتمكّن من اجتذاب حاكم الرّي **أحمد بن علي** -الذي كانت فترة حكمه من سنة 307 حتى سنة 311 من الهجرة- إلى الدعوة الإسماعيلية، وقد مثّل نشاط الدعوة الإسماعيلية في عهد إمامة **محمد المهدي بالله عبيد الله** مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب»[(3)] ، وبذلك كان من المُقيمين بالإشراف على فروع الدعوة الإسماعيلية وتنظيمها وإعداد دُعاتها، وإن كان المؤلف لا يصرّح في كتابه الزينة عن انتمائه المذهبي، فحين يتعرض للحديث عن المذاهب والفرق الإسلامية يقوم بشرحها لغوّيا، مراعياً في ذلك تحفظه لكل مذهب أو فرقة دينية.

ويمكن القول عن الإسماعيلية كونها "انتسبت إلى الإمام **إسماعيل بن جعفر الصادق** ....وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنّما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأنّ : لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلا. ولهم ألقاب كثيرة فبالعراق يسمون **الباطنية**، و**القرامطة** و**المزدكية**، وبخراسان: التعليمية والملحدة[(4)]"، وقد ظهرت على الساحة الإسلامية بطابع ديني بحت، مدعية استمرار الإمامة المتجسدة في إسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل.وقد عُرف عن الإسماعيلية كونها فرقة ابتدعت لنفسها تعاليم جعلتها تبتعد عن الإسلام بطريقة ما أو بأخرى، لأنّ هذه التعاليم منبثقة عن أراء وأفكار فلسفية تبنّتها فرقة الإسماعيلية جراء اتصالهم ببراهمة الهند، والفلاسفة والبوذيين، كما أنّ "بعضهم اعتنق مذهب زرادشت....[(*)]وليست عقائدهم مستمدة من الكتاب والسنة، فقد دخلتهم فلسفة وعقائد كثيرة أثّرت فيهم وجعلتهم خارجين عن الإسلام.[(5)]" لقد انتشرت فرقة الإسماعيلية في الجزيرة العربية، وبلاد الشام، وبلاد ما بين النهرين،

امتدت لتصل إلى شمال إفريقيا كما أن الفرقة تشعبت فانبثقت عنها فرق أخرى أشهرها الفاطمية، والبهرة كما قلنا.

3- ثقافته : لقد كان أبو حاتم الرّازي رفيع الشأن، عظيم القدر، واسع الحفظ، وباعتباره ناشئا في بيئة علمية بين علماء العربية أهل الحديث، فقد كان من أهل الفضل والأدب، وتشير المراجع الإسماعيلية إلى أنّه كان كثير الشغف بالعلوم باختلافها فكان له اهتمام "بعلم الحساب والعدد، مثله في ذلك مثل غيره من الإسماعيلية بعامة، مما يُرجع ذلك بلا شك إلى تأثرهم بالمدرسة الفيتاغورية في العدد، وارتباطه ببعض العقائد الدينية، ونضيف إلى ذلك إلمامه ببعض الآراء في الفلك والنجوم والتقويم"[(6)]، ويعتبر كتابه الزينة خير دليل على ذلك، لما يحويه من أفكار حول أصول الكلمات، ودلالاتها وحديث عن الشعر والبلاغة والنحو، والعروض، وقضايا الدلالة والحساب .

كما يبدو لنا من خلال كتابه « **الزينة في الكلمات العربية الإسلامية** » متضلعًا في شتى العلوم، وعلى اطلاع واسع بأسرارها ودقائقها، فيبدو فقيها متمكنا فعالج الكثير من المسائل الفقهية، كما اشتغل برواية الحديث، وكان عارفا بالشعر وروايته، فقد اعتمد في كتابه الزينة الكثير من الأشعار، لشعراء جاهليين ومخضرمين، قصد الاحتجاج بأشعارهم في شرح معاني بعض الكلمات التي وردت في كتابه. وفي سعة ثقافته يقول **الزركلي** في كتابه **الأعلام** :«إن أبا حاتم أحمد بن حمدان كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة وسمع الحديث كثيرا، وله تصانيف»[(7)]، شاهدة على ما قيل عنه من نبوغٍ واجتهاد .

ومن الطبيعي أن يكون الرازي قد أخذ معارفه وسعة ثقافته، من خلال احتكاكه بعلماء مسقط رأسه"الري" التي كانت على حد قول إبراهيم أنيس:

« معقل علماء الحديث وأساطين الكلام والفلسفة، وقد كان لأبي حاتم الرازي اتصال مع **أبي حاتم محمد بن إدريس ألحنظلي الرازي** (*)المتوفى سنة (275هـ) والذي يعتبر أحد أئمة الحديث... »[8]، كما كان على صلة وثيقة **بالمبرّد وثعلب،** احتكاكه لهذه الفئة يُظهر اهتمامه بأمور اللّغة العربية، والحديث الشريف . هذا وقد كان معاصرا **لأبي بكر محمد بن زكريا الرّازي** (**)الفيلسوف، « صاحب الآراء الفلسفية المعروفة التي خرج فيها على كثير من نظريات أرسطو الطبيعية والميتافيزيائية، منكرا التوفيق بين الفلسفة والدين، معتقدا بأن الفلسفة هي الطريق الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع. وقد دارت بينهما (أي بين الرّازيين) مناقشات عنيفة ومتعددة، وقد دوّن هذه المناقشات في كتابه أعلام النبوة»[9]، ولم يكن أبو حاتم يصرّح باسم أبي بكر الرازي بل كان يدعوه (المُلحد) لما كان بينهما من اختلافات في وجهات النظر.

4- دراسة كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية شكلا:

يعتبر كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية من الكتب اللغوية القديمة والشكل الخارجي للكتاب يدل على ذلك فغلافه على شكل مجلد أسود اللون وصفحاته من الورق القديم الأصفر. قام بتحقيقه حسين فيض الله الهمداني، وطُبع أول ما طُبع سنة 1956م- وهي الطبعة التي اعتمدتاها في دراستنا- وقد وقع الكتاب في جزأين جاء الجزء الأول في 152 صفحة، والجزء الثاني في 232 صفحة، ولو جمعناهما لأصبحا في 384 صفحة. هذا عن الشكل أو الوصف الخارجي لكتاب الزينة، ولكن ماذا عن مضمونه؟

5- مضمون كتـاب الزينـة :

عنـوان الكتـاب: حول اسم كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية يقول أبو حاتم الرازي وهو يشرح سبب إطلاقه هذه التسمية على كتابه قائلا: « وسميناه كتاب الزينة إذ كان من يعرف ذلك يتزين به في المحافل، ويكون منقبة له عند أهل المعرفة، ولعلّ أكثر الناس قد غفلوا عن الواجب عليهم في تعليمها، واللازم لهم من معرفتها»(10)، فالكتاب يحمل قيمة معرفية، فيكفي أن يكون الملمّ بالكتاب متزينا بما يحويه من معارف لغوية، ودينية، وفلسفية. فالمعارف اللغوية تتجلى من ذكر المؤلف معاني واشتقاقات وأصول الكلمات الواردة في مؤلفه، أما المعـارف الدينية فتتجلى فيما يحمله الكتـاب من معـاني أسماء الله الحسنى، ومعاني كلمات غيبية جاءت بها الشريعة الإسلامية كالقضاء، والقدر، واللوح، والكـرسي، والقلم... وغيرها، أما المعارف الفلسفية فتكمن في خوض المؤلف في قضايا متعلقة بالوجود، والعدم، والفرق الكلامية، وهو باب في الفلسفة الإسلامية.

وعنوان الكتاب يثير انتباه القارئ، حيث إننا نجد صاحبه قدّم فيه **الإسلامية** عن **العربية** ،فلا يقول الكلمات العربية الإسلامية، باعتبار أن الألفاظ العربية أسبق وجودا من الإسلامية، بحيث أنها كانت متداولة قبل مجيء الإسلام، والقرآن نفسه نزل بحروفها وخطها، وسبب هذا التقديم في رأينا يدل على التفضيل الذي مرده إلى تعلق الرازي بلغة القرآن والإشادة بكل ما جاء به، كما يمكن لنا أيضا أن نشير إلى قضية التقديم، والتأخير، التي نراها على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن المؤلف يقدم لنا ومن البداية وقبل فتح الكتاب فكرة عن مضمونه، تجعلنا نحصر فكرتنا عما في الكتاب، في تلك الألفاظ التي

أعطاها الإسلام دلالة، أخرجها بها عن معناها الذي كان لها عند العرب قبل مجيء الإسلام .

وقد تضمّن الكتاب تقديما للدكتور"**إبراهيم أنيس**"، أوْرد فيه ما يشير إلى أهمية الكتاب، والمتمثلة في كون المؤلف قد أسّس **لعلم معاني الأسماء العربية**، وبذلك تكون الأسبقية للعرب في مجال علم تطور دلالات الأسماء، والكلمات، مقارنة بالدراسات الدلالية عن الغرب، ويقول بهذا الصدد: «وتلك الدراسة التي هي أمنية الكثيرين منا، تعدّ بين اللغويين المحدثين في الجامعات الأوروبية دراسة حديثة نسبيا حين تقاس بالنواحي الأخرى من الدراسات اللغوية الأخرى، فهم يطلقون عليها (Semantics) ويعنون فيها بدلالة اللّفظ، ونشأتها، ونموها، ومجال استعمالها في اللغة...ثم يعرضون لتطور هذه الدلالة بتطور العصور والأجيال، وأسباب هذا التطور وعوامله في بحوث مستفيضة توشك أن تصبح علما مستقلا عن علوم اللغة»[11]، وأكد قوله هذا بكون ميشال بريال) (Michel Bréalأول من كتب حول تطور دلالات الألفاظ وقد كان هذا سنة (1897م)، حين كتب مقالا سماه "محاولة في علم الدلالة Essai de) " .(sémantiqueفبالمقارنة مع الجهود التي قام بها الرازي في مجال تغير دلالات الألفاظ في القرن الرابع الهجري، يمكن القول إن فضل الأسبقية كان للعرب.

تطرّق إبراهيم أنيس بعد ذلك إلى الحديث عن تطوّر علم الدلالة عند الغربيين، مبينا موضوعاته، وفروعه، لينتقل إلى الحديث عن أبي حاتم الرازي فذكر سيرته الذاتية والعلمية، وفي آخر التقديم حثّ على أهمية الدّراسة والبحث في تطور دلالات الألفاظ، لذا نجده يقول :«ولعلّ في نشر كتاب الزينة ما يحفز الهمم بين الدارسين في عصرنا الحاضر على أن يتوفروا على تلك الدراسة

الدلالية للألفاظ العربية، متخذين من ذلك الأسوة الحسنة» .[12]هذا عن أهم ما جاء في تقديم إبراهيم أنيس لكتاب الزينة .

وقد تضمن الجزء الأول من كتاب الزينة مقدمة لمحقّقه حسين فيض الله الهمداني، تطرّق فيها إلى الحديث عن الدراسات الدلالية عند العرب، وأسبقيتهم في وضع اللّبنة لمثل هذه الموضوعات، كما أشار إلى القضايا الدلالية التي بحث العرب فيها، كنشأة اللغة وعلاقتها بالفكر، وبعدها تطرق إلى الحديث عن حياة المؤلف-**أحمد بن حمدان الرازي** – والتعريف بكتابه الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، ومنهجيته في التأليف، وفي آخر مقدمته صوّر نسخا لمخطوطات كتاب الزينة .

منهجية المؤلف : لقد كان صاحب كتاب الزينة يهدف في جمعه الأسماء العربية والمصطلحات الإسلامية وتفسيراته، إلى تحقيق هدف لغوي صرف، و إلى تحقيق هدف إسلامي بأتم معنى الكلمة، ويحاول أن يكون بعيدا عن اختلافات أصحاب الملل، وبعيدا عن اختلاف الفقهاء في فروع المسائل الفقهية، وبعيدا عن اختلاف النحويين في دقائق النحو، وهو يسلك في ذلك المنهج المألوف عند العرب –أيامه– وهو منهج الاشتقاقيين، ليأتي بتفسيرات لغوية واشتقاق كلمات في أسلوب علمي سلس. إنها« مدرسة لغوية سادت في عصره -**مدرسة الاشتقاقيين** -الذين ربطوا بين الألفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا، وحاولوا إرجاع كثير من الألفاظ المشتركة في حروفها إلى معنى أصلي عام، منه اشتقت تلك الكلمات، فمعاصره ابن دريد المتوفى 321هـ صاحب معجم الجمهرة له كتاب صغير سماه (الاشتقاق)، حاول فيه أن يرجع كل الأعلام المشهورة في شبه الجزيرة إلى مواد لغوية اشتقت منها... فجعل اسم قبيلة قُضاعة مشتقا من انْقَضَعَ الرجل أي ابتعد عن أهله، وذلك لأنّ قبيلة قُضَاعَة رحلت من

جنوب الجزيرة إلى شمالها»[13]، هذا وتشير الكتب اللغوية إلى أنّ هذه المدرسة الاشتقاقية بلغت ذروتها على يد ابن فارس في أواخر القرن الرابع الهجري في معجمه **مقاييس اللّغة**.

ويسلك أبو حاتم نفس المسلك في علاجه للألفاظ، فكلمة إبليس الواردة في كتابه الزينة يقول في اشتقاقها: «وتقديره في الوزن: إفعيل وهو مشتق من أَبْلَسَ الرجل إذا انقطع، ولم تكن له حجة، ويقال هو من يئس»[14]، ومن خلال اطلاعنا على شرحه لدلالات الكلمات الواردة في كتابه بدا انتماؤه إلى المدرسة الاشتقاقية واضحا، وجليّا .

لقد حاول صاحب" **الزينة** "أن يفسّر معاني الكلمات التي تغيّرت مدلولاتها وتطورت في العصر الإسلامي عمّا كانت عليه في العصر الجاهلي، ولكن هذه المحاولة لم تكن مطّردة ومتواصلة، فهو يبدأ أحيانا بشرح الكلمة كما عرفها العرب قبل الإسلام، ثم يسير إلى أن يشرحها كما وردت في القرآن والحديث، ويورد فيها أراء اللغويين والنحويين، وأحيانا نراه لا يراعي هذا التسلسل الزمني، فيبدأ بمدلولها الإسلامي، ويستشهد على ذلك بالقرآن والحديث، قبل أن يحتجّ بالشعر واللّغة، وكثيرا ما يفسر الكلمات تفسيرا لغويا صرفا فيأتي باشتقاقاتها ومعانيها، فينصرف عن معنييها الجاهلي والإسلامي.

وعلى ذكر استشهاده بالشعر يمكن القول بأنه اعتمد شعراء جاهليين، وإسلاميين ومخضرمين، وهذا ما جعل الدارسين، لكتابه يعتبرونه مرجعا في التغير الدلالي، ومن الشعراء الذين أعتمدهم نذكر منهم امرؤ القيس - النابغة الذبياني، لبيد، الكميت، الطرماح، زهير بن أبي سلمى، الفرزدق، الأعشى، عدي بن زيد، ابن هرمة، جرير، المتلمس، كعب ابن مالك الأنصارى. وكثيرا ما كان يستشهد

بشعراء مجهولين فنجده يقول: قال شاعر، أو قال أخر، كما نجده يعود كثيرا إلى أراء الكسائي، والفراء .

والملاحظ أنّ موضوعات كتاب الزينة كانت منتشرة متفرقة في مؤلفات علماء العربية والمفسرين، ويدل على ذلك ما يكثر في الكتاب من ذكر مجازات العرب التي أوردها أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن، وتفسيرات أبي قتيبة الدينوري، ومن خلال اطلاعنا على كتاب هذا الأخير وأعني- ابن قتيبة- في تفسير غريب القرآن، نستخلص أنّ ثمة تشابها كبيرا بين الكتابين ،لذلك يمكن القول إنّ أبا حاتم وضع كتابه على هدى ما جاء في الجزء الأول من كتاب "**تفسير غريب القرآن**".

ولا نستبعد أن يكون كتاب "**تفسير غريب القرآن** "لدى صاحب **الزينة** نواة لمشروع كتابه، فابن قتيبة يفتتح كتابه بذكر أسماء الله الحسنى، وصفاته التي جاء ذكرها في التنزيل، ويتّبع ذلك بألفاظ كثر تردّدها في الكتاب، مثل الجن، والإنس، وإبليس والشيطان والنفس، والصور، واللعن، والشرك والكفر، والظلم، والفسق، والفجور، والنفاق، والصلاة، والزكاة، والشعائر، والحج، والقرآن، والسورة، والآية، والمثاني، والتوراة، والإنجيل، والكتاب وأساطير الأولين، وهي نفس الألفاظ التي أوردها أبو حاتم في كتابه الزينة، وضم إليها جميع تفسيرات ابن قتيبة.

لقد كان ابن قتيبة في كتابه "تفسير غريب القرآن"، يمرّ بهذه الكلمات مرور الكرام لأنّه كان يسعى إلى تفسير الغريب فكان عنوان تفسير غريب القرآن دالاً على مضمونه أما أبو حاتم الرازي فنجده يتوسّع في رقعة البحث في دلالات أسماء الله الحسنى والكلمات التي كثر ترددها في القرآن، مستشهدا على ذلك بما جاء في سنة رسول الله وبما جاء في الشريعة، وبما قالته العرب شعرًا.

تصنيف كتاب الزينة : لقد تعددت موضوعات كتاب الزينة كما قلنا، فتعذر على الدارسين أمر تصنيفه، هل يصنّف ضمن كتب غريب القرآن؟ أم يصنف ضمن كتب تفسير القرآن؟ أم يصنف ضمن كتب علم الدلالة؟

في الحقيقة إنّ كتاب "الزينة" يحوي بين دفتيه جلّ الموضوعات، المذكورة أعلاه لذا تساءل الدّارسون في أمر تصنيفه، وفيما يلي سنوضح تعدد الموضوعات التي جاءت فيه. إذا تصفحنا الجزء الأول من كتاب الزينة وجدناه كتابا في اللّغة، ففيه يتحدث المؤلف عن قضايا تتعلق باللّغة العربية مشيدا بها وبمكانتها، معترفا بأفضليتها على سائر اللغات الأخرى مشيرا إلى علومها من نحو، وعروض، وبلاغة، وشعر، مفنّدا أعلامها، كالخليل بن أحمد، وأبي الأسود الدؤلي، والكسائي، والفراء، وغيرهم من اللغويين .

إذن بالنظر إلى طبيعة هذه الموضوعات التي تطرّق إليها أبو حاتم الرازي، يمكن القول إنه كتاب كسائر كتب اللغة عند القدامى.

وإذا نظرنا إلى الكتاب من زاوية أخرى، أي بمقارنته مع كتب غريب القرآن، فإنه يمكن استنتاج أن موضوعات كتاب الزينة متشابهة مع موضوعات كتاب غريب القرآن لابن قتيبة فيكفي أن يكون الأول قد قام بشرح أسماء الله الحسنى وذكر اشتقاقاتها، والأمر نفسه قام به ابن قتيبة. كما أنّ كتب الغريب كانت قد اهتمت بشرح الكلمات الأعجمية الواردة في القرآن وهذا ما قام به الرازي، حين تعرض لشرح كلمات وردت في القرآن، لم تكن العرب تعرفها، وهي الكلمات نفسها التي عنيت بها كتب غريب القرآن وهذا ما أقرّ به ابراهيم أنيس حين قال: « وبذلك كان كتاب **الزينة** جامعا لمناهج أصحاب غريب القرآن وغريب الحديث وغريب اللغة ومن ثم كان نموذجا لأصحاب المعاجم المتخصصة» .(15)

و إذا أخذنا بعين الاعتبار، عودة كتب التفسير إليه (الزينة)، فإنه يمكن القول إنه كتاب في تفسير القرآن، فقد اعتمده البقاعي في كتابه نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور كما اعتمده السيوطي في شرح بعض الكلمات الواردة في آيات قرآنية، وللتذكير فقط فإن السيوطي كان قد عاد إليه في شرح الكلمات الأعجمية الواردة في القرآن الكريم، في شرح كلمة رِبّيُون، وكلمة سِجّين، وكلمة الصّراط، وهذا ما جعل الدارسين يعتمـدونه في شرح الكلمات الدخيلة، فيمكن عدّه من مصادر الكتب في معرفة المعرّب، والدخيل.

وهناك طائفة أخرى من الدارسين ذهبت إلى أبعد من ذلك كله، فاعتبروه معجما تاريخيا، مع العلم أن العرب لم تكن لهم أعمال جادة في هذا المجال، لأسباب عديدة، فبعضهم يقول: « لو أنّ الحضارة العربية لم يدركها ما أدرك الحضارات السابقة واللاحقة من تعثّر وعطب، لكان علماء اللغة العربية قد أنجزوا المعجم التاريخي منذ وقت مبكر ولكانوا قد اهتدوا بحسهم النقدي وبصيرتهم اللّغوية النافذة إلى العناية بكل ما تدعو الحاجة إليه، والدليل على ذلك هذا الكتاب الذي جعلته محورا ومدارا لبحثي...لما يقدمه من إرهاصات أولية عن بداية إدراك أهمية تأليف **معجم تاريخي لألفاظ اللغة العربية**، يقف جنبا إلى جنب مع القواميس، والمعاجم، والموسوعات التي اعتنت بجمع هذه الألفاظ واشتقاقاتها ومفرداتها" (16)و إذا أسلمنا القول بكون كتاب الزينة يمثل لبنة من لبنات المعجم التاريخي، فهذا بفضل انتهاج صاحبه طريقة في تأليف كتابه، تشبه إلى حدّ ما بعض خصائص المعجم التاريخي وهذا ما سنبيّنه من خلال تعرضنا لمفهوم المعجم التاريخي.

مفهوم المعجم التاريخي : لقد اهتم علماء العربية الأوائل بجمع الألفاظ العربية وترتيبها وتحديد معانيها، ونجحوا في حصرها وكان إمامهم

الأول في ذلك الجهد **الخليل بن أحمد الفراهيدي** ، وقد كان عمله بداية القواميس والمعاجم، فألّف معجم العين وتلاه بعد ذلك نفر كبير من المعجميين ساروا على نهجه في التأليف فألفوا معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني. ومما حاول اللغويون العرب القدامى، ولم يصلوا فيه إلى الغاية التي كانوا يتمنّونها، البحث عن تطور استخدام المفردات وهو ما نعرفه اليوم بالمعجم التّاريخي.

ويعرّفه المحدثون بقولهم:« المعجم التاريخي معجم يُعنى بكل لفظ استعمل أو يستعمل في العربية المكتوبة، وبيان نطقه، وتطور ذلك النطق، إن طرأ عليه ورسمه وتعدده وتغيره، وتصريفه وجوانبه التركيبية، ومعانيه، وتطوراتها، ومستويات استخدامه وأصوله، والتأريخ لكل الطوارئ والتغيرات التي أصابت اللّفظ أو المعنى، اعتمادا وتسجيلا بكل الشواهد (النصوص والاقتباسات) الدالة المساعدة، كل ذلك بأسلوب وصفي تسجيلي بحت" .[17]
لقد تفطّن اللغويون العرب إلى ضرورة انجاز معجم تاريخي، فقامت" **جمعية المعجمية التونسية** "بالدعوة إلى تضافر جهود العرب في سبيل انجازه، ففي سنة 1989م أقامت الجمعية ندوة خاصة كان عنوانها" **المعجم العربي التاريخي: قضاياه ووسائل انجازه،** "أكدّ فيها المشاركون على أنّ المعجم التاريخي العربي ضرورة لا غنى عنها في عصر الإعلاميات والتوثيق والمعلومات المتنوّعة فهو يعتبر أداة وظيفية متعدّدة المقاصد يستحيل الاستغناء عنها فهو ذاكرتنا اللغوية والثقافية والحضارية، فهو آلية من الآليات المُمَنْهجة التي تؤرخ لحضارتنا وثقافتنا، من خلال خطابنا اللغوي.

وقد أشار رئيس" المعجمية" إلى أنّ « نشأة جمعية المعجمية العربية بتونس التي أقرّت في أول ما أقرّت العناية **بالمعجم التاريخي العربي وانجازه**، حتى تؤدي تونس ما عليها من واجب في هذا الميدان وما ندوتنا هذه إلا خطوة من خطوات

نضالنا العلمي»، [18] وقد انطلق المشاركون في الندوة من الأعمال التي اعتبرت أفكار نواة في انجاز المعجم التاريخي مثل كتاب الزينة، ودائرة المعارف الإسلامية، ومعجم فيشر، فقد حاول المستشرق الألماني"أوجست فيشر" تجسيد فكرة المعجم التاريخي للغة العربية بصورة علمية ولكنها مع الأسف على أهميتها، لم تتعدّ تجربة فردية محدودة، وقد تصور أنّ :« المعجم التاريخي قد قام على أساس تدوين كل كلمة في العربية من عهد النقوش- أول نص مكتوب- حتى نهاية عصر الفصاحة والاحتجاج، مع بيان أصول الكلمات وتتبّع التطورات التي أصابت هذه الكلمات ومعانيها تاريخيا –زمنيا- كل ذلك مدعما بالنصوص والشواهد والاقتباسات من اللّغة المكتوبة من مصادرها المختلفة والاهتمامات بسياقات النص والاستعمالات والأساليب الاستخدامية المختلفة»[19]، وهذا ما قام به بالفعل أبو حاتم الرازي في كتابه الزينة، فقد بحث في أصول الكلمات مع تبيان معانيها مبرزا تغيّرات أصواتها ودلالاتها، انطلاقا من العصر الجاهلي مستشهدا بالنصوص الشعرية وصولا إلى العصر الإسلامي مستشهدا بالقرآن والحديث.

وقد أكد هذا الرأي" **عبد العزيز صالح المقالح** "في مقال نشره في مجلة مجمع اللّغة العربية يقول فيه: « والحقيقة أنّ فضل كتاب الزينة هو اتخاذ صاحبه نهجا غير مسبوق في قراءته لقائمة من المفردات، والنظر في مستوياتها المتداخلة والمختلفة للكشف عن الدلالات السابقة والراهنة لهذه المفردات، من خلال شروح وافية، وقريبة من الأنساق المعجمية الحديثة، واستدلاله بشواهد قرآنية وشعرية، وهو ما يمكن اعتباره بداية التفكير في إعداد المعجم التاريخي»[20]، وقد بيِن الباحثون في هذا المجال أنّ « أفضل المعايير في تحديد معاني الكلمات ومتابعة ما يطرأ عليها من تغيرات، التماسها في نصوص وشواهد

من كتابات الأدباء، ومن مؤلفين جديرين بالثقة، واستنباط معانيها في سياق استعمالاتها في هذه الشواهد، ورصد أي تغيير في دلالاتها بتتابع زمني على مر السنين، ومما يجب أن نؤكده أن نحرص على ألا يكون اختيار الشواهد تلقائيا، بل يجب أن يسعى إلى الشمول من حيث الزمان والمكان، ومن حيث الوفرة وتتابع التغيير في الدلالات»[21]، ومن خلال دراستنا لكتاب الزينة يمكن القول إن صاحبه التزم الطريقة نفسها في تأليفه للكتاب، فبين دلالات الكلمات الواردة في كتابه، انطلاقا من الشواهد الشعرية عند العرب في مرحلة الجاهلية، وصولا إلى المرحلة الإسلامية .

يمكن القول إن كتاب الزينة يعتبر بحق من الأعمال التي تشكل الأفكار النواة لانجاز معجم عربي تاريخي، إلاّ أنّ انجاز معجم تاريخي بمفهومه الدّقيق يتطلب إمكانيات مادية وبشرية ضخمة، لأنه عمل جماعي يلتقي فيه العالم في الصوتيات، وعالم النحو، والصرف، وعلم الدلالة، ويلتقي فيه العلماء في كل العلوم الإنسانية الأخرى من تاريخ إلى جغرافيا إلى علوم الاجتماع إلى علم النفس ويشترك فيه بالضرورة العلوم الدقيقة من فيزياء إلى كيمياء، إلى علم الفلك إلى طب ....ناهيك عن تسخير الأجهزة الالكترونية، والاستفادة من المعلوماتية. هذا عن الآراء التي تجعل كتاب الزينة من المحاولات الأولى لإنجاز المعجم التاريخي، وقلنا أراء لأن ثمة أراء أخرى ترى فيه تصنيفا آخر.

أما حلمي خليل فقد اعتبر كثرة وتعدّد الموضوعات التي تناولها أبو حاتم الرازي سببا لجعل كتاب **الزينة معجما عاما**، لذا نجده يقول: «ولعل كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي يعد من الأعمال الناجحة في هذا المجال، وهو **معجم عام** في المصطلحات، إذ يحتوي على مصطلحات بعضها ديني جاء في القرآن أو الأحاديث النبوية، والأخر مما يتردد

على ألسنة الفقهاء، وأصحاب المذاهب الكلامية والفلسفية، وغيرهم من العلماء، وكلها كلمات اكتسبت دلالات اصطلاحية تحتاج إلى تحديد وبيان" .[22]
ونحن نقول إنّ أبا حاتم الرازي حاول أن يتتبع التغيّر الدلالي الذي طرأ على هذه الكلمات بما لها من صلة بالتطور الذي حدث في حياة العرب والمسلمين، ومن ثم كان منهجه في الدراسة الدلالية أن يبدأ بتحديد أصل الكلمة، ثم يشرح ما تدل عليه في العربيـة، أو كما جاءت في القرآن والحديث، ثم يحدد المدلول الجديد، وهو ما أسماه بالمدلول الإسلامي، فظاهرة التغير الدلالي التي رصدها المؤلف من خلال كتابه ومنهجيته التي اتبعها جعلتنا نصنفه ضمن كتب علم الدلالة.

وخلاصة القول، أنه بعد دراستنا لـكتاب الزينة لأبي حاتم الرازي والوقوف على جزئياته، توصّلنا إلى أنّ الكتاب يعتبر أرضية معرفية، ينطلق منه الباحث في الدراسات اللغوية عموما. والدلالية خصوصا، وذلك لما يحمله من قيمة علمية أكّدها الكثير من اللغويين. فالرازي في كتابه لغوي ذكي، يسـتعين في فهمه للألفاظ بحروفها الأصليـة، ومادتها الاشتقاقية، لأنّه أراد من محاولته اللغوية في الزينة خدمة دينه نظرا لما بين العربية والإسلام من صلة وثيقة، وبذلك يُنصح الطالب المتخصص في اللغة بالاطلاع عليه لأن قيمة كتاب الزينة من قيمة كتاب الخصائص، وكتاب المزهر في علوم اللغة وغيرها من كتب اللغة.

الإحالات:

1- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف *قاموس عام لكل فن ومطلب من ابن* ماجة إلى أبو العيينا، دط. بيروت: 1962، المطبعة الكاثوليكية، المجلد الرابع، ص .243

2- محمد خير الدين الزركلي: **الأعلام** *قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من* العرب والمستعربين والمستشرقين ب ، ط3. دت: ج1، ص 116 .

3- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، المجلد الرابع،243.

4- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: *الملل والنحل*، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، ط1. لبنان:2000، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، ص 156-157.

5- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، ص157.

6- رياض العشيري: التصور اللغوي عند الإسماعيلية، دط. مصر:1985، منشأة المعارف، ص67.

7- محمد خير الدين الزركلي:" الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج1، ص 116.

8- أبو حاتم الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، **تاب** عارضه بأصوله وعلّق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، ط1 .القاهرة:1957. مطابع دار الكتاب العربي، ج2، ص29 (تقديم حسين الهمداني).

9- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، المجلد الرابع، ص 243.

10- أبو حاتم الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، ج1،ص58.

11- المصدر نفسه، ج1، ص54 (تقديم إبراهيم أنيس.)

-12- المصدر نفسه، ص13 .

13- المصدر نفسه، ج2، ص10 (تقديم إبراهيم أنيس).

14- المصدر نفسه، ج2، ص192.

15- المصدر نفسه، ج1، ص10.

16- عبد العزيز صالح المقالح: " كتاب الزينة إرهاصات أولية في العمل المعجمي العربي"، مجلة مجمع اللّغة العربية، (بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين القسم الثاني)، القاهرة:2003، العدد99. ص52 .

17- علي توفيق الحمد،" المعجم التاريخي العربي: "، مجلة المعجمية العربية، تونس:1989-1990، بيت الحكمة، العدد5-6، ص110-111.

18- رشاد الحمزاوي: " كلمة الافتتاح التي ألقاها بندوة المعجم العربي التاريخي"، مجلة المعجمية، تونس:1989-1990، بيت الحكمة، العدد5-6،ص 8.

19- علي توفيق الحمد،"*المعجم التاريخي العربي*"، ص102.

20- عبد العزيز صالح المقالح: " كتاب الزينة إرهاصات أولية في العمل المعجمي العربي"، ص52 .

21- عبد الكريم خليفة: "نحو المعجم التاريخي للغة العربية"، مجلة مجمع اللغة العربية، (بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين القسم الثاني)، القاهرة: 2003، العدد99، ص14.

22- حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، ط1

من المنهج الموضوعاتي، إلى منهج النّقد الأسطوري في الدّراسات المقارنة

د. سامية عليوي
ج. قالمة - الجزائر -

كان لتطوّر وسائل الإعلام - الذي شهده القرن الماضي - ، دورٌ في تطوّر النّقد الأدبي، انطلاقا من إسهامات علم النّفس مع " فرويد Freud "- المعاصر للأخويْن Lumière - ، حيث دخلت مفاهيمُه التّعابيرَ المشتركةَ لدى كلّ النّاس، واخترقت آفاقَ تصرّفاتهم وتأويلاتهم، فأصبحت الأساطير - تبعا لذلك - شيئا شائعا بالنّسبة إلى الجمهور شبه المثقّف الذي لعبت التّلفزة وكتب التّحليل النّفسي دورا في ثقافته .

هذا العصر الذي احتضن النّقيضيْن: الثّورةَ الصّناعية والانتصار التّكنولوجيّ، والعقلانيةَ الكلاسيكية - سليلة "أرسطو" التي بلغت أوجها مع "نيوتن" - من جهة؛ وأوهام الرّومانسية التي جسّدها كبارُ الشّعراء والموسيقيّين والرّسّامين من جهة أخرى، فجعلت منه مزيجا من تيّاريْن متعاديْن. وكان هذا المزيج من صنع فلاسفة علم الاجتماع في ذلك العصر*، حيث أصبح (الاجتماع) هو الملاذ غير المعترف به، والمتنكّر في (الفيزياء) أو (الفيزيولوجيا) ** الاجتماعية، للخيالي والأحلام الخيالية؛ وأصبح الوضعُ الوضعيُّ الأخيرُ والرّاهن، هو وضع الإنسانية السّعيدة الذي يسمح برقيِّ العلوم والتّقنيّات (1) . ومن ثمّ

أضحت الأسطورة من مشاغل عالِم الاجتماع، بصفتها حقيقة اجتماعية ثقافية ضمن مجموع الظّواهر الاجتماعية الكلّية - على حدّ تعبير دوركايم - .

لقد أرخى هذا العصر ظلاله التّكنولوجية حتّى حدود زمننا هذا، حيث خالط بُناةُ الأيديولوجيّات الأسطورية طهارةَ العقلانية *** .

ولقد بدّد التّاريخ استيهامات الأسطورة، على الرّغم من أنّ الأساطير لا تزال تتجلّى في أحضان حضارتنا التي تعتبر نفسها بعيدة عنها (الأساطير) ؛ لذلك وجب علينا البحث في الموتيفات التي نتج عنها انبثاق الأساطير في قرننا العشرين (2) .

ويرى "فرويد" ومنافسوه أنّ نسبة من تشخيص الأمراض النّفسية ترتكز على صور الأحلام المخزونة، وهذا ما دفع علماء التّحليل النّفسيِّ إلى إعادة تقييم مفاهيم الرّموز والصّور.

ولقد تأرجح النّقد الأدبي - تبعا لذلك - بين نقد يملؤه الاهتمام بالتّفسيرات الظاهرية التّاريخية للعمل الأدبي مع "هيبوليت تين H . Taine "، و "جوستاف لانسون G . Lanson "، نحو مقاربة أكثر خصوصية للعمل الأدبي، أُطلق عليها في الخمسينيات (النّقد الجديد La Nouvelle critique)، تعلّقت في بداياتها بموضوعاتية الأعمال الأدبية وموضوعها، وهذا ما وجّه الدّارسين للاهتمام أكثر بالصّورة، والرّمز، والأسطورة (3) .

فقد شهدت نهاية القرن الثّامن عشر - بعد فشل الثّورة الفرنسية - وحتّى منتصف القرن التّاسع عشر (وريث عصر التّنوير) - ، وعند كلّ الكتّاب من " ماستر Maistre "، إلى " ماركس Marx "- ، عودة إلى أسطورة "برومثيوس" الثّائر، المحسن إلى البشر، الذي سرق النّار الإلهية وعوقب بطريقة غير عادلة. وكانت هذه الموضوعات (Les Mythèmes) هي التي شكّلت الصّورة الكبيرة

التي تعزّز السّيرة الأسطورية لِـ "نابليون" - كما درسها "جون تولار Jean Tulard " - (4) .

ولقد أُطلق - في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين - اسمُ مقارنٍ على العالِمِ المتخصّص في الدّراسة المقارنة للأديان والأساطير (5) ، لأنّ عمله كان قبل ذلك مقصورا على البحث التّاريخي عن دور المترجمين في تسلسل الأفكار؛ وبتحفُّظٍ كبير سُمح للمقارِن بدراسة (الموضوعات)، وتداولها، وتحوّلها، شريطة إبعاد كلّ قيمة أو كلّ نظريّة أدبية، أو كلّ مشروع جمالي (6).

و إذا كان المقارِن يشعر أنّه في بيته عندما يخوض ميدان علم الموضوعات، فإنّه يشعر الشّعور ذاتَه عندما يخوض بين الأساطير؛ فما هو الموضوع ؟ والأسطورة ؟ ، ومـا علاقة الأدب المقارن بهما؟

أوّلا — الموضوع :

صار يحقّ للأدب المقارن بدءًا من عام 1939 م ، أن يفتخر بمـا حقّق من نتائج جدّ إيجابيّة تتمثّل في : تاريخ التّبادل الأدبي العالمي، ولا سيّما البحث في المنابع والمؤثّرات، الخاصّة أو العامّة، ودراسة الموضوعات والحوافز، وتاريخ الأدب الغربي العام، في عصوره الكبرى، وأجناسه الأدبية (7).

غير أنّ الموضوع ليس خاصّية المقارن الفكرية، إنّ له أصوله الخاصّة في الدّراسات الفلكلورية التي تستخدم أيضا مفهوم الحافز* ، وقد شغل تفكير الشّكلانيّين الرّوس الشّعريَّ بقوّة، وهو واحد من القواعد التّصوّرية والمنهجية لعدّة مقاربات نقدية ** ، إنّه لا يعني الأدب وحده، ولكن الموسيقى أيضا .

ويتداخل مصطلح الحافز Motif مع مصطلح الموضوع Thème ،إلى درجة أنّ ما يعتبره بعضهم حافزا يعتبره الآخرون موضوعا، والعكس صحيح، فـ

"ريمون تروسون" مثلا، يُعرّف الحافز بأنّه « مفهوم واسع يعيّن وضعية أو موقفا غير شخصي، ويكون ممثّلوه غير مشخّصين، مثل وضعيات الرّجل بين امرأتين، أو الصّراع بين الإخوة الأعداء، أو الصّراع بين الأب والابن (...)، أمّا الموضوع فهو الصّيغة المميّزة للحافز وخصوصيّته، أو إن جاز القول هو الانتقال من العام إلى الخاص، فنقول إنّ حافز الإغواء يتجسّد في شخصية (دون جوان)، وحافز الخلق الفنّي في موضوع (بيجماليون)، وبالتّالي فإنّ حافزا ما يصبح موضوعا عندما يتجسّد في شخصيّة واضحة المعالم » (8) .

لذلك يظلّ الحافز - حسب تروسون - فكرة مجرّدة أو تصوّرا ذهنيّا أو وضعيّة أو موقفا غير مجسّد، في حين يتجسّد الموضوع في شخصيّة معيّنة بمعالم واضحة كتمثّل حافز الغيرة في (زوجة عزيز مصر في موضوع يوسف عليه السّلام) ، وحافز الجمال في (فينوس أو أفروديته وعشتار) ، وحافز التّحدّي في (برومثيوس) إلخ ...

واقترح "سيمون جون S . Jeune " أن نتحدّث عن نماذج أو أنواع مختلفة : خرافية أو أسطورية (برومثيوس ، وأورفيوس ..)، أو توراتية (موسى)... ، والموضوعات (التي ترجع إلى تاريخ الموضوعات : الستوفغيشيشت Stoffgeschichte الألمانية)، التي تعني مادّة أكثر تحديدا كالمحيط، والجبل، والمشاعر (كالكراهية والحبّ) ، أو الأفكار (التقدّم والعدالة) ..(9)

وقد فصل بذلك بين النّماذج: أسطوريةً وخرافية، وبين الموضوعات، فمنح النّموذج مفهوما أوسع من المفهوم الذي منحه إيّاه "تروسون" ، وجعله يتجسّد في شخصيّات واضحة المعالم، في حين جعل الموضوع مادّة أكثر تحديدا، وبالتّالي لا يمكن للحافز - عند سيمون جون - أن يتحوّل إلى موضوع، إذ لا يمكن لبرومثيوس أن يتجسّد في مشاعر معيّنة، بل العكس، فشعور الثّورة هو

الذي يمكن أن يتجسّد في شخصيّة بروميثيوس الثّائرة، وبالتّالي فالموضوع - حسبه - هو الذي يمكن أن يتحوّل إلى نموذج. فقد جعل "سيمون جون" - بذلك - مااعتبره "تروسون" حافزا، موضوعا، وما اعتبره موضوعا، حافزا .

وقد لاحظ "كايزر W . Kayser" أنّ الموضوع يرتبط عادة بعدّة صور، فهو معيّن في الحدث والفضاء والزّمن؛ في حين يبقى الحافز غير محدّد، ولا يُعتبر أمرا منتهيا (...) ، كما أنّ مادّة الموضوع يمكن أن تُخفى، ولا مناص من أن تُخفيَ في أعماقها حوافز عديدة . (10)

ويرى آخرون أنّه ليس هناك عنصر حسّي لا يمكنه أن يكون موضوعا. ويمكن أن يتعلّق الأمر: بشكل، بشيء، بإحساس، بفعل من الحياة اليومية (لنقل بالتّرتيب: المرأة، النّظارات، الرّغبة، الحياة)، كما هو الشّأن بالنّسبة إلى أكثر الشّخصيّات الأسطورية والخرافية، أو التّاريخية (أوديب، فاوست، ريشار III ، نابليون) (11)

في حين هناك من استعمل المصطلحيْن - الموضوع والحافز - في بعض الأحيان، وكأنّهما مترادفان متساويا المعاني، ولم تنجُ من هذا الخلط الفهارس والموسوعات المتخصّصة، ففي ببليوغرافيا "بيتز Betz"، وفي فصل حول الموتيفات والموضوعات والنّماذج الأدبية، يجمع بين دراسة حول اليهودي، ودراسة أخرى حول التّقاليد والحكايات في بلجيكا (12).

ينما فصل بعضهم بين المصطلحين، حيث نظر الشّعريون - مثلا - إلى الموضوع على أنّه عنصر بنائي في النّص،وذلك عكس الحافز الذي يُعتبر عنصرا مكمّلا متغيّرا، كما أنّ الموضوع يبدو نوعا ما إشارة إلى الحافز (13) .

وهناك من يعدّ الموضوع نموذجا منتجا للنّص: نموذجا واصفا، ساردا حسب الحالة - (ما نسمّيه بالسّيناريو) ، فهو دائما وضع استطرادي، معطى مع

إمكانيات سردية متفاوتة؛ في حين يظهر الحافز حين يبقى التّفسير معلّقا، وحين يصبح الانتباه مركّزا على الخطوط التي تشكّله كدال أو صورة صرفة: قوية ومبسّطة في الوقت نفسه، تفرز الحافز من النّص، مع ترسيخه كرسم على السّجّاد مهتمّا ببعض الخطوط، ومهملا بعضها الآخر . (14)

فيكون الموضوع في هذه الحالة، بمعنى مجموع مرّات ظهور الشّخصية الأسطورية في زمن ومكان أدبي محدّد، ويغدو عنصرا دالاّ يتكرّر عبر نصّ أو مجموعة نصوص .

وبما أنّ الموضوع يتكرّر، فإنّه يتغيّر، وهكذا يظهر كسلسلة من التّغيّرات، أو بتعبير رياضي: الموضوع (متغيّرة) .. أو (وضع) .. أو (موضع) في النّص، يمكن أن تحتلّه مجموعة من القيم الملموسة: هي متغيّراته (15)

ومع ذلك، فهناك نقد وُجّه إلى هذا التّفريق، حيث يرى أصحاب هذه النّظرة أنّ تتبّع تطوّر شخصية واحدة أو وضع ما في الآداب، يقودنا إلى عزل هذه الشّخصية أو هذا الوضع عن أخرى موازية لها في جميع نقاطها، وتعكس فكرة واحدة.

ومن بين من دافعوا عن هذه الوضعية - مثلا - "بول فان تيغم Paul Van Tieghem " بقوله « إن كان (برومثيوس) "شيللي" يمثّل ثـورة العقل البشري على ديانة تضطهده، فإنّه مثله مثل (شيطان) " كاردوكسي Carducci"، و (كاين) " لوكونت دو ليسل Leconte DE Lisle "، يمثّلون في الأصل رمزا واحدا بأسماء ثلاثةٍ، وهذا دليل على أنّ علم الموضوعات تربطه صلة قويّة بالأفكار، أكثر من هوية الموضوع الخارجية» (16) .

كما أنّ مجموع النّصوص التي يعبرها الموضوع يمكن أن تختلف من نصّ واحد (قصيدة، رواية ..)، إلى مجموع الأدب العالمي (إذا وُجد هناك من يقبله) ،

مرورا بعمل كاتب واحد، أو جنس أدبي واحد، أو بأدب عصر من العصور، أو بأدب حركة، أو بأدب دولة، أو قارة أو عدّة تداخلات لهذه الميادين (المسرح الكلاسيكي الفرنسي، الرّواية الرّوسية، إلخ ..)

فيصبح الموضوع بذلك، هو الخيط القائد، السّرمدي عبر الزّمن، الذي يتكفّل عبر القرون بكلّ الذّخيرة الفنّية الفلسفية التي كدّسها الإنسان المغامر في طريقه اللاّ محدود؛ ولهذا يحتفظ ويعيد عبر تحوّلاته اللاّ معدودة عدّة ثوابت، وعدّة اهتمامات أساسية، وبكلمة واحدة شيئا مهمّا من الطّبيعة الإنسانية . (17)

ونستنتج من كلّ ذلك، أنّ النّماذج هي تصرّفات الإنسان، ومشاعره وأحلامه، ورغباته .. إلخ، التي تجسّدت عبر مراحل تاريخه كلّها في شخصيّات، وأسماء ظلّ يعيد تشكيلها جيلا بعد جيل، محاولا استحضارها عبر الزّمن من خلال ما تميّزت به، وما عُرفت من خلاله، واشتهرت، أو التصق بشخصيّات معيّنة كانت تلك النّماذج أجزاء بانية فيها، لذلك ظلّ الأدب يعيد استحضار عدد من الشّخصيّات، أسطوريّةً أ؟ تاريخيّة، من خلال عدد من النّماذج الدّالة عليها .

من الموضوعاتية إلى علم الموضوعات :

ترتبط دراسة الموضوعات تاريخيا ببدايات الأدب المقارن، أي بعد تشكّل المساحات النّصّية الكبرى النّاتجة عن التّقارب غير المطبوع، ذلك أنّ بعض المقارنين يرون بأنّ المقارنة البسيطة تشكّل - في كلّ الحالات - النّخاع الشّوكي لعلم الموضوعات .

وقد تكشّف علم الموضوعات عن نُظُمٍ ضرورية وفتيّة، قريبةٍ من تاريخ الأفكار، كما أنّها ابنة للتّاريخ الأدبي، ستبدو كذلك تمرينا صعبا بعيدا عن

المعرفة الضّبابية المهجورة بعده عن نتاج المبتدئين، مهمّةٍ عادةً وملتهبة، وعاقّةٍ في بعض الأحيان، ولكنّها عادة مثيرة وجديدة، معلنة عن الحياة، خفيّة وقويّة للنّماذج العليا التي جعلنا منها أمجادنا المزدوجة، قرنا بعد قرن (18)

ولن يستطيع علم الموضوعات في هذه الحالة، الإجابة عن الرّغبة التي صاغها "إتيامبل Etiemble " في وجه الأدب المقارن : حيث لا يكتفي هذا الأخير بدراسة « العلاقات بين الآداب المقارنة للعصر الحديث والمعاصر، ولكن في جملته، تاريخ هذه العلاقات التي يمكن أن ترجع إلى الماضي البعيد جدّا. إنّه استدعاء تتداخل فيه بمهارةٍ المقارنةُ الأفقية بالمقارنة العمودية ». (19) وهكذا ستبدو دراسة أيّ موضوع كأنّها فسيفساء معقّدة، حيث يكون لكلّ حجر مكانه ومدلوله .

وقد استغلّ الألمان هذا المجال بحماسة في بداية القرن العشرين مع مجلّة "ماكس كوخ Max Koch "، مبرزين من خلالها ارتباط تاريخ الموضوعات Stoffgeschichte بدراسة الموضوعات .

فبين الشّيء والوعي بالشّيء ستتكوّن إذن منطقة وسطى، تكون الحقل الحقيقيَّ لتاريخ الموضوعات أو (خطابا منشورا) - حسب "ج . جينو G . Genot " - ، يتضمّن بنسبٍ متفاوتة السّلوكات المميّزة لقيم حضارة ما، وتعبيراتها، أو صورها المتغيّرة، وأحكامها المستخلصة التي تتعلّق بسلوكاتها أو صورها، وهكذا يكون المرجع الحقيقي للعمل، وليس المرجع الواقعي، ولكن مجموع "الموضوعات" أو المقامات المشتركة التي تنتقل من كاتب إلى آخر، ومن عصر إلى آخر .

ذلك أنّه لا يمكن عزل الموضوع - حتّى و إن قمنا بعزل عمل أدبي عن غيره - ، لأنّه يتداخل مع مواضيع أخرى، وسيكون من الأصحّ الحديث عن (مركّب موضوعاتي) ، ومن هنا جاءت تسمية الشّبكة الموضوعاتية التي اقترحها "شارل مورون Charle Mauron "، أو سلاسل الحوافز التي بلورها "جان بيير غيستو Jean Pierre Guisto " في دراسته لأعمال "رامبو" . كما يمكننا أن نجد الموضوع موظّفا بطرق مختلفة في عمل أدبي واحد: فسحنة "جوبيان" المتورّدة لا تسمح بدمجه ضمن مجموعة (الفتيات المتورّدات) (20) .

وقد يحدث أن يتداخل علم الموضوعات - الذي اقترحه "فان تيغم" عا؟ 1931 ؟ معادلا لتاريخ الموضوعات - في النّقد الحديث مع الموضوعاتية، حيث يصبح الموضوع (شبكة منظّمة لفكرة متسلّطة) - حسب "رولان بارث Roland Barthes " - ، أو (حدثا أو وضعية طفولية) - حسب "ج . ب . ويبر J . P . Weber "- أو (كوكبة من الكلمات والأفكار والتّصوّرات) - حسب "ج. ب. ريشار J .P.Richard"- .

وأما؟ هذه التّعريفات المتعدّدة، يحقّ لنا أن نتساءل عمّا إذا كان مجدّدو دراسات الموضوعات يتحدّثون حقّا عن الحقيقة نفسها (21).

فلقد عُدّ علم الموضوعات من أخصب ميادين الدّرس المقارن التي عرفت جدلا واسعا، دفع ببعض الدّارسين إلى صرف المقارنين عنه، ذلك أنّهم يرون أنّ علم الموضوعات يهتمّ بمادّة الأدب لا بالأدب نفسه .

وقد أسقط " فراي N . Frye " النّقد الموضوعاتي من بين أصناف النّقد الأربعة * التي حدّدها، لأنّه يعتبر الموضوعاتية ميدانا خاصّا بالأدب: حيث يطبّق هذا المنهج الوصفيُّ - حسبه - على آثار أدبية، من الصّعب القول إنّه يمكن

الفصل بين صاحبها (الآثار الأدبية) و جمهوره. فالكاتب يفكّر في المتلقّي قبل أيّ شيء آخر .

لكنّ "فراي" يرى - في حديثه عن الأصناف الموضوعاتية، مناقضا نفسه-، أنّ كلّ عمل أدبي يحمل في طيّاته مظهرا موضوعاتيا وآخر خرافيا، وتبقى معرفة أيّهما له الأهمّية الأكبر عادةً، مجرّد مسألة رأي أو تحليل بسيطة (22).

لذلك وجب انتظار مدافعين أشدّاء كـ " ريمون تروسون Raymond Trousson"، و"هاري لوفين Harry Levin " لردّ الاعتبار إلى هذا الميدان الذي يرى "تروسون" أنّه (علم الموضوعات) يمكن أن يصبح علما مستقلاّ عن الأدب المقارن، وأنّه سيُعرف ليس كنظا� ثانوي أو ملحق، وليس كتسلية ذهنية، ولكن كجنس في ذاته، يُسجّل بداهة في رموز الأدب المقارن، ويمكن أن يُنتظر منه المطالبة بالاستقلالية (23).

ولقد كان الفيلسوف "ديلتي Dilthey " (1833 � - 1911 �) الذي يدين له الأدب بمبادرات كثيرة، يرى أنّ دراسة الحوافز أكثر المناهج فائدة بالنّسبة لتاريخ الأدب المقارن. وقد تمّ التّوصّل عن طريق ذلك إلى نتائج مهمّة تتّصل بشخصية الشّاعر؛ فقد اتّضح أنّ هناك حوافز معيّنة تتكرّر في أعمال بعض الشّعراء باستمرار، وتوصّل الباحثون إلى أنّه لا يمكن الوصول إلى معرفة شخصية كاتب ما إلاّ من خلال مؤلّفاته (24).

غير أنّ دراسة الموضوعات والأساطير لم تأخذ حظّها من الدّراسات الأدبية إلاّ ابتداء من سنة 1930 � تحت تأثير كتب التّحليل النّفسي، وعلماء الأسطوريات - بعد ذلك - مثل "مرسيا إلياد " .

إذ إنّ الموضوعاتية، وبعد أن عرفت ساعة مجدها، وغذّت صراع (النّقد الجديد) ما بين 1964 - 1967 ، فقدت مكانها في الدّراسات الأدبية، وكان ذلك ما نادى به "رولان بارث" منذ 1954 ، حيث ضمّ المنهج الموضوعاتي إلى كلّ المناهج التي تعتمد التّأويل أو التّفسير، وقسّم النّقد الفرنسي إلى نمطيْن متوازييْن: نقد جامعي « يطبّق أساسا منهجا وضعيا موروثا عن "لانسون"، ونقد تأويلي يختلف ممثّلوه اختلافا شديدا بعضهم عن بعض، ما دا الأمر يتعلّق بنقّاد من مثل :"جان بول سارتر"، و"غاستون باشلار"، و"لوسيان غولدمان"، و"جورج بولي"، و "جان بول ويبر"، و"رينيه جرار"، و"جان بيير ريشار"، وهم يشتركون في أنّ مقاربتهم للنّتاج الأدبي يمكن أن تتّصل قليلا أو كثيرا، ولكن بطريقة واعية في الغالب، بإحدى الأيديولوجيات الكبرى المعاصرة: الوجودية، الماركسية، التّحليل النّفسي، الظّاهراتية، وهذا ما يجعلنا قادرين على تسمية هذا النّقد بأنّه (أيديولوجي) » (25). وبذلك، يقرّب "بارث" كثيرا بين المناهج التي بدت لجميع النّقّاد متباينة، بحكم اهتما كلٍّ منها بزاوية معيّنة من العمل الأدبي؛ إذ إنّ كلّ هذه المناهج تنتصر للخيال الإنساني ضدّ المدّ التّقني العلمي بعقلانيّته الصّارمة، وهذا النّقد الإنساني هو ما يجمع بين النّقّاد (الجُدُد) من الظّاهراتيّين أوالفينومينولوجيّين، والوجوديّين، وغيرهم من الدّاعين إلى نقد إنسانيٍّ يهتمّ بتناول النّصوص، مستشعرا كونه تجربة ذاتية أو معاشة، بين الذّات من جهة، وما تصوّره النّصوص الأدبيّة عبر اللّغة التي تتحوّل بدورها إلى وجود شفّاف من جهة أخرى.

فالعمل الأدبي عالم خياليٌّ خارجٌ من العالَم المعاش، عالم يجسّد وعيَ الكاتب في تشكيل فريد من نوعه، قوامه اللّغة، التي تتّسم بالمجازيّة

والاستعارة والغموض والتّجسّد والحيويّة والحياة، الذي تحاربه لغة العلم، لتُعليَ من شأن الوضوح والمعاني المعجميّة ولغة المعادلات الرّياضيّة .

وقد جعل "بارث" جملة من النّقاد الذين اعتُبروا وحدهم نقّادا موضوعاتيّين إلى جانب نقّاد علم النّفس، وعلم الاجتماع، لأنّهم - حسبه - يستندون إلى الأيديولوجيا . وبذلك جعل "بارث" النّقّاد الموضوعاتيّين يحتكمون أيضا إلى الرّ ية الأيديولوجية، وأغفل بذلك الفروق التي نبّه هو نفسه إلى وجودها، ليهتمّ فقط بما هو مشترك .

وقد عاب عليه "جان بيير ريشار Jean Pierre Richard" في كتابه « قراءات دقيقة » 1978 ، أنّه اتّجه نحو التّحليل النّفسي، واستعان بالجناس التّصحيفي، ومع ذلك مازالت الموضوعاتية موجودة . (26)

وقد ذهب مذهب "بارث" قبلا "هيدجر Hidger "، و "جون بول سارتر J . P . Sartre "، في تأكيدهما على أهمّية الوعي وراديكاليته، حيث يستطيع النّاقد الموضوعاتي - الذي كان مرتبطا بالعمل الأدبي - أن « يتحرّر من النّص أي من التّجربة الإبداعية ليجول في عالم خارج النّص. ويسعى النّاقد هنا بقوّة حدسه أو بأيديولوجيّته الخاصّة » (27) .

كما لاحظ "روجي فايول R . Fayolle " ارتباط المنهج الموضوعاتي بممارسات علم النّفس والتّحليل النّفسي، إلى جانب الفلسفة الوجودية، واعتبر "باشلار" من روّاد هذا المنهج، ويعتقد أنّ علم الأفكار يزوّد النّاقد الموضوعاتي بمادّة خصبة في التّحليل، كما أنّ الموضوعات (Les Thèmes) تكون مقصودة في كلّ تحليل يسير في هذا الاتّجاه، بحيث يكون شغل النّاقد هو تتبّع أفكار محدّدة خلال نتاج مبدع ما . (28)

كما نفى آخرون ارتباط العمل الأدبي بالأيديولوجيا *، كونه حواريا أكثر منه مونولوجا .

وقد عِيب على المقاربة الموضوعاتية تفضيلها (الموضوعات) على حساب (السّلوكات) ، وفصل المضمون عن الشّكل، والمدلول عن الدّال، لأنّ الشّكل انبثاق للأعماق - كما يقول "جون رو Jean Rousset " - (29).

كما اعتبرها آخرون مقاربة تعتمد على الشّرح، وسمّوها نقدا سرديا «ينتقل من تيمة إلى تيمة، ويقف عند نقطة تبدو تقريبا اعتباطية، أمّا التّيمات فهي أيضا تقترب من أن تكون مجرّدة، إنّها تشكّل سلسلة لا متناهية، ويختار النّاقد بالصّدفة تقريبا - مثله في ذلك مثل السّارد - بداية حكيه (..)، وإذا ما انتقلنا إلى مستوى أكثر عمومية، وهو بهذا المعنى أمر مستحيل، فإنّ النّظرية لا يُسمح لها أبدا أن تُقيم في مثل هذا النّقد »(30) ؛ وذلك عندما لاحظ "تودوروف" طغيان الطّابع السّردي على النّقد الموضوعاتي في أغلب الممارسات التي قا باستثمارها، وتجلّت في نظره عند "باشلار" - خاصّة - من بين النّقاد الموضوعاتيّين .

ونستخلص من كلّ ذلك، أنّ الإبداع لدى النّقاد الموضوعاتيّين يمثّل وعي المبدع، لذلك لجأوا أحيانا إلى التّحليل النّفسي، أو إلى أحلا اليقظة البدائية العميقة المترسّبة في الذّات المبدعة، استنادا إلى آراء "يونج" *، الذي يرى أنّ الفنّان والمريض عصبيا يعيدان بتفصيلٍ الأساطيرَ المستمدّة من التّجارب الشّعائرية عند الإنسان البدائي أحيانا عن وعي، وأحيانا من خلال عملية (حُلمية)، دون أن يعني ذلك أنّ الشّاعر أو الفنّان مريض بالأعصاب (31) ، بل إنّه - حسب يونج - الحاضنَ المشكّل للنّفس الإنسانية الحيوية لا شعوريا .

ولا ينفي النّقاد الموضوعاتيون * انفتاح ممارستهم النّقدية على كلّ المناهج، واستفادتهم من علم النّفس، ومن البنيوية، إلى جانب التّحليل النّفسي والشّكلية؛ حيث يرى "جان بيير ريشار" ضرورة حصر العلاقة في «التّأثيرات التي تمارسها الكتابة على نفسية القارلا، وليس فقط على شرح شخصيّته من خلال العلاقة بين علم النّفس والنّقد الأدبي » (32) ، كما يرى ضرورة استخدا النّاقد الموضوعاتي لطاقة الحدس؛ إذ إنّ النّقد الموضوعاتي - عنده - تجوال في النّص، وليس إلقاء نظرة أو صياغة موقف .

ولا يقف النّقد الموضوعاتي في استيعابه لشتّى التّأثيرات الواردة من مناهج أخرى، عند هذه الحدود، بل يستوعب مناهج، أخرى كالنّقد الأسطوري والدّيني. وقد فسّر "جان بيير ريشار" « لجوء بعض النّقّاد الموضوعاتيّين مثل "جان ستاروبنسكي" إلى نزعة صوفية مغرقة في تحليله النّقدي، بـ عورة متعلّقة بطبيعة الموضوع المدروس »(33) .

وقد اعتمد الباحث العربي "فؤاد أبو منصور" - في دراسته لهذا الاتّجاه الموضوعاتي - على مثل هذه الأقوال، فأفرد قسما خاصّا عن النّقد الأسطوري والدّيني الذي مارسه "بيير برونال P . Brunel "، مستفيدا من "بول كلوديل P . Claudel " (34) .

و إذا كان النّقد الموضوعاتي قد خرج من معطف الأدب المقارن، فبعلاقة متعدّية، يمكننا اعتبار النّقد الأسطوري - أحد المناهج التي يستوعبها النّقد الموضوعاتي - ، قد خرج من معطف الأدب المقارن، حتّى و إن كان بعضهم لا يزال يخلط بين المنهجيْن - الموضوعاتي والأسطوري - و إن كان النّقد الأسطوري لا يزال عبارة عن خطوات إجرائية لم ترقَ بعد إلى أن تكوّن منهجا.

وما يقرّب بين المنهجين (الموضوعاتي والأسطوري) هو أنّ كليهما قد استفاد من نقد الأفكار - الذي يستفيد بالم ّ عورة من تاريخ الأفكار، ويقترب بدوره كثيرا من الموضوعاتية، ويعمل على تتبّع تيمات معيّنة ورصد التّطوّرات الحاصلة فيها - ، فهو « يرصد ويصنّف كلّ ماينتمي إلى عالم الأساطير، من أسماء وعبارات وحركات كان لها وجودها الفاعل في زمنها، ورمزيّتها المتوارثة فيما تلا عصر الأساطير من عصور » (35) .

لذلك، ولإزالة اللّبس، علينا أن نقف عند النّقد الأسطوري، وأن نفرد له صفحات من هذا المقال، للحديث عن أسسه الفلسفية وبداياته، وعلاقته بالمناهج الأخرى، وخطواته الإجرائية .. إلخ.

ثانيا - النّقد الأسطوري :

شكّلت الأسطورة ظاهرة في الأدب العالمي الحديث في ظلّ الثّورات العلمية والتّكنولوجية والأدبية التي عرفها القرن الماضي، واقتحا ما أسماه "ليفي ستروس" (الفكر البدائي) تفكير الإنسان المتح ّ ع *، حيث أدرك الإنسان وخاصّة (البدائي) ! أنّه فكّر دائما بطريقة جيّدة .

ويكمن الفرق بين الموضوع والأسطورة في كون الموضوع مادّة اهتما الإنسان أو انشغاله عموما؛ أمّا الفكرة فهي اتخاذ موقف فكري بالنّسبة إلى الموضوع، في حين يكون الشّعور موقفا عاطفيا. ويكون الموضوع في درجة الصّفر أو - إذا شئنا - في مرحلته المحايدة موقعا مشتركا. ونعني بالأسطورة كمّا سرديا أقرّه العُرف، وعبّر في بدايته - على الأقلّ - عن ظهور المقدّس أو الخارق في العالم. ويمكن للأسطورة في مرحلة من مراحل تطوّرها أن تُشحن بمعنى مجرّد:

مثل "بروميثيوس" الذي أضحى رمزا للثّورة، و"سيزيف" الذي أصبح رمزا للعبث. فتتحوّل الأسطورة هكذا إلى فريسة للموضوع وتنحو نحو الالتباس به (36).

وقد بدأ الاهتما� بالأسطورة في فترة مبكّرة (لنقل القرن الثّامن عشر في أوروبا وخلال القرن التّاسع عشر) ، حيث لم تكن القصص الأسطورية تنفصل عن القصص الأخرى التّاريخية أو الوصفية أو الأخلاقية، وغيرها، ولم تُطرح المسألة إلاّ حين تمّ فصل (الأجناس الأدبية) ، وخاصّة حين أدرجت الرّوايةُ و الرّومانسية منها - على الخصوص- خطابها ضمن الخطابات السّياسية والدّينية والعلمية إلخ (37)

وقد عرف النّقد تبعا لذلك ثورات مماثلة بدءا بمدرسة النّقد الجديد وصولا إلى النّقد الأسطوري (ythocritique) الذي يهدف إلى مقاربة النّصوص الإبداعية التي تحمل الأساطير بين طيّاتها. فمتى ظهر هذا المنهج ؟ وأين ؟ وكيف؟ وعلى يد من ؟ وكيف تبلور ؟ ومن هم أشهر روّاده ؟

الأسس والبدايات :

من أبرز دعاة المنهج الأسطوري النّاقد الكندي "نورثروب فراي N . Frye " الذي يُعـدّ كتابه « تشريح النّقد Anatomie de la critique » (1957 �) من أكثر المحاولات الطّموحة جرأة، لإنشاء تصنيف جديد للأدب يرتكز على مبادلا أسطورية، حيث يعالج رمزية الإنجيل، كما يعالج بدرجة أقلّ الأساطير الكلاسيكية، ويتعامل معها كقواعد للنّماذج الأصلية الأدبية، انطلاقا من وجهة نظره التي تعتبر الأدب أسطورة أُزيحت من مكانها، وأفضل طريقة لفهمه هو إرجاعه إلى نصّه الأسطوري الصّحيح (38) .

وينطلق "فراي" من نظرية (النّماذج الأصلية) أو (الأنماط العليا) ، ويترتّب على ذلك أن يدرس النّاقد القصيدة باعتبارها جزءا من الشّعر، والشّعر باعتباره جزءا من محاكاة الإنسان للطّبيعة التي ندعوها (حضارة)، والحضارة ليست مجرّد محاكاة للطّبيعة، ولكنّها عملية صياغة شكل أسا ◻ من الطّبيعة. والرّغبة هي الدّافع وراء هذه العملية الحضارية، إنّها الرّغبة في الطّعا◻ والمسكن التي لا تكتفي بالجذور والكهوف، بل بإبداع شكل إنساني من الطّبيعة، هو ما ندعوه الزّراعة، وفنّ العمارة (39).

فنورثروب فراي إذن يسمّي هذا النّقد بـ (نقد النّماذج)، ويرى أنّ النّاقد الذي يهتمّ بالنّماذج وبفعل الطّقس والحلم، سيستفيد كثيرا من أعمال الأنثروبولوجيا المعاصرة التي تتعلّق بالطّقس، وأبحاث علم النّفس الحديثة في مجال الحلم؛ وخاصّة تحليل الأُسُس الطّقسية للكتابات المسرحية البسيطة، في (الغصن الذّهبي) لـ"فريزر Frazer "، وأعمال "يونج" ومدرسته حول الأُسُس الحلمية لرواية المغامرات، وسيعود كلّ ذلك بالفائدة الكبيرة على النّاقد (40).

ويرى "فراي" أنّ النّص الأدبي يشكّل سلسلة من رموز الإدراك، أو بعبارة أخرى طقسا. فيدرس النّاقد القصّة .. كطقس، أي أنّه يدرس تقليد الفعل الإنساني الدّال (...) لأنّ الطّقس والحلم يشكّلان - حسبه - المحتوى الجليّ للعمل الأدبي الذي يؤخذ على أنّه نموذج .

ويعرّف "فراي" هذا النّوع من النّقد بأنّه دراسة الرّموز الأدبية كأجزاء من كلّ. وإن كانت النّماذج نفسها موجودة على هذا النّحو، فعلينا أن ندرك إمكانية أن نقو◻ بخطوة إضافية، أو نتصوّر وجود عالم أدبي مستقلّ. ولن يكون البحث المؤسّس على نقد النّماذج إلاّ بريق أملٍ مجرّد أو متاهة دون مخرج، إذا

اعتبرنا الأدب مجرّد كتلة من الأعمال الأدبية بدلا من أن نتصوّره (الأدب) شكلا كلّيا لمجموع منظّم . (41) .

ونخلص إلى القول، إنّ "فراي" يعتبر الأدب إطارا عاما لكلّ عمل أدبي، وبالمثل فإنّ التّراث الأسطوري هو الإطار العا لكلّ أسطورة، ويرى أنّ الأساطير عنصر بنائي في الأدب، لأنّ الأدب - حسبه - حلّ محلّ الأساطير، فلا بدّ للنّاقد الذي يبتغي تفهّم الأدب من أن يبحث عن ذلك الإطار الأسطوري العا (42).

ولم يبدأ الحديث عن النّقد الأسطوري بهذا الاسم إلاّ بعد 1970 ، مع الفيلسوف "جيلبير دوران Gilbert Durand "، في الوقت الذي بدأت فيه حدّة (النقد الجديد) تهدأ، على الرّغم من أنّ هذا المنهج قديم النّشأة يرجعه "جيلبير دوران" إلى "فيكتور هيجو Victor Hugo"، الذي يعدّه مؤسّس الدّراسات الأسطورية، متجاوزا بذلك زمنه، لانعدا المنهج (43).

وقد جاء نقد "جيلبير دوران" إذن - الذي يُرجع "برونال" أُسُس هذا المنهج إليه- ردّا على نقد "شارل مورون C . Mauron" النّفسي - بعد أن بدأت حدّة النّقد الجديد تخفّ - ، لذلك لم ينتبه النّقّاد إلى هذا النّقد « الذي ظهر أيضا على يد فيلسوف يُدعى جيلبير دوران » (44) ، ذلك أنّ معظم المناهج النّقدية، قد ظهرت على أيدي الفلاسفة * .

ويمكن تطبيق هذا المنهج النّقدي - الذي سمّاه "جيلبير دوران" (النّقد الأسطوري) وصنّفه في التّيار المسمّى (النّقد الجديد) - على النّصوص الشّفهية والمكتوبة، بغية استرجاع الفكر الأسطوري إلى موكب الأفكار (الجادّة)؛ مستعينا - في ذلك - بكلّ ما يهتمّ بالأسطورة، للكشف عن خلفية الحكاية التي يمكن أن تكون نصّا شفهيا، أ مكتوبا، أو نواة أسطورية، أو نموذجا أسطوريا .

وككلّ المناهج، فإنّ هذا المنهج لم يكن قفزة من فراغ، ولكنّه يعتمد في نشأته على أساس فلسفي وسيكولوجي، وسياق علمي معرفي وصلت إليه المناهج المتعاقبة، فكان أحد طرائق الحداثة في النّقد الأدبي الحديث والمعاصر .

وعلى الرّغم من أنّ المنهج تبلور على يد "بيير برونال"، إلاّ أنّه هو ذاته يقرّ بأنّ الإرهاصات الأولى جاءت على يد نقّاد آخرين منهم "يونج" و"يولس Jolles "، و"نورثروب فراي"، الذي يقول : « كانت أولى جهودي المستمرّة في البحث محاولة لكتابة تعقيب موحّد على كتب "وليام بليك" التنبؤية، إنّها قصائد أسطورية الشّكل، وكان عليّ أن أتعلّم شيئا عن الأسطورة لكي أكتب عنها. وهكذا اكتشفتُ بعد نشر الكتاب أنّني من مدرسة (النّقد الأسطوري)، التي لم أكن قد سمعتُ بها من قبل » (45) .

وقد كان لإسهامات "فرويد" في التّحليل النّفسي، و"يونج" - بعد ذلك - في علم نفس الأعماق، الفضل الكبير في لفت انتباه النّقاد إلى المتون الأسطورية؛ حيث رأى "فرويد" أنّه يمكننا تناول عمل فنّي (لوحة، أو قصيدة، أو أيّة قصّة) بالطّريقة نفسها التي يمكننا أن نتناول بها قصّة أو تخييلا (46).

وقد انطلق "فرويد" من المفهوم الأفلاطوني للفنّ، الذي يعتبره (أفلاطون) حلما مهدى للفكر المتيقّظ. ويرى عالم النّفس أنّ كلّ الرّموز الحلمية هي رموز شخصية تمّ تفسيرها على مستوى وجود الحالم. وبالنّسبة إلى النّاقد، ليس هناك رمزية شخصية؛ أو حتّى إن وُجد شيء كهذا، فإنّ على النّاقد أن يعمل على جعله يختفي .

فحين قام "فرويد" بتحليل « أوديب ملكا » لسوفوكل، قال بأنّ العناصر الدّرامية والعناصر النّفسية يمكن أن تكون متّصلةً، دون أن تكون لها مرجعية

إلى حياة سوفوكل الشّخصية (..)، كما شرح "يونج" ومدرسته - في حديثه عن اللاّوعي الجمعي- المميّزات العامّة لتواصل النّماذج (47).

لذلك، جاء التّحليل الأسطوري لـ "دوني دو روجمان Denis de Rougement" ردّا على التّحليل النّفسي لـ "فرويد"، وجاء النّقد الأسطوري لـ "جيلبير دوران" ردّا على النّقد النّفسي لـ "شارل مورون Charles Mauron" ؛ فظهر مصطلح النّقد الأسطوري بعد « البنيات الأنثروبولوجية للخيال » (1960)، والدّيكور الأسطوري لـ «La Chartreuse de Parme » (1961) لجيلبير دوران، الذي أنارت مقالته المختصرة: « إسهامات في النّقد الأسطوري » - التي نُشرت في العدد 4 من المجلّة الرّومانسية، سنة 1972 - منهج التّحليل الأدبي الذي اختار تطويره.

جاء النّقد الأسطوري إذن مضادّا للنّقد النّفسي، ووقف "دوران" ضدّ "مورون"، فكانت معركة علماء الأنثروبولوجيا، حيث يعتبر "دوران" الأدبَ وخاصّة النّص الرّوائي (مكانا خاصّا بالأسطورة)، في حين أسّس "مورون" تحليلاته النّفسية حول (حضور شخصية) الأديب التي تشكّل استيهاما ثابتا، وديناميا، يستمرّ بطريقته تحت الشّعور، ويعرّف الأسطورة، على أنّها الصّيغة الشّخصية اللاّواعية وانتشارها (48).

ونستنتج من كلّ ما سبق، أنّ النّقد الأسطوري عبارة عن خطوات إجرائية، تدعمها كلّ المعارف المهتمّة بالأسطورة، في إعادة تشكّل الفكر الأسطوري ضمن موكب الأفكار، بالبحث خلف القصّة التي ليست سوى نصٍّ - شفهي أو مكتوب - . (49)

فالنّقد الأسطوري يتطلّب قراءة دقيقة للنّص كالشّكلي (المذهب الشّكلي أو الجمالي)، ولكنّه يعنى من النّاحية الإنسانية، بأكثر من القيمة الجوهرية لـ ئشباع الجمالي، ويبدو أقرب إلى علم النّفس لتحليله استهواء العمل الأدبي للجمهور... ، وهو مع ذلك اجتماعي، بالنّظر إلى اهتمامه بالأُطُر الحضارية، وهو تاريخي في بحثه عن الماضي - الحضاري أو الاجتماعي -، ولكنّه ليس تاريخا في عرضه قيمة الأدب، بصرف النّظر عن الزّمن، وبمعزل عن الحقب والعصور (50).

ونستنتج من ذلك أيضا، أنّ النّقد الأسطوري يستوعب كثيرا من المناهج، ولكنّه يختلف عنها في الطّرائق، وفي تتبُّع العناصر المكوّنة للنّص الإبداعي، و في رصد تأثيرات هذا العمل على الجمهور المتلقّي.

ويقوم هذا المنهج، على تتبّع بصمات الأسطورة وملامحها داخل النّص الإبداعي، انطلاقا من مصادرها، وذلك للوصول إلى تجلّيات هذه الأساطير داخل العمل الأدبي، بُغية الوقوف على مدى احتفاظها بأثوابها الأولى، أو الأزياء التي أجبرها الكتّاب على ارتدائها، ومدى تكيُّفها مع غيرها من العناصر الجمالية داخل النّصّ الإبداعي، وذلك من خلال :

أ - قابلية الأسطورة لأن تكون عنصرا بنائيا داخل القصيدة، بامتلاكها خاصّيتيْ التّحوّل، والتّحوير، - وهنا يأتي الأساس الفلسفي / السّيكولوجي الذي يرى أنّه لا شيء يمّحي، لا شيء موجود يمكن أن يتحوّل إلى عدم مطلق، و إنّما يتحوّل أو يتحوّر، ويعيد تشكيل نفسه ليظهر ويستمرّ في هيئة جديدة، تتماشى ومنطقَ الأزمنة المستجدّة - .

ب - القدرة على تمثّلها وجعلها عنصرا بنائيا يذوب في قلب التّجربة، إذ إنّنا « لن نستطيع أن نخلق من أسطورة معروفة قيما فنّية جديدة ما لم نتمثّلها حتّى

تصبح جزءا من أصالتنا » (51)، فإذا تمثّلها المبدع أمكنه أن يُحدث فيها من التّحويرات ما يخد� ر يته، فيجعل منها عنصرا بنائيا جماليا، لأنّ الأسطورة التي تُغني الأدب يجب أن تمتلك القدرة على استثارة المتلقّي، وجعله يتجاوب معها؛ وذلك ما يفسّر دون شكّ ما يعنيه بروميثيوس لإنسان اليو�؛ فتلك القدرة التي تمتلكها الأسطورة هي التي جعلت ذلك الثّائر ضدّ الآلهة يصبح نموذج الإنسان المعاصر، وجعلت ذلك الإعلان المرفوع منذ آلاف السّنين، في صحارى سيشي Scychie، ينتهي اليو� في انتفاض تاريخي ليس له مثيل (52).

فالوعي بالكيفية المثلى لتحقيق الجمالية المرجوّة من توظيف الأساطير، هو الذي يمكّن المبدع من توظيف الرّمز الأسطوري ويجعله يتفاعل بعفوية وتلقائية « مع السّياق، دون قسر خارج النّص، ودون شرح أو تحليل يُفقد الرّمز الأسطوري تجسيده لموقف ما أو (معادل رمزي) لموضوع ما، فإنّ هذا يتطلّب اختيارا صحيحا للرّموز الأسطورية المعبّرة عن الحالة الشّعورية، كما يتطلّب أن تكون هذه الرّموز موحية، بعيدة عن المباشرة والتّراكم »(53) ، يتطلّبها السّياقان الأدبي والشّعوري .

الخطوات الإجرائية :

عمل "برونال Brunel " على بلورة هذا المنهج، ولكنّه تنازل عن إمكانية خضوع الظّاهرة الأدبية لقوانين أو قواعد، واكتفى بالحديث عن «ظواهر يمكن أن تتجدّد داخل العمل الأدبي، وأن تكون موضع مفاجأة أو حادثة مميّزة تُعتبر محاولة الإمساك بها داخل شباك القوانين العامّة محاولة باطلة ... » (54)، ذلك أنّ "برونال" كان يحاول - من خلال هذا النّقد الأسطوري - أن يضع تصنيفا للأساطير هدفه التّحليل الأدبي لا غير. فلا ينفكّ يردّد قوله : « ظننتُ لفترة ما أنّه يمكننا صياغة القوانين، لكنّ الأدب يُبدي مقاومة أخرى غير مقاومة المادّة.

أعتقد أنّه من الأجدر اعتبار تجلّي الأسطورة ومطاوعتها وإشعاعها في النّص ظواهر دائمة التّجدّد، وحوادث مميّزة، يكون من العبث محاولة الإمساك بها داخل شباك القوانين العامّة، ولكنّني أقترح تصنيفا لا يهدف إلاّ إلى تسليط الضّوء، وتأسيس نظرية تحليل أدبي، هو (النّقد الأسطوري).»(55)

وقد وقف بعض الدّارسين على الظّواهر ذاتها التي حدّدها "برونال" لدراسة العمل الأدبي الذي يضمّ الأساطير بين طيّاته. إذ يذكر "باجو D. H Pageaux" أنّ "جان إيف تاديي Jean Yves Tadié" وضع ثلاث إمكانيات للوقوف على شعرية النّص الشّعري تتقارب مع ظواهر "برونال" الثّلاث، وتتمثّل عند "جان إيف تاديي" في :

أ – إمّا أن يكون النّص الشّعري كلّه أسطوريا، وهو ما أسماه برونال بـ (الإشعاع Irradiation) .

ب – أو أن يجمع الأساطير بين طيّاته، على شكل نصوص مؤطّرة، وهو ما أسماه برونال بـ (المطاوعة Flexibilité) .

ج – أو أن يكون وجود الأساطير مضمرا (مختفيا) ، وتُقرأ (الأساطير) عبر بعض حلقات التّاريخ، أو تنفجر في وابل من الشّرر الرّمزي، وهو ما أسماه برونال بـ (التّجلّي Emergence) (56).

أما الظّواهر التي يقترحها برونال، فتتمثّل في :

1 - التّجلّي : Emergence

يتعلّق الأمر بملاحظة الحوادث الأسطورية في النّص، دون الاكتفاء بالجليِّ منها؛ فهناك حتما أثر لأسطورة ما في النّص، من خلال عدد من الإشارات الدّالة عليها .

ويأتي التّجلّي على ثلاث مراتب : إمّا صريحا أو تاما، وإمّا جزئيا، وإمّا مضمرا أو مبهما .

أ – الصّريح أو التامّ : ويكون عن طريق :

- العنوان * أو اللاّزمة
- الاقتباس أو التّضمين
- ذكر الاسم

ب – الجزئي : ويرد عن طريق :

الإشارة إلى جزئية أو صفة من صفات

- العنصر الأسطوري أو تصرّف من تصرّفاته
- الصّور البلاغية

ج- المضمر أو المبهم : وهو الأكثر شيوعا، ونجده في معظم أنواع التّجلّي، وفي الصّور البلاغية على وجه الخصوص .

2- المطاوعة : Flexibilité

يحيل المفهوم على المرونة في التّكيّف، وعلى مقاومة العنصر الأسطوري في النّص، والتّغيّرات التي تحدث في النّص ذاته (57) .

وتسمح مزاوجة التّجلّي مع المطاوعة بالوقوف على الإشارات والكنايات، ومرونتها في التّكيّف، وفي مقاومتها، كي لا تنزل إلى أن تكون مجرّد مجازات أو استعارات، محتفظة بوجود آخر في النّص الأدبي: وجود مشعّ. (58)

وقد أعطى "غريماس Greimas" للأسطورة خاصّية يمكننا أن ندرجها ضمن المطاوعة، وهي خاصّية التّكرار، التي تميّز الأسطورة عن باقي النّصوص الأخرى، « لأنّ لها القدرة على تشكيل أو خلق بعض النّصوص الأخرى التي تنتج عنها، وذلك بإعادة عناصرها المكوّنة، وهو ما أسماه "ليفي ستراوس" : Les mythèmes *»

3 – الإشعاع : Irradiation

ل ئشعاع حضور إجباري. وانطلاقا من هذا الحضور يتمّ تحليل النّص، لأنّ العنصر الأسطوري - حتّى و إن كان دقيقا أو مستترا- فإنّه يُعتبر دالاّ مهمّا، ويمتلك القدرة على الإشعاع .

فقد تؤخذ بعض العناصر الأسطوريّة في النّص على أنّها ديكور غريب. و « في بعض الأحيان، نعتبر وجود العناصر الأسطوريّة في النّص - وببعض التّسامح - اختصارا متعمّدا لآثار علم الأساطير (...)، نتقبّلها، لكن كمحسّنات أو كزخارف، كاغتراب دائم، أو على العكس كأشياء مثيرة للسّخرية . » (59)

ويكون الإشعاع عن طريق :

- إشارة يندرج تحتها النّص
- نق ط يمكنه أن يدلّ على الحياة
- صرخة يفتتح بها النّص
- كلمة أو جملة دالّة على الأسطورة *
- حوار داخلي للمبدع ، يحيل إحالة غير مباشرة على الأسطورة (60)

ويقسّم "برونال" الإشعاع المستتر (Sous – textuelle) إلى نوعين :

1 – إشعاع مجموع أعمال الكاتب: حيث أنّه يمكن لصورة أسطوريّة في نصٍّ ما من إبداعات هذا الكاتب، أن تُشعّ في نصٍّ آخر تكون فيه غير واضحة الملامح؛ كأن يذكر الشّاعر الشّخصيّة الأسطوريّة - اسما - في إحدى قصائده، ثمّ يذكر صفة من صفاتها أو عملا من أعمالها في قصيدة أخرى، فإنّ ذلك الاسم يظلّ مشعّا على كامل أعمال المبدع، دالاّ على الأسطورة .

2 – إشعاع الأسطورة نفسها في ذاكرة المبدع وخياله؛ ذلك أنّه تكفي الإشارة إلى الأسطورة للدّلالة عليها، دون الحاجة إلى الإيضاح .

وانطلاقا من هذه الخطوات الإجرائية الثّلاث : التّجلّي، والمطاوعة، والإشعاع، يمكن للنّاقد أن يتتبّع آثار أسطورة ما في نصٍّ أدبيٍّ واحدٍ، أو في عدد من النّصوص الإبداعيّة، حيث يمكن للأسطورة أن تتجلّى اسما، أو من خلال العنوان، أو صفة من صفات الشّخصيّة الأسطوريّة، أو عمل من أعمالها ... إلخ . وبذلك يمكن للنّاقد أن يتتبّع الأسطورة، انطلاقا من الموتيفات * الدالّة عليها، ثمّ يرصد التّحويرات والمطاوعات التي أحدثها فيها المبدع، بحكم قابلية الأسطورة للتّشكيل والتّحوّل، حيث يمكن توظيف الأسطورة وفق :

أ – منطلق سيا ؟، حيث يختبء المبدع والشّاعر خاصّة وراء الرّمز الأسطوريِّ، ويرشق من خلاله أعداءه ومعارضيه بسها؟ الاحتجاج والمعارضة .

ب – منطلق فنّي، حيث يختار المبدع الرّموز الدّالّة الغنيّة بالإيحاء، ليخرج القصيدة من الخطابية والمباشرة والسّطحية التي كانت تطفح بها، ممّا يفتح آفاقا أكبر للتّأمّل .

كما يرصد الإشعاعات التي تحيل على الأسطورة سواء كان ذلك في القصيدة الواحدة، أو من خلال ماتدعونا إلى الرّجوع إليه من أعمال المبدعين سواء في فترة واحدة، أو في فترات مختلفة من فترات توظيف الرّمز الأسطوري .

الهوامش :

* عند "سان سيمون Saint – Simon " وتلاميذه، أو عند "لوسابس Lesseps" – مهندس قناة السّويس الشّهير – ، وعند "فوريي Fourier "، و"أوغست كونت Auguste Conte"– أبو الفلسفة الوضعية، وأختها الفلسفة الاجتماعية –.

** فيزيولوجيا Physiologie : علم وظائف الأعضاء.

(1)Durand Gilbert: Introduction à la Mythodologie , Edition Albin Michel Sa, France et Cérès édition , Tunis , 1996 , p : (23 – 30) .

*** كونَ الأسطورة "تاريخا" وعرضا لتاريخ المستقبل، فهي قريبة جدّا من (روى) الرّوائية عند "بلزاك Balzac" ثمّ "زولا Zola " في ذلك العصر. حيث تفطّن أكبر الرّوائيّين بصورة واضحة إلى أنّهم لم يقوموا بغير تمديد للخطابات المؤسّسة للأسطورة بطرق أو بأخرى، فـ "بلزاك" الذي عنون عمله الفخم « الكوميديا الإنسانية » ، كان واعيا جدّا بأخذ رباط الأسطوريّات الشّهيرة هذه التي هي « الكوميديا الإلهية » .

(2) Durand Gilbert : Introduction à La mythodologie , p : 25.

(3) Ibid , pp : 16 – 17.

(4) Ibid , p : 26 .

(5) Brunel Pierre. Pichoi Cl . Rousseau Am : Qu' est- ce que la littérature comparée?, Armand colin - collection U, Paris . 1983 .p: 125

(6)Brunel Pierre : Littérature comparée , Encyclopeadia Universalis Microsoft.

(7)Brunel Pierre. Pichoi Cl . Rrousseau Am : Qu' est- ce que la littérature comparée ?, p: 24 .

*(مدرسة غاستون باري Gaston Paris في القرن التّاسع عشر وآخرون) .

** عند (غاستون باشلار Gaston Bachelard ، وجان بيير ريشار Jean Pierre Richard) .

(8)Trousson Raymond : Thèmes et mythes , édition de l'université de Bruxelles, 1981, pp : 22 – 23 (9)Ibid , p : 15 .

(10) فولفغانن كايزر : العمل الفنّي اللّغوي – مدخل إلى علم الأدب - ، ترجمة وتقديم : د . أبو العيد دودو، الجزء الأوّل، دار الحكمة، الجزائر، 2000 ، ص : 90 .

(11)W. Smekens : Méthodes du texte , sous la direction de Maurice De la croix , Fernand Hallyn,Edition Duculot , Paris , 1987 , p : 97 .
(12)Trousson Raymond : Thèmes et mythes , p : 22 .

(13) يُنظر :
- Pageaux Daniel Henri : La littérature générale et comparée, Ed Armand Colin, Paris,1994 ; p : 78
-Trousson Raymond : Thèmes et mythes , p : 23.
(14)W. Smekens : Méthodes du texte , p : 101 .
(15) Ibid , p : 96
(16)Trousson Raymond : Thèmes et mythes , p : 26
(17)W. Smekens : Méthodes du texte , p : 97- 122.
(18)W . Smekens : Méthodes du texte , p : 97 …124 .
(19)Trousson Raymond : Thèmes et mythes , p : 93 .
(20)Brunel Pierre. Pichoi Cl . Rrousseau Am : Qu' est- ce que la littérature comparée ?, p:121- 132.
(21)Trousson Raymond : Thèmes et mythes , p : 16 .

* هي : النّقد التّاريخي، والنّقد الأخلاقي، ونقد النّماذج، والنّقد البلاغي .

(22) Frye . N : Anatomie de la critique , Traduit de l'Anglais par : Guy Durand ; Bibliothèques des sciences Humaines , n r f, Edition Gallimard ,Paris, 1969 , p : 72 .

(23) يُنظر :
- Qu' est- ce que la littérature comparée ?, p : 115
- Trousson Raymond : Thèmes et mythes , p : 121 – 122
(24)Qu' est- ce que la littérature comparée ?, p : 116 .
(25)Barthes R : Essais Critiques , Seuil , Paris ,1964, p:246
(26) Brunel et Autres : Qu' est- ce que la littérature comparée?, p: 116
(27) روبرت ماجليولا : التّناول الظّاهري للأدب، نظريّته ومناهجه، ترجمة : عبد الفتّاح الدّيدي، مجلّة "فصول"، العدد : 3 ، 1981 ، ص : 183 .

(28) Barthes R : Essais Critiques , p : 175 .

* كباختين وجان بيير ريشار، يُنظر على التّوالي :

Qu'est- ce que la littérature comparée?, p : 120.

و حميد لحميداني : سحر الموضوع ، منشورات "دراسات سيميائية أدبية لسانية "، 1990 ، ص : 26 .

(29) Qu' est- ce que la littérature comparée?, p : 120 – 121 .

(30) Todorov . T : Introduction à la littérature Fantastique , Seuil , Paris,1974 , p : 104 .

* حيث انتهى يونج - وهو من أتباع المدرسة الفرويدية - إلى أنّ صور الأمراض النّفسية التي تظهر في اللاّشعور وفي الأحلام وفي الخيالات، تبدو وكأنّها تقاتل الأساطير القديمة، وقد سمّى هذه الأساطير "الصّور القديمة" أو "الأنماط الأساسية" التي تشترك فيها البشرية جمعاء.

(31) د . محمد حسن عبد الله : أساطير عابرة الحضارات – الأسطورة والتّشكيل - ، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع ، القاهرة ، د . ط ، 2000 ، ص : 168.

* وُلد النّقد الموضوعاتي في كنف " غاستون باشلار Gaston Bachelard "، وقد جمع نقّادا ذوي موهبة كبيرة ، مثل" جورج بولي Georges Poulet " و " جان بيير ريشار Jean Pierre Richard " و " جان ستاروبنسكي Jean Starobinsky " ، دون أن ينغلق أحدهم في صيغة جامدة . يُنظر لذلك :

- Brunel Pierre : Mythocritique – Théorie et parcours - , Puf , écriture , presses universitaires de France , 1 ère édition , 1992 , p:10.

(32)Cabanes Jean Louis :Critique littéraire et sciences Humaines,Privot éditeur, Paris,1974, pp:66 – 67.

(33) حميد لحميداني : سحر الموضوع ، ص : 26 .

(34) يُراجع الفصل، ضمن كتاب : فؤاد أبو منصور : النّقد البنيوي الحديث في لبنان وأوروبا، دار الجيل، بيروت، ط1 ، 1985 .

(35) د . محمد حسن عبد الله: أساطير عابرة الحضارات – الأسطورة والتّشكيل - ،ص : 181 – 182 .

* حيث تصبّ إعادة اكتشاف الإنسان هذه، مع اكتشافات التّحليل النّفسي الفرويدية، وعلم نفس الأعماق لـ"كارل يونج"؛ ولكنّ الألمان كانوا أوّل من تنبّه إلى تأثير البُنى الأسطورية والصّور الرّمزية في التّصرّفات الاجتماعية، وفي ما أسموه (البنية التّحتية) ، يُنظر لذلك :

Durand Gilbert : Introduction à La mythodologie , p : 32

(36) Brunel et Autres : Qu' est- ce que la littérature comparée ?, p : 125.

(37) يُنظر : - Brunel Pierre : Mythocritique – Théorie et parcours – , p : 10 .
-Durand Gilbert : Introduction à La mythodologie , p :216
(38)Ruthven . K . K : Myth , The critical Idiom ,Founder Editor , John D . Jump , 1969, p: 80 .
(39)Frye Northrop : Anatomie de la critique , p : (120 – 124)
(40)OP Cit , p : 36.
(41)Ibid , p :131- 146
(42)Frye Northrop : Fables of Identity : studies in poetic mythology , New York Harcourt , Brace and world , Inc , 1963 , pp : 36 – 37 .
43)Durand Gilbert : Introduction à La mythodologie , p : 233 . P :10
(44)Brunel Pierre : Mythocritique – Théorie et parcours–
ويذكر "برونال" أنّ أوّل من تحدّث عن النّقد الأسطوري كان "سيمون فيارن Simon Vierne " وآخرون من تلامذة " جيلبير دوران " إظهارا لولائهم له ، واعترافا له بالفضل . يُنظر : Brunel
* Pierre : Mythocritique – Théorie et parcours – , p : 10
جاء التّحليل النّفسي على يد " فرويد " ، والتّحليل الأسطوري على يد "دوني دو روجمون Denis de Rougement " والنّقد النّفسي على يد "شارل مورون C. Mauron " ، وتأسّس النّقد الظّاهراتي على فلسفة "ادموند هوسيرل" .
(45) نورثروب فراي: الأسطورة والرّمز، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 1980 ، ص : 9 .
(46)Durand Gilbert : Introduction à La mythodologie, p: 223 .
(47)Frye Northrop : Anatomie de la critique , p : 139
(48)Brunel Pierre: Mythocritique – Théorie et parcours - , p : 47 .
(49) Durant Gilbert : Introduction à la mythodologie , p : 314 .
(50) د . محمد حسن عبد الله : أساطير عابرة الحضارات، ص : 181 .
(51) د. محمد مندور : الميزان الجديد، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1944،ص: 18
(52)Brunel Pierre: Mythocritique – Théorie et parcours - , p : 218 .
(53) محمّد عزّ؟ : الأسطورة في الشّعر السّوري المعاصر، مجلّة الموقف الأدبي، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، العدد : 372 ، 2002 (عن الأنترنت) .

(54) Brunel Pierre: Mythocritique – Théorie et parcours - , p : 72

(55)Ibid , p : 72 .

(56)Pageaux Daniel Henri : La littérature générale et comparée, p : 105 .

* لأنّ العنوان يمتلك أبوية بعيدة للأسطورة المؤسّسة للقصيدة أو الرّواية . يُنظر :

Durant Gilbert : .

Introduction à la mythodologie , p : 231

(57) يُنظر - Brunel Pierre: Mythocritique – Théorie et parcours - p : 77 . -

Pageaux Daniel Henri : La littérature générale et comparée , p : 101

(58) Siganos André : Le minotaure et son mythe, Presses Universitaires de France , PUF écriture, Paris, 1993, p : 29 .

ويقصد به : أصغر العناصر المكوّنة للأسطورة .

(59) Brunel Pierre : Mythocritique – Théorie et parcours - , p31

* كـــ : " فقدتها مرّة أخرى" ، الدّالة على أسطورة (أورفيوس و يوريديس) .

(60) يُنظر :

Pageaux 101-102 - Daniel Henri : La littérature générale et comparée ;pp :

- Brunel Pierre: Mythocritique – Théorie et parcours - , p : 81 .

* الموتيف أو الحافز : Motif : هو أصغر العناصر المكوّنة للموضوع، أو هو أصغر وحدة دالة في النّص، أو هو عنصر غير قابل للتّفكيك، انظر :

Ducrot Osvald ; Todorov Tzvetan : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage , Editions du Seuil ,Paris , 1972 , pp : 280 – 281

مشكلة اضطراب دلالة المصطلح اللساني

د جيلالي بن يشو
ج. مستغانم

يختص هذا البحث بقضية اضطراب المصطلح اللساني الحديث، حيث يقف على ظاهرة تعدد المصطلحات اللسانية وضبابيتها وعدم وضوحها بسبب ترجمة المصطلح الأجنبي الواحد إلى أكثر من مصطلح عربي، حيث أصبح هذا المصطلح لا يفي المعنى الدقيق للمفهوم الذي وضع من أجله.

ونظرا لأهمية هذه المشكلة، والتي أدت إلى إحداث بلبلة و إرباك لدى الباحثين، و إضاعة الوقت، وهدر الجهود العلميّة في تفسير وتحليل مدلول المصطلح اللساني الواحد، فقد ارتأينا أن نقف عند حدود هذه المشكلة بأسبابها ومظاهرها ونتائجها.

تمهيد

بدأت مشكلة المصطلح اللساني في الظهور مع مطلع القرن العشرين حين بدأ الاتصال بالدراسات اللسانية الغربية، وظهرت الحاجة إلى إيجاد مصطلحات عربية تقابل تلك المصطلحات الموجودة في اللغات الغربية، فتباينت الوسائل والأساليب في اختيار ووضع المصطلحات يقول د.عبد الصبور شاهين:« ومن المسلم به في محيط الدراسات اللغوية العربية أنّ مشكلتها مشكلة مصطلحات

فما زال أساتذة علم اللغة الحديث من العرب يحاولون أن يضعوا ترجمات ومقابلات لما يصادفون من مصطلحات غربية نتجت من اختلاف التقسيمات أو تصحيح المدلولات»[1].

وقد تدفقت إلى المعجم اللساني الاصطلاحي العربي المئات من المصطلحات الجديدة، غير أنّ هذا الكم الاصطلاحي لم يستقر مفهوميا أو ترجميا مما أدى إلى حالة من الاضطراب والفوضى والتداخل، مازلنا نلمس آثارها بادية إلى اليوم والتي تجعل من المصطلح اللساني العربي الحديث، في المرحلة الراهنة، إشكالية معقدة بحاجة إلى المواجهة والمعالجة من قبل المؤسسات الثقافية والجامعية وهيئات التعريب في الوطن العربي.

وبمرور الوقت بدأت المشكلة تتعمق نظرا للزخم الهائل من المصطلحات الوافدة وما يصاحبها من اختلافات حول مفاهيمها وتطور في مدلولاتها، فقد قدرت منظمة اليونسكو ما يدخل الاستعمال اليومي من المصطلحات بنحو خمسين(50) مصطلحا يوميا أي نحو عشرين ألف(20000) مصطلح سنويا، وفي مختلف فروع المعرفة العلمية والتقنية[2]، وقد ذكر مصطفى الشهابي أنّ اختلاف المصطلحات العلمية العربية أصبح داءً يزداد خطورة باتساع الثقافة في البلاد العربية وازدياد عدد المؤلفين والمترجمين في العلوم يقول: « لقد أصبح اختلاف المصطلحات العلمية داء من أدواء لغتنا الضادية، وهذا الداء ينمو ويستشري كلما اتسعت الثقافة في البلاد العربية، وكثر فيها نقلة العلوم الحديثة، وعدد المؤلفين في تلك العلوم، ولعل أهم سبب من أسباب اختلاف المصطلحات إنما هو فقد الاتصال بين النقلة والمؤلفين في مختلف أقطارنا العربية، ففي كل قطر توضع مصطلحات جديدة لا يدري علماء الأقطار الأخرى عنها شيئا... » [3].

أسباب اضطراب المصطلح اللساني:

لقد بذلت خلال هذه الفترة بالذات جهود فردية وجماعية لضبط المصطلح اللساني وضعا وترجمة وتعريبا، وظهرت العديد من المعجمات الاصطلاحية الحديثة، كما قدمت المجامع العلمية العربية ومكتب التعريب التابع للجامعة العربية خدمات جليلة للمصطلح اللساني، وفتحت صفحات أمام الباحثين والمترجمين لنشر الكثير من المسارد والمعجمات الاصطلاحية الجادة، ولكن وعلى الرغم من الجهود الجماعية والفردية المبذولة في هذا الميدان فالمصطلح اللساني العربي الحديث، ما زال يعاني من الاضطراب وعدم الاستقرار، إذ غالبا ما نجد مقابلات موضوعة أو مترجمة أو معربة مختلفة للمصطلح الواحد، ولعل مرد ذلك إلى أسباب كثيرة نذكر منها:

1- أنّ هذا العلم حديث العهد في العربية لم تتبلور الكثير من مصطلحاته، كما أنّه ذو فروع متعددة يشكل كل منها علما له مجاله واصطلاحه، ويبدو ذلك في انضواء الصوتيات والصرف والتراكيب والمفردات تحت عنوان اللسانيات.

2- تداخل مصطلحات اللسانيات مع مصطلحات العلوم الأخرى أو اقتباس هذا المصطلح أو ذاك من مجال آخر من مجالات العلوم، وبخاصة أنّه ظهرت في الآونة الأخيرة مجالات لعلوم اللغة تستعين بالعلوم الأخرى من مثل علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي وعلم اللغة الفيزيائي وعلم اللغة الحاسوبي وغيرها[4].

3- تعدد مصادر المصطلح واختلافها بسبب طبيعتها اللغوية والثقافية، وكثرة المصطلحات وتنوعها نظرا لتعدد مشارب اللسانيين ومصادرهم، وتكاثر

المناهج التي يتوصل بها لإنتاج المصطلح، ثم طفرة الوضع المفهومي وما ينشأ عنه من توليد مطّرد للمصطلح بحسب توالي المدارس اللسانية، ممّا زاد الأمر تفاقما، إضافة إلى كثرة ما ينشر من مصطلحات لسانية، واتساع المجال المعرفي للسانيات، وهو ما يفرضه على المصطلح من تعدد وجوه الاستعمال والدخول في مجالات بعيدة عن مركز الاختصاص في اللغة. فاختلاف التصورات والاتجاهات اللسانية كان عاملا وراء ظهور مصطلحات لسانية مترامية الأطراف وغير محددة التوجه بالنسبة للمشتغل غير المتخصص، فكانت بعض الاقتراحات التي دعت إلى وضع مصطلح لساني يستجيب لحاجات الباحث مع التلميح إلى الخلفية المعرفية التي تحكمه.

4 - إنّ أغلب المصطلحات اللسانية الحديثة غربية المنشأ، متعددة اللغة، وصلت إلينا عن طريق الترجمة التي باتت قاصرة عن الإدلاء بالتعبير اللغوي الدقيق للمصطلح الغربي، فشاعت بين أيدي اللسانيين تراجم متعددة لمصطلح واحد ، فكل لساني يأخذ بالترجمة التي تملي عليه ذوقه.

وان أفضل ما يمكن أن ندعم به رأينا في هذا المجال أنّ كتاب:

"Cours de linguistique générale" لفرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure قد تُرْجِم إلى العربية خمس(05) مرّات، كل ترجمة تحمل عنوانا يختلف عن باقي الترجمات فهناك:

ـ الترجمة التونسية التي قام بها كل من صالح قرمادي ومحمد عجينة ومحمد الشاوش وصدرت عام 1985 بعنوان:" **دروس في الألسنية العامة**".

ـ الترجمة المصرية التي أنجزها أحمد نعيم الكراعين سنة 1985 بعنوان:" **فصول في علم اللغة العام**".

ـ الترجمة العراقية التي أنجزها يوئيل يوسف عزيز 1985 بعنوان:" **علم اللغة العام**".

ـ الترجمة السورية التي صدرت بالجزائر عام 1986، أنجزها كل من يوسف غازي ومجيد نصر بعنوان:" **محاضرات في الألسنية العامة**".

ـ الترجمة المغربية بعنوان:" **محاضرات في علم اللسان العام**" أعدّها عبد القادر قنيني.

يظن المبتدئ لهذه التنوعات – على سبيل المثال طلبة الصف الجامعي- أنها تدل على مؤلفات مختلفة.

قد نجد مبررا لهذا التنوع المصطلحي، ذلك أنّ أصحاب هذه الترجمات كانوا مدفوعين بالرغبة في إشاعة هذا العلم الجديد في الساحة العربية، وتيسير الثقافة اللسانية الجديدة ونشرها وتحقيق السبق والريادة في تقديم مفاهيمها في زحمة العلوم والاختصاصات، ذلك أنّ الترجمة أهم الوسائل التي تُسْلَك في وضع المصطلح وهي مُقَدّمة عن التعريب لأنّ فيها سعة أفق واستيعاب مضامين الألفاظ الأعجمية في اللغة العربية[5].

5- العفوية في وضع المصطلح، وهي عفوية لا تقترن بمبادئ منهجية دقيقة، ولا باكتراث بالأبعاد النظرية للمشكل المصطلحي، وقد قادت هذه العفوية إلى كثير من النتائج السلبية، وفي مقدمتها الاضطراب والفوضى في وضع المصطلح وعدم تناسق المقابلات المقترحة للمفردات الأجنبية[6]. ويعود هذا التعدد إلى عدم اطلاع الباحثين العرب على أبحاث زملائهم الآخرين، وقد سبب عدم التواصل العلمي عدم شيوع بعض المصطلحات العلمية الدقيقة وشيوع مصطلحات أخرى أقل دقة. ومن ذلك، مثلاً،المصطلح العربي:"**علم الأصوات**

الوظيفي" الذي يقابل المصطلح الأجنبي"Phonology"، وفي هذا المصطلح عيوب عدة أولها أنه لا يدل إلاّ على اهتمام ضيق واحد من الاهتمامات التي يدرسها العلم الذي يطلق عليه، ومع ذلك نجده يشيع في محيط الدراسات اللسانية، وقد اقترح بعض المتخصصين مصطلح "الصِّواتة" بدلاً منه، وهو مصطلح أعم وأشمل، لكن هذا المصطلح لم يشع لعدم اطلاع كثير من المتخصصين عليه وربما يكون ذلك بسبب النعرة القطرية [7].

6- عدم الاستجابة الكاملة للمصطلحات التي أقرّت من قبل المجامع اللغوية، وعدم وجود سلطة لفرض ما تقرره من مصطلحات، فالمجامع تضع المصطلحات وكأنما تضعها لنفسها، فلا توجد سلطة ملزمة للمؤسسات العلمية والتربوية، لتستخدم المصطلح بمجرد صدوره، يقول د.شاكر الفحَّام:« إنَّ المأساة الحقيقية في أمر المصطلح، هي وجود المصطلحات التي قامت بوضعها جهات علمية عديدة، ولم يتح لها أن ترى النور»[8]. فغياب الجهة الملزمة لاستخدام مصطلحات بعينها، يؤدي بالضرورة إلى فوضى وبلبلة في المصطلح الواحد. فما القيمة – على حد قول إبراهيم مدكور- « لمصطلحات يقرها المجمع ثم تبقى في أضابيره، أو تنشر في مجلته أو محاضره ؟ ألا يصح أن نفكر في طريقة للإلزام، وأخذ الناس بها ... ولا أخفيكم أنّ هذه المسألة أُثيرت من قبل ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بها لا داخل المجمع ولا خارجه»(9).

7- عدم وجود أي إجماع حول وضع المصطلحات اللسانية الحديثة التي يتم تداولها الآن في الدرس اللساني، نتيجة الطريقة المتبعة من طرف المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية التي تضطلع بصوغ المصطلح، فقد يصاغ مصطلح واحد بناء على ترجمة المعنى أو بناء على التعريف، أو بناء على نقل اللفظة

الأجنبية إلى اللغة العربية مع إخضاعها للصوت والنطق العربي، بالإضافة إلى اعتماد الآليات المعروفة مثل النحت، أو الاقتراض، أو التوليد، والاشتقاق، وأحيانا الاستعانة بالموروث العربي القديم قصد بعثه وإحيائه، كل هذه الطرق أثرت بشكل سلبي على وضعية المصطلح اللساني، وبالتالي فعوض أن تكون المصطلحات عاملا مساعدا على وحدتنا، أصبحت هاجسا وعائقا أمام تطويرنا ثقافيا، ولغويا، وفكريا، وبالتالي خلق فجوة مصطلحية داخلية كان من اليسير أن نتغلب عليها لكن اهتمامنا انصب على تكريس وضعية التفرقة والاضطراب المصطلحي.

واقع المصطلح اللساني بين التعدد والاضطراب :

نظرا لأهمية دراسة إشكالية المصطلح اللساني في صيغته الحديثة واستخدامه في الدرس اللساني، فقد انشغلت العديد من المجامع اللغوية على تعريب المصطلحات اللسانية لما تمثله من علاقة تفاعلية مع ما ينتجه الآخر في هذا المجال، خصوصا أن الدراسات اللسانية المقارنة تؤكد أن مسايرة الركب اللغوي تتطلب ضبطا دقيقا للمصطلحات، حتى يحسن التعامل معها وتوظيفها بما يلزم من الحمولات الفكرية والثقافية المناسبة، ومن جهة أخرى هي نتاج حركتي التعريب والترجمة اللتان كان لهما بعض الآثار السلبية على فكرنا ولغتنا، وهذا من منطلق أن عملية التثاقف كان لها الأثر البالغ في ذلك، لأنها أنتجت اتجاها جديدا في معالجة الدرس اللساني الذي ابتعد يوما عن يوم عن أصول وقواعد اللغة العربية ليرتبط بلغة الثقافة المهيمنة، لذلك اتسم الدرس اللساني بالغموض في التعبير عن ذاته بمفاهيم ومصطلحات يحكمها التفرد والاضطراب، وفي غياب مؤسسات عربية مراقبة وموحدة لعملية التعريب والترجمة، سادت مجموعة من المصطلحات المتضاربة وغير المتقنة، بل لم تكلف

صاحبها سوى عملية استنساخية، فباتت اللغة العربية تحت رحمة المترجمين، فتُرْجِم المصطلح الواحد بعشرات الأشكال حتى اختلفت ترجمة وتعريب المصطلح الواحد من بلد إلى آخر، بل حتى داخل البلد الواحد نفسه إذ نجد تباينا في المصطلحات من مؤسسة لأخرى[10].

ومن صور هذا التعدد أن مصطلح "Linguistique " أصبح عرضة للاختلاف والأخذ والرد بين المترجمين واللسانيين العرب، وأصبح يمثل نموذجا حيا للوضع الراهن للمصطلح اللساني، فمازلنا نجد مجموعة من المقابلات الترجمية التي لم يستقر على أي منها، فقد بلغت المصطلحات المعرّبة لمصطلح"**Linguistique**" وفق ما أورده د. عبد السلام المسدي في قاموس اللسانيات ثلاثا وعشرين(23) مصطلحا منها: الألسنية، علم اللغة، اللغويات، الدراسات اللغوية الحديثة،علم اللغة العام،علم اللسان، اللانغويستيك،علم اللغويات الحديث، الألسنيات، اللّسنيات، علم اللسان البشري[11]. رغم أنّ المعنيين والمختصين في شؤون اللغة العربية والمجتمعين في ندوة الألسنية واللغة العربية المنعقدة بتونس1978، وفي ندوة اللسانيات المنعقدة بدمشق 1981، قد أجمعوا على استعمال مصطلح " اللسانيات" بناء على توصية أهل الاختصاص التي تدعو إلى استعماله على النطاق العربي كله[12].إلاّ أنّ أمواج الفوضى المصطلحية ما زالت تتخاطفه، فهناك من الباحثين العرب من يفضل استخدام مصطلحات أخرى، ولأدل على ذلك أنّ د. أحمد مختار عمر فضل مصطلح "الألسنية " على مصطلح" اللسانيات " في دراسة حديثه له نشرها عام1989 في العدد الثالث من مجلة عالم الفكر، رغم أنّه أقر في افتتاح بحثه الموسوم:" المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية" بأنّ مصطلح الألسنية ليس أكثر انتشارا من مصطلحي علم اللغة واللسانيات يقول:« راجت في الأعوام الأخيرة مصطلحات ثلاثة تنافست للظفر بحق الإطلاق على حقل الدراسات اللغوية الحديثة وهي "علم

اللغة" و"اللسانيات" و"الألسنية" وقد اخترنا مصطلح الألسنية لنطلقه على هذا العدد الخاص من عالم الفكر رغم انّه ليس أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعا»[13].

كما وجدنا في البحث الذي تقدم به د.وليد محمد السراقبي ما يثبت هذه الفوضى المصطلحية،فقد بيّن أنّ الدارس الواحد وفي مُؤَلّف واحد يستعمل عدة تسميات مقابل مصطلح"Linguistique" كما هو الحال عند محمّد زياد كبّة عندما ترجم كتاب جون ليونز الذي يحمل عنوان: " تشومسكي" والذي وظّف: "اللسانيات" "علم اللغة" " النظرية اللغوية" " النظرية اللغوية الحديثة" " الأعمال النحوية"، وكذلك عند د. محيي الدين حميدي في كتابه "الألسنية الحديثة واللغة العربية" الذي استعمل مصطلح "اللغويات" و"اللغويات العامة" و" الألسنية" لأداء المفاهيم التي يؤديها مصطلح اللسانيات[14].

إن مفهوم المصطلح يقتضي بالضرورة وضع المكافئ العلمي في اللغة العربية نقلا عن لغة أجنبية سبقت إلى تعجيم الكلمة المنقولة (أي وضعها في المعجم)، فالمصطلح كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز الدلالة اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية، وتقوم كما يقول د. أحمد بوحسن على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة، فهو بهذا المعنى يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم والتمكن من انتظامها في قالب لفظي يمتلك قوة تجميعية وتكشيفية لما قد يبدو مشتتا في التصور[15].

وإذا كان يبدو أن اللغة وضعت اعتباطا فإن المصطلح جاء وضعه مقصودا حسب المستحدث الذي يراد تعجيمه، كذلك يكمن الفرق بين المصطلح وكلمات اللغة من حيث درجة إنتشاره ومألوفيته، فانتشار المصطلح مقيد ومحدود بمحدودية الموضوع المستعمل فيه، على عكس كلمات اللغة التي يتعدى استعمالها إطار الموضوع إلى إطار المفهوم، إذن المصطلح هو مفهوم ذاتي

خاص باللغة وليس كما يعتقد مفهوما ينتج عن المرور من لغة إلى لغة بسبب الترجمة[16].

إن مثل هذا التعدد في المفاهيم الواردة للمصطلح الواحد ليس مقصورا على اللغة العربية، وإنما هو ظاهرة شائعة في اللغات الأخرى،يقول "**جون لاينز**" "ـJean lyns": « سأستخدم في القسم التالي عددا من المصطلحات التي جاء بها "**أوستن**"Oston" ، إلاّ أنّني لم أعطها التعبير الذي أعطاها إيّاها أوستن بالضبط، ففي بعض الحالات نجد أنّ تفسيره غير واضح على الإطلاق، وفي حالات أخرى يكون تفسيره من الوضوح ما فيه الكفاية إلاّ أنّه مثير للجدل»[17].

تتأثر اللغة العربية بمثل هذا التعدد عندما تكون المصطلحات مما يفد إليها، أو يتصل بالدراسات التي تقوم فيها على حد سواء، ومن الأمثلة على ذلك تلك الدلالات الواردة للمصطلح" Morphème " في اللغة الأجنبية، إذ يقوم لدى علماء اللغة الأمريكيين مقام "**المونيم**" ولدى أتباع مدرسة جونيف، ويدل عند **مارتنيه** "Martinet "على العناصر النحوية كالسابقة واللاحقة وعلامات الإعراب وغيرها[18]. ويعبّرعند "**فندريس**" "Vendrys" عن النسب التي يقيمها العقل بين دوال الماهية، وهي في غالب الأحيان عنصر صوتي (صوت أو مقطع أو عدة مقاطع أحيانا) يشير إلى النسب النحوية التي تربط الأفكار الموجودة في الجملة بعضها ببعض، ويوضح فندريس "Vendrys" مفهومها بالنسبة له من خلال الأمثلة[19].

أما في اللغة العربية، فيتبع كل عالم المدرسة اللغوية التي تأثر بها، أو رأي العـالم الذي يوافق منهجه، فنجد أن د.السعران ود. تمام حسان مثلا، يتبعان

"فندريس" "Vendrys" في التعريف الذي يذهب إليه، وهذا ما يأخذ به كمال بشر في تناوله لهذا المصطلح في كتابه: "دراسات في علم اللغة" [20].

هذا الأمر يدعو إلى تحليل مضمون المصطلح وحدود ميادين استخدامه، وعدم إغفال السمات المميزة له ومواقعه بالنسبة للمنظومة الاصطلاحية التي ينتمي إليها، والأبعاد الدلالية له عند العلماء الذين يستخدمونه تمهيدا لتحديد الدلالة المشتركة له بين العلماء، ولا بد من الأخذ بالحسبان أنّ مفاهيم هذه المصطلحات قابلة للتغير تبعا لأمور، أبرزها حداثته وشيوع استخدامه بين عدد من المدارس أو الاتجاهات اللغوية[21].

وبالمقابل نجد علماء يستخدمون مصطلحات لحمل مفهوم واحد ومن ذلك استخدام مصطلحي "semiology" و"semiotics" للدلالة على مفهوم واحد، وإنْ كان هناك فرق بين المصطلحين كما يوضحه د. سمير ستيتية: « أنّ هناك فرقا بين كلمتي Semiology و Semiotics ، وان كانتا تستخدمان حتى الآن للدلالة على مضمون واحد، بل ينبغي أن يكون بينهما فرق، فقد نترجم كلمة Semiology بعلم النظم السيميائية، ويكون مجال هذا المجال سَاعَتَئذ دراسة النظم الاشارية المختلفة جريا على ترجمة كلمة Phonology بعلم النظم الصوتية، ثم قد نترجم كلمة Semiotics بعلم السيميائيات جريا على ترجمة كلمة Phonetics بعلم الأصوات»[22].

كما نجد كلمة السياق تقابل عند بعض اللغويين مصطلح: Associative، وتقابل مصطلح Suntagmatic وتقابل أيضا مصطلح Contextuel[23].

إن مثل هذا الاستخدام يقلل من درجة الوضوح، ويؤدي في حالات كثيرة إلى اللبس والغموض نتيجة لعدم الدقة في وضع المصطلحات، من هنا لا بد من

الأخذ بأهم مبدأ في وضع مقابل عربي لمصطلح أجنبي، وهو أن ينظر إلى المدلول الاصطلاحي للفظ الأجنبي قبل معناه اللغوي، ومن ثم يختار اللفظ العربي المناسب لذلك المدلول، ذلك أنّ كثيرا من المصطلحات الحضارية والعلمية قد لا يؤدي معناها اللغوي إلاّ جزءا ضئيلا من مدلولها الاصطلاحي، أو لا يربط بين هذين فيها إلاّ علاقة ضعيفة، ولكن واضعي المصطلح يتواضعون على إضفاء مدلول معيّن على لفظه عندما لا يجدون اللفظ أو الألفاظ القليلة التي تؤدي ذلك المدلول وتستوعبه.

إن دلالة المصطلح أخطر من لفظه، فالدلالة هي الغاية القصوى التي يتطلبها الباحث لذلك ينبغي أن تكون محددة ومضبوطة، ومن جوانب اختلال دلالة المصطلح اللساني ما يأتيه من تعميم وغموض مبعثه عدم التدقيق في معرفة دلالة المصطلح بين القديم والحديث، فالمصطلح الذي استخدم قديما في دراساتنا اللغوية ثم استخدم في الدرس الحديث أصبح مشربا دلالة جديدة يثير في بعض الأحيان مشكلة ليس من اليسير حلّها، ومن أبرز الأمثلة على هذه الظاهرة مصطلح "**فقه اللغة**" والمجالات التي يتناولها، ومدى ارتباط هذا المصطلح بمصطلح "**علم اللغة**" من جهة، والمصطلح الاجنبي "**الفيلولوجيا**""Philologie " من جهة أخرى، إذ يلحظ كما يقول **عصام نور الدين**، عدم اتفاق لغويينا على معنى كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاثة، وعدم اتفاقهم على ما يدخل في تعريف كل منها وما لا يدخل، بحيث بتنا نقرأ عند الكاتب الواحد، وفي مؤلف واحد، هذه المصطلحات الثلاثة، مرة باستعمال بعضها مكان بعضها الآخر، ومرة ثانية أو ثالثة بالتفريق بينها أو بين بعضها دون أن يكون ذلك واضحا في منهجية الكاتب او حتى ذهنه أو يمكن أن تلحظ ذلك بمتابعة مفاهيم هذه المصطلحات عند العلماء الذين استخدموها(24).

بالنسبة **للفيلولوجيا** فيذكر "**علي عبد الواحد وافي**" أنه بحث غير محدود النطاق ولا متميز الحدود، وذلك أن مدلول هذه الكلمة قد اختلف كثيرا باختلاف العصور والأمم، ولا يزال العلماء يختلفون في فهمها و إطلاقها[25].

ناقش عدد من العلماء هذه المصطلحات الثلاثة وأشاروا إلى المجالات التي يمكن أن يتناولوها في كل واحدة من الدراسات التي يشير إليها كل مصطلح من هذه المصطلحات وأوضحوا مجالات الالتقاء والاختلاف بين هذه المصطلحات الثلاثة [26].

مثل هذه الصورة من عدم الاتفاق على مدلول محدد للمصطلح تقود إلى خلل في الدراسات، وتفاوت في البحث، وعدم التواصل بين العلماء، فيما يقدمونه من أبحاث تتصل بالموضوع الذي لا يستقر مفهومه وهذا من شأنه أن يقود إلى إشكالية أخرى، وهي إشكالية تعدد المصطلحات التي تعبر عن هذا المفهوم غير المستقر أصلا[27].

وعند الوقوف على تعدد المصطلحات الدالة على مفهوم واحد، يجد الدارس أن هذا التعدد جاء على صور متعددة، اختارها واضعو المصطلحات لمصطلحاتهم، ومن مظاهر تعدد المصطلح اللساني:

*** مصطلح**"Phonologie":

1-عرّبه د. محمود السعران إلى: "**الفونولوجيا**" ونجد هذا التعريب عند د. محمد حسن باكلا رفاقه، وعند د. إبراهيم أنيس، ود. نايف خرما [28].

2- كما عُرّب هذا المصطلح إلى:" **علم الأصوات اللغوية الوظيفي**"[29]، وإنْ كان هذا المصطلح ليس دقيقا لأنه يتضمن مفهوم معالجة النظم الصوتية لا الوظائف الصوتية ونفس السبب ينطبق على علم وظائف الأصوات.

3- ونجد د. حلمي خليل قد ترجمه إلى: " **المستوى الفونولوجي**"[30].

4- وقد ورد عند د.عبد الصبور شاهين حين ترجم كتاب الصوتيات لبرتيل مالمبرج بمصطلح:" **علم الأصوات التشكيلي**" و نفس المصطلح قد وظّفه عاطف مدكور و أحمد محمد قدّور[31].

5- ورد عند د.بسام بركة ب:" **صواتة**" وكذلك:" **علم وظائف الأصوات**"[32]، ونجد نفس المصطلح وظفه صالح قرمادي، وكمال بشر[33].

6- ترجمه د. رمزي البعلبكي إلى: "**صوتمية**" والى:" "**علم التشكيل الصوتي**" [34].

7- أمّا د. محمد علي الخولي فقد ترجمه إلى "**علم الفونيمات**" [35].

8- عرّبه د. سعد مصلوح مرّة إلى:" **صوتولوجيا**"، ومرّة أخرى إلى: " **الصونولوجي**" ومرّة إلى :" **المنهج الصوتمي**" [36].

9-ونجد د. تمام حسان قد ترجمه إلى:" **التشكيل الصوتي**" وكذلك إلى: " **الصوتيات**"[37].

ما يمكن استنتاجه من ذلك، أنّ هذا التعدد في مصطلح "Phonologie" قد ولّد اللبس في إدراك مفاهيم هذا العلم لماذا؟

- لأن مصطلح "صواتة"و "صوتمية" و"النطقيات" يمكن أن يفهم منها مدلولات بسبب وجود علوم تشترك في جزء منها مع هذا المصطلح.

- كما أنّ استخدام علم "الفونيمات" و"الصوتولوجيا" و"الصونولوجي" و"المنهج الصوتمي" تقودنا إلى مشكلة جديدة وهي مشكلة استخدام المصطلح والصيغة الأجنبية.

- يبقى أن نشير أنّ مصطلح علم وظائف الأصوات يعالج الأصوات بعد انتظامها وليس في أثناء تشكلها.

- يرى بعض العلماء أن الأخذ بالمصطلح الأجنبي أقرب إلى الدقة العلمية، ولذا تشيع مثل هذه المصطلحات في دراساتهم، ومع أن آخرين يفضلون أسلوب الاقتراض[38].

* ومن صور اضطراب دلالة المصطلح اللساني أن مصطلح:Allophone له أكثر من خمس تسميات نذكر منها:

1- ألوفون: وقد نجد ذلك عند أحمد مختار عمر، ومحمد علي الخولي، ومحمد حسن باكلا[39].

2- صوت فرعي: وان كان هذا الاستخدام قاصرا لأنه ليس مصطلحا في الأصل بل هو أحد التعريفات المحتملة غير المحددة، وقد وجدنا هذه التسمية عند سعد مصلوح[40].

3- وهناك من عرّبه إلى: " **عضو الوحدة الصوتية**" وان كانت هذه التسمية ترقى لأن تكون تعريفا وليست مصطلحا[41].

4- كما وجدنا له تسمية" **متغير صوتي**" التي في اعتقادنا لا يرقى إلى كونه مصطلحا لأنه لا يفيد من معاني هذا المصطلح، ولكن د محمد علي الخولي فضل هذا المصطلح[42].

5-وظف رمزي منير البعلبكي مصطلح "**بديل صوتي أو لفظي**"، [43].

6- أمّا أحمد مختار فقد ترجمه إلى " **عضو من الفونيم**" [44]، وإنْ كانت التسمية تغاير حقيقة المصطلح، لأنّ الألوفون عنصر مستقل تماما عن الفونيم رغم أنّه يشترك معه في بعض الصفات.

7-استخدم بعض الـدارسين المحـدثين إمكانيات أخـرى في إيجـاد المصطلح المقابل لـ Allophone باستـخدام أحد مشـتقات "ص و ت" في الـدلالة عليه، وبما أنّه أصغر وحـدة صـوتية، فإنّه يمكن استغلال أسلوب التصغير المعهود بالياء وضم الأوّل و إلحاق الواو والنون فتصبح التسمية "**صُوَيْتُون**"، وقد اختار د. سمير استيتية هذا المصطلح [45].

قد نلحظ مثل هذا الخلاف في الكتابة والنطق للمصطلحات في لغتها الأجنبية قبل انتقالها إلى العربية، ذلك أنه قد يغير الدارسون صورة المصطلح النطقية والكتابية لما يحسونه في هذا المصطلح من طول نحو ما نجده في مصطلح "Morphophonologie" الذي تغير إلى "Morphonology" و مصطلح "Morphophnemics" إلىMorphonemic وSpectrograph" و الذي تغير إلى "Spectograph"[46].

أما بالنسبة لمثل هذا التغيير في المصطلحات في اللغة العربية، فإنه يرجع في أغلب الأحيان إلى عدم وجود حروف عربية مقابلة للحروف الأجنبية التي يتكون منها المصطلح، واختصاص كل لغة بحروف لا توجد في غيرها أمر شائع في اللغات، وقد يتركز مثل هذا التغيير في حروف العلة. من الأمثلة على هذه الصورة من الخلاف، ما نجده في مقابلة المصطلح الأجنبي"Phonology" إذ يقابله أحمد مختار عمر بـ"**فونولوجي**" وفي مجلة الفكر "**فنولوجيا**" ومن ذلك مقابلة المصطلح الأجنبي "Ablative"، بـ"**الأبلتي**"، و"**الابلاتيف**" وقد يتجاوز الأمر ذلك حين نجد صورا متعددة لكتابة المصطلح عند المؤلف الواحد، بل في الكتاب الواحد على نحو ما نجده في مقابلة مصطلح ""Spoonerism"، بـ"**السبونرية**"، و"**سبونرزم**" [47] ، وما نجده من مقابلة المصطلح "Simiotics"

في كتاب واحد بثلاث صور: "**السيميائية**"، "**السيميوطيقيا**"، و"**السيميولوجيا**" [48]، وهناك من يكتب هذا المصطلح بصورة "**السيميوتية**"[49].

نتائج تعدد المصطلح اللساني.

1- إن التعدد الذي يعاني منه المصطلح اللساني، والذي كان وليد رواسب متعددة ومتنوعة، للأسف كان له دور سلبي في حقل اللسانيات، فالتشتت يؤثر في التفكير العلمي العربي نفسه، فهو يعيقه عن استيعاب المفاهيم المستجدة، وعن الإبداع والتقدم ومجاراة العالم في بحوثه واستكشافاته كما تعم الفوضى والاضطراب أعمالنا العلمية وتفكيرنا، بل قد يوقعنا في التناقض والخطأ أحيانا[50]، كما أدخلنا هذا الاختلاف في سراديب التيه والضياع، بل قتل فينا روح الإبداع، وأصبحنا لا نملك حتى الحق في إجراء تعديل أو إضافة للمنهج اللساني المسطر، إنه يجعلنا نتقهقر بالفكر من الإبداع إلى النقل ومن الاجتهاد إلى التقليد، مما يؤدي بالضرورة إلى غياب الإنسان العربي على الحضور في مجالات العلوم، والاكتشافات التقنية والإبداع.

2- هذا الأمر يدفعنا إلى أن نتساءل عن ذلك اللجاج الذي يقع فيه أطراف التواصل اللغوي مما أدى في الأخير إلى ضياع المعنى المقصود، وظهور فوضى ضبابية معرفية يغذيها ذلك التباين والتباعد في المصطلحات، وهذه الحيرة لازالت تصاحب أفكار العلماء والكتاب والطلبة، ولدت في الأخير قلقا لغويا أدى هو نفسه ألى اللجوء من جديد إلى اللغات الأجنبية، منتجا ما يمكننا أن نسميه ب: "الإحباط اللغوي" الذي لا يرجع في الأصل إلى العجز اللغوي غير المرتبط باللغة بحد ذاتها، بل إنه على صلة أكثر بحامليها[51].

3- كما نلاحظ العي واللبس في إدراك مفاهيم هذا العلم، حيث أضحى لدى الكثير من دارسينا ضبابيا لا يعرف من أين يؤخذ، ولكن يؤلمنا كذلك ذلك

النفور والتأفف الذي ألفناه لدى كل مطلع مبتدئ، لا لشيء إلا لفقدانه مفاتيح هذا الحقل بصفة عامة، ولجوء البعض الآخر الذي يملك اللغات الأجنبية تفضيل مطالعته بلغة أخرى كونه المبتكر والواضح لمعالم هذا العلم(52).

4- إن المعضلة الاصطلاحية من شأنها أن تقف عائقا أمام مردودية العلم ونجاعته وتعرقلها، وقد أشار ابن خلدون قديما إلى أنّ كثرة التأليف في العلوم تعوق عن التحصيل لاختلاف الاصطلاحات في التعليم يقول: « اعلم أنّه مما أضرّ بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلّم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلّم إلى حفظها كلّها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولا بدّ دون رتبة التحصيل»(53)، كما أدى هذا التباين إلى خلق لغات علمية عربية عديدة قائمة بالذات(54).

5- كما تشكو بعض المؤسسات التقنية والصناعية العالمية التي لها علاقات مع العالم العربي المستهلك، من عدم توحيد المصطلحات في الوطن العربي، لأنها تحرص على مخاطبة السوق العربي، وتريد مصطلحات موحدة للاستخدام والتعامل، لأنها تستخدم الترجمات الآلية والفورية التي يهمها المصطلح الموحد،إذ يوقعها التشتت في الخلط والاضطراب والخطأ(55).

6- ولعل من أخطر نتائج هذه المشكلة ما أشار إليه عمار بن يوسف في بحثه "توحيد المصطلح القانوني والمالي في البلاد العربية" حيث يقول: " والأصل في الأمر أن ما يوحد بين أفراد قوم هو بالتحديد ما يتميزون به عن الآخرين، فإذا ما ظهرت داخل نفس القوم (كذا) فوارق لغوية واصطلاحية، و إذا ما سار بها التاريخ إلى الترسخ سياسيا واجتماعيا فمعنى ذلك أن القوم صائرون إلى التجزئة لا محالة"(56).

7- اضطراب الباحثين في تحديد المدلول الحقيقي للمصطلح نتيجة لكثرة المصطلحات وعدم وضوحها، وكون هذه المصطلحات في مجموعها تحمل دلالات مختلفة، فلا يعرف الباحث أيّها يستخدم ليكون قد تجاوز مظنة الخطأ.

8- انشغال عدد من المختصين بالبحث عن مصطلح دقيق يؤدي المعنى بالطريقة المثلى، بدلا من الانطلاق للإبداع في مجال علم اللغة، هذا الإبداع الذي نحن بأمس الحاجة إليه للمشاركة في تقدم اللسانيات والنهوض بلغتنا العربية.

9- إظهار اللغة العربية على أنّها لغة ضعيفة لا تستجيب لمتطلبات التكنولوجيا الحديثة، إذ تؤدي كثرة المصطلحات المقابلة للمصطلح الواحد إلى الخلط عند نشوء مصطلحات قريبة في دلالتها لهذا لمصطلح، فينعت إلى اللغة العربية على أنّها لغة ضعيفة ويلجا إلى استخدام الألفاظ والصيغ الأجنبية، فالعربي بدأ يستهين بلغته، ويحسّها قاصرة على أن تسع المعاني الجديدة المعاصرة تعبيرا، وذلك نتيجة انبهاره بقدرة اللغات الغربية على ذلك. وينسى ما للعربية من طاقة معجمية لا تنفذ في توليد ما لا يعد ولا يحصى من المصطلحات، لو نحن أحسنا التعامل معها،وأحسنا مغازلتها بما يجب من الدقة والاجتهاد.

إنّ هذه الصعوبة لا تكمن في اللغة العربية، بل تكمن في المهتمين أنفسهم إذ لا بد من التمكن من هذه العلوم الحديثة، والتمكن من قواعد اللغة العربية وقوانينها وطرق التعبير فيها، فهي غنية بطرق التعبير، وغنية بنوع الصيغ مما يجعل المبدع في أكثر الأحيان في غنى عن ابتداع ما يخالف المقاييس المعهودة، أما ما يخرج على المقاييس المعهودة في بعض الأحيان فإنه يمكن أن تتمثله اللغة ويصبح بعد فترة شيئًا طبيعيًّا فيها.

الهـوامـش:

1-هنري فليش، العربية الفصحى تعريب عبد الصبور شاهين، ص: 14.

2-ممدوح خسارة، علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية، ص: 16.

3-مصطفى الشهابي، توحيد المصطلحات العلمية العربية، ص: 537.

4-عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، ص:224.

5-ينظر: وليد محمد السراقبي، فوضى المصطلح اللساني، ص: 381، 382، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

6-مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، ص: 144.

7-عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، ص: 405.

8-شاكر الفحام، قضية المصطلح العلمي، ص: 705، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

9- مدكور إبراهيم، 1959-1960م، مدى حق العلماء التصرف في اللغة، ص:151، مجلة مجمع اللغة بالقاهرة، المجلد 11.

10-عبد الكبير الحسني إشكالية المصطلح اللساني، www.annbaa.org/nbaa news

11-عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص72.

12-أحمد محمد قدّور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص: 14.

13-أحمد مختار عمر، المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية ص: 583،مجلة عالم الفكر، الكويت.

14-وليد محمد السراقبي، فوضى المصطلح اللساني، ص: 381، 382.

15-بوحسن أحمد: مدخل الى علم المصطلح: المصطلح ونقد النقد العربي الحديث، ص: 84.

16-مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي: ص55.

17-جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ص: 194.

18-لطيف زيتونة، الألسنة والاصطلاح العربي، ص: 100، مجلة أفاق عربية.

19-فندريس، اللغة، ترجمة الدواخلي والقصاص،ص: 105، 106.

20- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ص: 222.

21-محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص: 229.

22-مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، ص: 141.

23-سمير ستيتية، السيميائية اللغوية وتطبيقاتها على نماذج من الأدب العربي، ص: 36.

24-عصام نور الدين، فقه اللغة والفيلولوجيا بحث في المصطلح، ص: 336. مجلة الفكر العربي، بيروت، لبنان

25-علي عبد الواحد الوافي، علم اللغة، ص: 14.

26- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ص: 222.

27-عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص:80.

28-محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ص:111.

- حسن باكلا وآخرون، معجم مصطلحات علم اللغة، ص: 68.

- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص: 4.

- نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص: 266، عالم المعرفة، الكويت.

29-علم اللغة(مقدمة للقارئ العربي) ص: 194.

30-جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، ص:51.

31-برتيل مالمبرج: علم الأصوات، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص:2.

-عاطف مدكور: علم اللغة بين التراث والمعاصرة ص: 101.

-أحمد محمد قدّور: مبادئ اللسانيات، ص: 95.

32-بسام بركة: معجم اللسانية، ص: 159.

33-جان كانتينو: دروس في علم الأصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي،ص: 17.

- كمال بشر: علم اللغة العام- الأصوات- ص: 29.

34-رمزي منير البعلبكي: معجم المصطلحات اللغوية، ص: 378.

35-محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري ص: 214.

36-سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام، ص: 19- 181.

37-تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص: 111- 34.

38-مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، ص: 53.

39-أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص: 171

-محمد علي الخولي: معجم اللغة النظري ص: 11.

-محمد حسن باكلا وآخرون: معجم مصطلحات علم اللغة ص: 3.

40-سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام ص: 185.

41-محمد حسن باكلا وآخرون: معجم مصطلحات علم اللغة ص:3.

42-محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري ص: 11.

43-رمزي منير البعلبكي: معجم المصطلحات اللغوية ص: 39

44-أحمد مختار عمر دراسة الصوت اللغوي ص: 194- 356.

45-سمير استيتية: نحو معجم لساني شامل وموحد ص: 169، مجلة أبحاث اليرموك.

46-أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي ص: 48، 49.

47-المرجع نفسه، ص: 86.

48-ميلكا إفيتش، ترجمة صلاح فضل ووفاء البيه، اتجاهات البحث اللساني، ص490، 491.

49-باكلا وآخرون، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، ص 86.

50-الحمزاوي، محمد رشاد، العربية والحداثة، أو الفصاحة فصاحات، ص85.

51-عبد الحليم بن عيسى، مصطلحية اللسانيات إشكاليات وآفاق، ص 224، مجلة المصطلح.

52- المرجع نفسه، ص:232.

53-ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ص: 531.

54-فاضل تامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح، ص: 169.

55- عمار بن يوسف، توحيد المصطلح القانوني والمالي في البلدان العربية، ص 03.

56-عمار بن يوسف، المرجع نفسه، ص: 03.

مصادر ومراجع البحث:

1- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1989.

2- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

3- أحمد محمد قدّور:

- اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1422ه، 2001م.

- مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2001.

4- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة 3، 1985م.

5- برتيل مالمبرج: علم الأصوات، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشاب، القاهرة، ص: 2.

6- بسام بركة: معجم اللسانية،جروس برس، طرابلس، ط1، 1985.

7- تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء المملكة المغربية، ط2، 1982.

8-جان كانتينو: دروس في علم الأصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية، تونس، 1966.

9- جون لاينز:

- اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1978.

- نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، ط1، 1985.

10-حسن باكلا وآخرون، معجم مصطلحات علم اللغة، مكتبة لبنان، بيروت1989

11-الحمزاوي، محمد رشاد، العربية والحداثة، أو الفصاحة فصاحات، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس 1982م.

12-رمزي منير البعلبكي: معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990.

13-سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، القاهرة، 1980.

14-عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات،الدار العربية للكتاب تونس، 1984.

15-عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2000.

16-علي عبد الواحد الوافي، علم اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، ط9.

17-عمار بن يوسف، توحيد المصطلح القانوني والمالي في البلدان العربية، بحث مقدم إلى ندوة التقييس والتوحيد المصطلحيان في النظرية والتطبيق، تونس، 1989م

18-فاضل تامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1994م

19-فندريس، اللغة، ترجمة الدواخلي والقصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، د. ت.

20- كمال بشر: علم اللغة العام- الأصوات- دار المعارف، مصر، 1980.

21-محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) مكتبة النهضة العربية، بيروت د.ط.

22- محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

23-مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية.

24-مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1424هـ- 2003م.

25-ممدوح محمد خسارة، علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية، دار الفكر، دمشق، 2008.

26-ميلكا إفيتش، ترجمة صلاح فضل ووفاء البيه، اتجاهات البحث اللساني، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط2: 2000.

27-هنري فليش، العربية الفصحى تعريب عبد الصبور شاهين، بيروت، دار المشرق، ط2، 1983.

المجلات والدوريات:

1- أحمد مختار عمر، المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية ص: 583، عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، 1989، الكويت.

2- سمير ستيتية، السيميائية اللغوية وتطبيقاتها على نماذج من الأدب العربي، مجلة أبحاث اليرموك، م7، ع2، 1990.

3- شاكر الفحام، قضية المصطلح العلمي، مجلة مجمع اللغة بدمشق، المجلد 59.

4- عبد الحليم بن عيسى، مصطلحية اللسانيات إشكاليات وآفاق،مجلة "المصطلح".جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.

5-عصام نور الدين، فقه اللغة والفيلولوجيا بحث في المصطلح، مجلة الفكر العربي، بيروت، لبنان، العدد 32، الطبعة 1986م.

6- مدكور إبراهيم، 1959-1960م، مدى حق العلماء التصرف في اللغة. مجلة مجمع اللغة بالقاهرة، المجلد 11.

7- مصطفى الشهابي، توحيد المصطلحات العلمية العربية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الأربعون ج 3 .

8- نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، عالم المعرفة، الكويت.

9- وليد محمد السراقبي، فوضى المصطلح اللساني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثاني، المجلد الثالث والثمانون، ربيع الأوّل 1469ه- نيسان 2008م.

10-لطيف زيتونة، الألسنة والاصطلاح العربي، مجلة أفاق عربية،العدد 06، 1986

11-عبد الكبير الحسني، إشكالية المصطلح اللساني، www.annbaa.org/nbaa news .

النص العلمي العربي المترجم وإشكالية التواصل

د./الشريف بوشحدان
ج. باجي مختار –عنابة-

توطئة:

يُعدُّ التواصل مع النص العلمي المترجم من الإشكالات التي تقف عائقا أمام انتقال المعارف والنظريات والمناهج إلى اللغة العربية انتقالا يسيرا سريعا. وقد بُذلت جهود كبيرة من الباحثين والمؤسسات العلمية من أجل بلوغ هذه الغاية الحضارية.

وهدفي من هذه الدراسة معالجة هذه الإشكالية في إطارين؛

الأول لساني علمي ضمن ما يسمى بالترجمة التأصيلية التي تقتضي من المترجم إنجاز نص يوازي النص الأصلي من حيث المحتوى العلمي دون زيادة أو نقصان بالأسلوب المناسب.

والثاني تواصلي تداولي؛ إذ اللغة العلمية بكل بساطة هي تلك التي تمكن من نشر العلم وإنتاجه. وإن تشجيع هذا المستوى التواصلي من اللغة هو تدعيم للغات الوطنية وخدمتها الخدمة الحضارية حتى تكون لغات علم وتكنولوجيا، بها يرتقي البحث العلمي والتقني، وبفضلها تكتسب المعارف وتنتشر، وهما معا دليل على حيويتها وصلاحها للتواصل العلمي الناجع.

أولا: مفاهيم أساسية في الدراسة

إذا كانت الترجمة في جوهرها هي نقل المعنى من لغة إلى لغة أخرى، وإذا كانت كل لغة تشكّل كلاّ متفرّدا، وتقطّع التجربة الإنسانية بكيفية مخصوصة، فإنّه لا يمكن الحصول على مدلولات متطابقة بين لغتين أو أكثر، فتؤول الترجمة حينئذ إلى اعتماد كلمات ذات مدلولات تقريبية[1].

ومن هنا لم يعد ينظر إلى الترجمة إلاّ من خلال النصوص، فاعتبرت عمليةً تُنفذ على النص انطلاقا من نص آخر في لغة أخرى، ففسّرت بأنها استبدال نص في اللغة الأولى بنص آخر في اللغة الثانية[2]. وإن أهم حدث ترجمي في الوقت الراهن هو إعطاء عناية كبيرة للنص في اللغة المترجم إليها وللقارئ المترجم له.

أما النص العلمي فيعرف بوظيفته، وهو نقل محتوى دلالي خاص بنشاطات معرفية تواصلية دون هدر للمعلومات ودون غموض ولو كان ضئيلا. ويختص النص العلمي بما يختص به الخطاب العلمي من مقومات ينبغي أن تجتمع فيه دون غيره، وهي:

1-**الوضوح**: وهو عدم اللّبس، فلا ينبغي أن يجعل للفكرة الواحدة ما يحتمل معنيين أو أكثر، إنما تعرض الفكرة العلمية ناصعة لا غموض فيها. تختار حينها الكلمات بدقة وتستعمل الجمل والعبارات بعناية وتحكم كبيرين[3]، ينعدم فيها المجاز وتغيب عبارات التفخيم والإجلال.

2- **الموضوعية**: يفترض في النص العلمي "اختفاء شخصية المؤلّف، وإن ظهر منها شيء فبصورة عفوية غير مقصودة، لا تؤثر في المحصلة الفكرية العلمية المنشودة[4].

3- **الانتظام**: إن النص العلمي كلّ شامل من الأقوال المتماسكة التي يفترض فيها الخلو من التناقض، وأن تكون مرتبة غير متناقضة لتشكّل بناء هرميا مرصوصا من الحقائق والأفكار التفصيلية الدقيقة[5]، وهذا أقرب إلى روح العلم، "فعلى الرغم من حاجتنا إلى حجارة لبناء المنـزل، فلا تصبح هذه الحجارة منـزلا إلاّ إذا نُظّمت ووُضعت بشكل هندسي حسب مخطط"[6].

4- **الاقتصاد**: هو الاستغناء عن الكثير بالقليل[7]، وهو في اللغة الإيجاز، والإيجاز من الدقة، وهما من أعمدة المعرفة العلمية التي تلجأ إلى استعمال الرموز. وكلّما كانت هذه الرموز منظمة متكاملة، معبرة عن تحليلنا للواقع من دون إطناب أو غموض كانت أكثر استحسانا، وكانت محل اتفاق بين المشتغلين بذلك العلم، "إذ لا معرفة بغير تحليل، ولا تحليل بغير رموز"[8].

ويمكن أن نصنّف النصوص العلمية من منظار تواصلي بحسب مستويات اللغة العلمية. وهذا يمكّننا من تحديد الأهداف، وضبط حاجات المتعلمين، ومعرفة المادة العلمية، وطبيعة النصوص وأنواعها التي يمكن أن تكون سندا تعليميا.

ومهما اختلف الباحثون في تعداد مستويات اللغة العلمية، فإنّهم يتفقون عموما على تفرّعها إلى مستويين هما:

أ/- اللغة العلمية العامة: la langue scientifique générale

ب/- اللغة العلمية المتخصصة: la langue scientifique spécialisée

أما **اللغة العلمية العامة** فهي وسيلة تواصل معرفي أو مهني عام. يفترض أن تكون معروفة لدى فئة واسعة من المنتمين إلى قطاع معين من المعرفة والمهنة، مثل قطاع الصحة، والفلاحة، والتجارة، والقوّات المسلّحة، وصناعة الحديد والصلب، والبتروكيمياء...[9]

أما **اللغة العلمية المتخصصة** فتتميّز عن اللغة العلمية العامة بمصطلحات مخصوصة، أي لا توجد في غيرها، وإن وجدت في قطاع آخر أو في غيره من الميادين العلمية الأخرى، فغالبا ما تكون مفاهيم مصطلحاتها مختلفة[10].

وما يجعل العلوم يختلف بعضها عن بعض مصطلحاتها، يقول "آلان ري ALAIN REY": "إن البحث الاصطلاحي الذي يعد واحدا من الأنشطة العلمية لا يخص من اللغة إلاّ المفردات"[11]

إن اللغة العلمية المتخصصة تجسّد الصفتين الأساسيتين للمصطلح في أبعد صورها هما: **الوضوح والدقة** إذ إن مجرّد إعطاء معلومات تقريبية يعود بنتائج مؤسفة على الصعيد التفاهم والتواصل العلمي.

ثانيا:العوائق التي تحول دون بلوغ النص العلمي القارئ العربي:

إن أكبر العقبات التي تواجه المترجم بشكل عام أنه منقوص الحرية؛ حرية الكتابة أو الحرية الفكرية، فهو مطالب بأن لا يخرج عن النص الأصلي، وأن ينقل محتواه بكل أمانة مهما اختلفت اللغتان لسانيا وثقافيا، إنه مجبر على إتقان مهارتين في لغتين مختلفتين؛

- مهارة الفهم في اللغة المترجم منها.
- مهارة التحرير وفنون الصياغة العلمية في اللغة المترجم إليها.

أما أبرز ما يواجه المترجم العربي على وجه الخصوص فهو قدرته على إضفاء الطابع العربي الأصيل على النص المترجم إليه مع أخذ مستلزمات الوضوح والإبانة حتى يكون النص بليغا، وبلاغته تلك من التبليغ والتوصيل.

ومما لا شكّ فيه أن النص العلمي العربي المترجم يفتقد -على العموم- إلى مبدأ التكافؤ مع النص العلمي في اللغة المصدر (المترجم منها)؛ قصور أو تشويه على مستوى نقل أفكار النص الأصلي، ثم خرق قواعد اللغة المترجم إليها -وهي هنا اللغة العربية- وعدم استثمار إمكاناتها التعبيرية لنقل محتوى النص العلمي في اللغة المترجم منها(اللغة المصدر). إضافة إلى عدم التحكّم في اللغة العلمية المتداولة اصطلاحيا وأسلوبيا.

إن المترجم-كما لا يخفى على أحد منا- محكوم عليه أن يكون أمينا، وأمانة النقل عنده تخصّ نقل المضامين العلمية من لغة إلى أخرى لا نقل أشكالها. وقد يعتقد البعض أن الأمانة تفرض على المترجم إلى اللغة العربية الالتزام بأسلوب النص الأصلي. والحقيقة أن هذا الإجراء قد يخلّ بالأمانة العلمية ذاتها فيحدث تشويها في المعنى أو يجعله غامضا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الالتزام بأسلوب النص الأصلي أمر عسير وغير ممكن دائما لأن لكل لغة نظامها الخاص وأساليبها في التعبير، إضافة إلى طريقتها في تقسيم العالم والأشياء. ولنا في الترجمة العربية لنصوص "دو سوسير" أمثلة متعددة، من ذلك أن لفظة "Terme" ترجمت عند أحدهم بلفظة "مصطلح" والمعنى غير ذلك، لأن المقابل الأصوب في اللغة العربية هو لفظة " الحد" جمع حدود. وفيما يلي الفقرة التي وردت فيها لفظة "Terme" في النص المصدر:

"Tous ce qui précédé revient à dire que dans la langue il n' y a que des différences .Bien plus une différence suppose en général des termes positifs entre lesquels elle s'établit; mais dans la langue, il n'y a que des différences sans termes positifs".(12

فقد ترجمت كما يلي: " لا يوجد في اللغة إلاّ الاختلافات- والأمر الأكثر أهمية أن الاختلاف بشكل عام يقتضي ضمنا مصطلحات إيجابية بين ما يقرّره

أو يحدّده الاختلاف، ولكن لا يوجد في اللغة إلاّ الاختلافات بدون مصطلحات إيجابية"[13]. والحقيقة أن البنية الكلية للنص، وما يحتويه هذا النص بشكل عام يجعل كلمة "مصطلح" غريبة في ذلك الموضع بالذات. والقارئ المتخصص يدرك أن هناك خللا في نقل المفهوم إلى اللغة العربية، ولهذا الخلل أثره السلبي في توصيل المحتوى العلمي للقارئ العربي، فالكلمة ليست جزءا من الجملة فحسب، بل من النص بأكمله، كونها ملائمة لألفاظه وموضوعه وسياقه العام.

يقول " الجرجاني":" وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"[14]

وهنا نؤكد على ضرورة المعرفة الدقيقة للتخصص الذي ينتمي إليه النص موضوع الترجمة، إذ لكل تخصص علمي أم مهني مصطلحاته الخاصة التي تشكل منظومة من المفاهيم العلمية، تجعل لكل مصطلح مفهومه الخاص داخل ذلك العلم أو التخصص.

ومن الأجدر أن يستثمر مدرّس الترجمة هذه المقاربة فيحدّد ميدان التخصص الذي ينتمي إليه النص، ويستخرج المصطلحات الأساسية التي فيه. فإذا أخذنا –مثلا- النص:" العلم والطعام لـ"فؤاد صروف" المأخوذ من كتاب " التمارين التطبيقية لكتاب الترجمة العلمية لـ"أنطوان شكري مطر"[15] لوجدناه يحتوي على مجموعة من المصطلحات الدالة على الزراعة العلمية وهي[16]:" أنواع البذور، أنواع المحاصيل، آلات زراعية، القيمة الغذائية للأطعمة، ثقافة غذائية، وعلى رأسها مصطلح: تزريع "Agricultirisation" الموضوع قياسا على مصطلح "تصنيع" "Industrialisation". وقد قدّم المؤلف للمصطلح شرحا يمكن اعتماده

في فهم تفاصيل النص، مقابله العربي هو :" التزريع هو الزراعة التي تطبّق عليها آيات العلم الحديث" في دراسة الترجمة وما تحتاج إليه من عناصر لتغذيتها.

وعلى المترجم إلى اللغة العربية أن يكون على دراية تامة بميدان التخصص في اللغتين المصدر والهدف. ومع ذلك فلا يمكن الاطمئنان أن لكل مصطلح أجنبي داخل التخصص الواحد مقابلا واحدا لا يتغيّر، وهو بذلك جدير بأن يحدث التكافؤ مع النص المترجم، وهذا غير صحيح في أحايين كثيرة يقول "نيوبرت و شروف" SHREVE"و"NEUBERT" :" لا يمكن القول عن بعض المصطلحات المحدّدة القياسية من مجالات التقنية والعلوم إنها متكافئة، وحتى هذه المصطلحات يمكنها أن تأخذ معاني جديدة عندما تدخل النصوص وتصبح أجزءا من استراتيجيات الخطاب"[17] فلفظة "universel" من قول "دوسوسير" عند حديثه عن ضرورة معرفة عالم اللسان لعد كبير من اللغات لاستخراج القواعد العامة المشتركة تعني ما هو كلي من الكلّيات اللغوية des universaux) (du langage، وليس بالضبط ما تحمله كلمة " عالمي" من معنى مثلما جاء في ترجمة "أحمد نعيم الكرّاعين" لكتاب "دوسوسير" عندما ترجم النص الآتي:

La linguistique est obligé d'en connaître le plus grand nombre possible, pour " tirer de leur observation et leur comparaison ce qu" il y a d'universel"[18]

كما يلي: " فاللغوي مجبر على تثقيف نفسه (الاطلاع) بأكبر عدد ممكن من اللغات حتى يمكنه تحديد ما هو عالمي فيها عن طريق ملاحظاتها ومقارنتها"[19]. وعليه يصبح القارئ مطالبا بأن يدرك ما يعنيه النص لا ما تعنيه اللغة. وهذا الذي ينبغي أن يركّز عليه معلّم الترجمة، فيقيم علاقة بين النص والقارئ (أو المتعلّم)، قوامها الأخذ والعطاء، بمعنى ماذا يقول لي النص؟ وماذا

أفهم منه؟ قياسا على تعبير " ياوس" عن النص الأدبي"ماذا يقول لي النص وماذا أقول له؟"[20] وبعبارة أخرى متى يتحقق التفاعل مع النص العلمي المترجم؟

ثالثا: التفاعل مع النص ومصداقية الترجمة العلمية:

إن تحقيق التفاعل مع النص المترجم يفترض من صاحبه تجاوز كل العوائق اللسانية عامة والمرتبطة باللغة العربية على وجه الخصوص. من تلك العوائق إيجاد المقابل العربي للمصطلح الأجنبي، و إن وجد فكيف له أن يتجنّب إشكالية التعدد الاصطلاحي فيختار أنسب المصطلحات لأدق المفاهيم؟

إن التفاعل مظهر من مظاهر التواصل مع النص، وتحقيق التواصل هو غاية المترجم، أو قل: إن الغاية الأسمى من كل عمل ترجمي هو الوصول إلى التأثير في قارئ النص الهدف بالقدر الذي يحدثه النص المصدر في قارئه. وليس للمبنى في الترجمة من أهمية إلاّ توضيح المعنى. لذلك وجب على المترجم أن يتوخى الأهداف ذاتها التي يصبو المؤلّف إلى تحقيقها لدى القارئ. وعليه فهو مطالب باستكشاف النص الأصلي، والاستكشاف يناقض الاستنساخ، ومعناه أن يدرك المترجم البنية الدلالية للنص الأصلي و يعرف مفاصله وارتباطاته المنطقية قبل تحويلها إلى نص يعادله دلاليا ومنطقيا ولكن يتفاضل عنه تركيبيا.[21]. وأفضل ما ينجزه في هذا الإجراء هو التغلّب على الفوارق بين البنيتين اللغويتين (صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا ومعجميا)، والتحرّر من النقل الحرفي ومن التعامل السلبي مع النص العلمي المكتوب، والتدرّب على التأويل و إعادة الصياغة لا على الاستنساخ والحرفية. وتمثيلا لذلك نأخذ فقرة عربية مترجمة من محاضرات"دوسوسير" عن كيفية التخلّص من النمط التعبيري في النص الأصلي وتأصيل أسلوب بديل يكافئه دلاليا في النص العربي الهدف. والفقرة هي مقدمة حديث"دوسوسير" عن أن اللسان شكل وليس مادة،ترجمة الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن الحاج صالح، يقول:" إن فكرنا إذا اعتبرناه في إطاره النفساني وجرّدناه عن الإبانة بالألفاظ، فإنه لا يكون حينئذ إلاّ كتلة مبهمة لا شكل لها، فإن الفلاسفة واللغويين اتفقوا دائما على أنه لو لا الأدلّة لما استطعنا أن نميّز بين فكرتين بوضوح واستمرار. فالفكر إذا اعتبرناه في ذاته ليس إلاّ سديما (nébuleuse) لا شيء يتحدد فيه بالضرورة، ولهذا فليست هناك معان مسبقة الوجود ولا شيء يتميّز منها قبل ظهور اللسان"[22].

أما النص الأصلي المترجم فهو:

"psychologiquement, abstraction faite de son expression par les mots, notre pensée n'est qu'une masse amorphe et instinct. Philosophes et linguistes se sont toujours accordés à reconnaître que, sans le secours des signes nous serions incapables de distinguer deux idées d'une façon claire et constante. Prise en elle-même , la pensée est comme une nébleuse ou rien n'est nécessairement délimité. Il n'y a pas d'idées préétablies et rien n'est distinct avant l'apparition de la langue"[23].

الملاحظ عن النص العربي المترجم أنه متحرّر تماما من القيود النحوية والأسلوبية للنص الأصلي؛ فالمترجم لم يجار صاحب النص في تقديم الحال (ADVERBE) (psychologiquement) وتأخير المسند إليه (SUJET) (notre pensée)، بل فعل عكس ذلك إذ قدّم المسند إليه (موضوع الحديث) وجعله في مقدمة الفقرة مسبوقا بحرف التوكيد "إن" (إن فكرنا)، والإجراء نفسه يتكرر قبل نهاية الفقرة إذ تقدّم المسند إليه ذاته (الفكر) وتحوّل محتوى الحال (ADVERBE) في النص المصدر وهي عبارة (Prise en elle-même) إلى معنى الظرفية لما يستقبل من الزمان ومتضمنا معنى الشرط في اللغة الهدف.

وقد جاء المسند إليه مقترنا بإذا الظرفية في الجملتين. وكان جواب إذا فيهما متضمنا معنى الحصر (لو لا) و(ليس إلاّ) وكلاهما يدل على التوكيد، في حين أن الحصر في النص الأصلي وجد مع الجملة الأولى فقط.

فالبحث عن التكافؤ أو التعادل في الترجمة (translation /équivalence) إذن يتم انطلاقا من مقابلة نص لنص وليس من مقابلة جملة لجملة. وهذا ما ينبغي أن يركّز عليه معلّم الترجمة فيلجأ مثلا إلى تقسيم الجمل الطويلة في اللغة الأجنبية (إنجليزية أو فرنسية) إلى جمل قصيرة في اللغة العربية. وقد يترجم نصا دون أن يجد حاجة لأدوات الربط، وقد يحذف عددا من الكلمات إذا كان حذفها لا يؤثر على الدلالة الجوهرية للنص ولا يفقده تماسكه الداخلي(24). وقد يلجأ إلى الشرح فيكون النص الهدف أوسع من النص المصدر. وقد يلجأ إلى التقليص بالتكثيف من المحتوى الدلالي للنص الهدف فيكون النص المترجم أقصر من النص الهدف. المهم هو الحفاظ على المحتوى البلاغي. لذا كانت عملية الحذف في الترجمة العلمية ممكنة على مستوى العناصر الهامشية، وهي تلك التي لا يؤدي غيابها إلى إحداث انقطاع أو تفكّك في بنية النص الدلالية(25). أما العناصر الأساسية فهي ما يتضمّنه النص من أدلة مركزية للخطاب أو فرضياته وحجج المؤلّف ونتائج البحث وفق انتظام عضوي ممّا يحقّق للنص انسجامه وتناسقه.(26)

إن العنصر يكون غير مهم إذا لم يسهم في بناء الأفكار الأساسية للنص، ولا يؤثر غيابه في توضيح مقاصد المرسل، فتكون مفهوما فهما صحيحا لدى القارئ.

وأهم ما ينبغي أن يعرفه دارس الترجمة هو الكيفية التي يتحقق بها التكافؤ المفترض بين التعبيرين أو بين النصين.وعليه فتكوينه يستلزم أن يمتلك

قدرة تنظيمية تمكنه من الترتيب السلمي للأفكار الأساسية منها والثانوية، ومن التنسيق بينهما، ومن الانتقال بين الواحدة والأخرى بشكل يحقق للنص وحدته وترابطه. وهنا ينبغي الإشارة إلى أهمية العنوان في معرفة أفكار النص الأساسية، وفي التمييز بينها وبين الأفكار الفرعية والهامشية. فالعنوان أوجز ملخص للنص لما يتضمنه من معلومات نصية هامة تمكنه من الكشف عن روابط النص. وإن أجود عنوان هو الذي يعمل على هداية القارئ إلى مقصدية النص.[27].

إن إنتاج ما يريد النص قوله هو شيء ضروري لتحقيق مصداقية الترجمة، وخلق الدوافع اللازمة لإحداث التفاعل بين القارئ والنص. وعليه فالتركيز على النشاطات الكتابية المتنوعة في تدريس مادة الترجمة العلمية من شأنه أن يخلق لدى متعلم الترجمة القدرة على تجاوز القيود اللفظية في لغة النص الأصلي وانتزاع معناه، وتتمثل هذه النشاطات في الشرح والتلخيص وكتابة التقارير والتعاليق. المهم أن يصل المتعلم إلى "إعادة إنتاج الطريقة التي يقول بها النص"[28].

فالقارئ لا تهمه الطريقة التي تصاغ بها الحقائق العلمية طالما أنها تبلّغ له بوضوح كاملة دون نقصان. وهذا ما يطلق عليه "نيومارك" "NEW MARK" **الترجمة التواصلية**"[29] communicative.

وعليه فإن تحقيق التفاعل يقتضي خلق رابطة قوّية بين النص المترجم ومتلقيه تتمثل في إنتاج ترجمة جيدة شكلا ومضمونا، ومن أهم شروطها ما يلي:

الدقة والوضوح:ونقصد بها تدقيق المفاهيم الاصطلاحية وتوحيد المصطلحات والتعابير التي أجمع عليها معظم المستعملين لها.

السلامة اللغوية والأسلوبية، وهذا يتطلب الالتـزام بما يقتضيه نظام اللغة الهدف، الصوتي والصرفي والتركيبي خصوصا، ثم الاعتناء الشديد بعلامات الترقيم (ponctuation) لأنها تسهم كثيرا في إجلاء معني النص وفي تشكيلها.[30]

احترام مبدأ النصية تحقيقا للاكتمال والتسلسل ومبدأ التكافؤ؛ وهذا يتطلب عدم بتر النص واحترام التسلسل المنطقي للأفكار والتشبث بالحقائق حفاظا على روح النص الأصلي.

تحقيق الاستجابة المعادلة التي من أهم متطلباتها أن يحدث النص تأثيرا مماثلا لما يحدثه النص الأصلي (المصدر).[31]

رابعا: الوسائل المعينة للحفاظ على أصالة الأساليب العربية في النص الهدف وخصوصياتها البلاغية:

لا شك في أن اللغة هي الوسيلة المثلى لنقل محتوى النص العلمي وتبليغه مهما كانت أفكاره ومهما تعمّقت واتسعت. والعناية بها عناية بالمحتوى وما يتضمنه من دلالات ومفاهيم. وإن امتلاك المترجم لأساليب التعبير العربي، وهي تلك التي تبلّغ بها المقاصد بيسر من دون لبس، تمكنه بعد فهمه لموضوع ترجمته من التحرر من قيود تراكيب النص الأصلي وأنماطه التعبيرية، ومن إخراجٍ أصيلٍ للنص لا تُشتَّم منه رائحة الترجمة. وتجتمع هذه الأساليب في مقوماتٍ تركيبية عربية هي:

- **الإيجاز والحذف**
- **التقديم والتأخير**
- **الفصل والوصل**

1. **الإيجاز**: كما هو معروف هو أداء المقصود من الكلام بأقل العبارات[32] ويقتضي الاستغناء عن كل ما لا علاقة له بالحقل الفكري والمعرفي[33]. والعربية لغة الإيجاز، وقد عرف عن العرب الفصحاء استغناؤهم عن كل لفظ لا يؤدي حذفه إلى الإخلال بالمعنى. وقد أوضحت بعض التجارب "أن نص الترجمة إلى اللغة العربية يقل عن الأصل بنحو الخمس أو أكثر إذا توفرت الخبرة اللغوية عند المترجم وأجاد التصرّف"[34].

ويمتاز المبني للمفعول (أو المبني لما لا يسم فاعله) في العربية أنه أكثر إيجازا إذا ما قورن باللغات الأوربية، إذ يحذف الفاعل لفظا وتتغيّر صيغة الفعل الذي يبنى مباشرة للمفعول. وقد يستتر الفاعل فلا يذكر تماما للعلم به.

وقد يغدو الحذف أبلغ من الذكر وأزيد وأبين منه، وقد تحدّث "عبد القاهر الجرجاني" عن أهمية الحذف (ترك الذكر) في الإيجاز فقال:" فإنك ترى به ترك الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون بيانا إذا لم تبن"[35].

2. **التقديم والتأخير**: وأهم مظاهره الدلالة على فائدة لا تحصل دونهما، ولا يخفى أن ترتيب الألفاظ في الجملة وتقديم بعضها عن بعض في الكلام مرتبط بما يقتضيه المعنى وتسمح به قواعد النحو. من ذلك تقديم الخبر (المسند) على المبتدأ (المسند إليه) في الجملة الاسمية، وتقديم المسند إليه (الاسم) على المسند (الفعل) في الجملة الفعلية، ومنه تقديم الاسم بالاستفهام بالهمزة وتأخير الفعل، فعند قولك:"أ كتبت الرسالة؟" فالسؤال منصب على الكتابة هل أنجزت أم لا؟ وأما قولك:"أ أنت كتبت الرسالة؟" فإنك تسأل عمن كتب الرسالة؛ هل هو المخاطب المشار إليه بالضمير المنفصل (أنت)؟

وما ينطبق على التقديم والتأخير مع الاستفهام ينطبق عليه مع النفي، فمن ذلك قولك:"ما كتبت الرسالة؟" فإنك تنفي كتابة الرسالة نفيا مؤكّدا. أما إذا قلت:"ما أنا كتبت الرسالة" فإنك تؤكّد كتابة الرسالة من جهة وتنفي عن نفسك كتابتها من جهة أخرى.[36]

وغاية ما في التقديم والتأخير تمكين المتكلّم من التصرف الواسع في اللغة والتعبير. وعلى المترجم أن يكون مطلعا على هذه الإمكانية التحويلية التي توّفرها اللغة العربية لتعينه على إيجاد التعبير المناسب للمحتوى العلمي في النص الهدف.

3. **الوصل والفصل**: وهو من أهم الوسائل التي تضمن التسلسل والتماسك بين جمل النص، يقول "عبد القاهر الجرجاني" معرّفا الوصل والفصل مبيّنا أهميتهما:"اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة [...] فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها، فقال: معرفة الفصل من الوصل، وذاك لغموضه ودقة مسلكه"[37].

وهذا الغموض وتلك الدقة التي وصف بها الجرجاني الفصل والوصل من الصعوبات التي تواجه المترجم المبتدئ على وجه الخصوص في تنظيم الجمل وتوثيق الروابط بينها، فباستعمال حروف الجر في اللغة العربية تتجلّى الدقة في أبعد معانيها، فقد أحصى "د/ميشال زكريا"[38] لتسعة (9) حروف جر في اللغة العربية تسعاً وثلاثين (39) سمة (معنى). والسمة عنده ما يختص به كل حرف جر من دلالة، كالدلالة على الملكية والسبب والغاية والاتجاه والمصاحبة والزمان والمكان والواسطة وغيرها.

وأحصى لتسعة (9) حروف جر في اللغة الإنجليزية أربعين (40) سمة، أهمها المكان والزمان والسبب والواسطة والاتجاه والمصاحبة والفاعل والغاية والاختصاص والملكية.

وعليه فإن معرفة المتعلّم لهذه الفروق في اللغتين سيمكّنه -لا محالة- من التحرّر من قيود اللغة المصدر وتراكيبها الشكلية، والحفاظ على أصالة الأسلوب العربي وخصوصياته البلاغية.

ويمكن اللجوء إلى تقنيات لغوية نتفادى بها الوقوع تحت وطأة الترجمة الحرفية لأنها تعتمد التأويل مع احترام اللغة المنقول إليها، وتتمثل هذه التقنيات في ما يلي[39]:

1. **تقنية الإبدال**: (la commutation) وفيها يتم تعويض أقسام الكلم في اللغة المصدر بأقسام أخرى مغايرة في اللغة الهدف، كإبدال الفاعل بالصفة أو بالاسم أو بغيرهما.

2. **تقنية التطويع**: (modulation)؛ ونلجأ إليها عندما لا نجد المقابل المناسب لما نريد ترجمته خصوصا إذا كانت اللفظة أو العبارة المترجمة ذات حمولة ثقافية خاصة بمجتمع اللغة المصدر.

3. **تقنية التكافؤ**: وهي مكمّلة لتقنية التطويع، ويتم فيها "البحث عن وضعيات متكافئة بين الثقافتين وليس عن مرادفات في اللغتين لتأويل المعنى وترجمته"[40].

4. **تقنية الزيادة (Adition):** هي ضرب من الشرح، بها ينتقل المترجم من الضمني إلى الظاهر دون زيادة في المعلومات، ومما تم السكوت عنه في النص الأصلي إلى إظهاره دون أي تحريف للمعنى أو تشويهه.

5. **تقنية الحذف:** (soustraction) التي يتجاوز فيها المترجم بعض العلامات الظاهرة لينقل الضمني دون أن يحرّف المعنى.

6. **تقنية التحويل:**(Transformation): وتمس تغيير الجوانب النحوية الدلالية والصوتية دون تحريف للمعنى الأصلي (في اللغة المصدر).

ولا شكّ أن مراعاة هذه التقنيات اللغوية الصرفة من شأنه أن يساعد على تهيئة الأرضية الصلبة "للانفتاح السليم على الخطاب العلمي الأجنبي والاستيعاب المثمر له من جهة، ولتدعيم الخطاب العلمي العربي ودفعه إلى التفاعل مع الخطابات الأجنبية من جهة ثانية"(41).

خامسا: من أجل تفاعل بناء مع النص العلمي العربي المترجم:

ونختم بحثنا هذا بتصوّر للشروط الواجب توفرها في النص العلمي العربي المترجم ليحقق أكبر قدر من التفاعل. والتفاعل تحققه بالدرجة الأولى الترجمة الجيّدة التي تقتضي من المترجم أن يحيط إحاطة تامة بالمادة اللغوية للنص الأصلي وبمحتواه، وأن يترجم الأقوال والنصوص ويتجنّب ترجمة الألفاظ وعدم التقيّد بالأبنية الصرفية في اللغة المصدر حتى يبدو النص في اللغة الهدف (اللغة العربية) أصيلا وكأنه لم يترجم(42).

وعليه فإن اقتراحنا ينصب على اعتماد التوجه التأويلي بديلا عن ترجمة تراهن على الجانب المعجمي لتأسيس بيداغوجية الترجمة العلمية التي يتحقّق بها عنصر التفاعل والتواصل مع النص.

إن الترجمة التأويلية منطلقها تحليل النص المصدر، أي قراءة تسائل النصوص وتفكّكها وتعيد بناءها في النص الهدف دلاليا لتحرّرها من الحرفية واللفظية. إنها معايير الانسجام والاتساق والمحيط التداولي للنص. ويمكن تحديد مسار الترجمة التأويلية في المراحل الثلاث.(43)

1. قراءة النص قراءة مستفيضة، والتحقق من فهم المعنى الأصلي. تتم العملية بتفكيك البنية السطحية للنص واستخراج المصطلحات والتراكيب الاصطلاحية، على أن تحدّد المصطلحات التي لا مقابل لها في اللغة العربية.

2. تعرية النص الأصلي من ألفاظه الأصلية واستعادة المحتوى الفكري لنص لغة المصدر من البنية السطحية.

3. إعادة صياغة النص الأصلي في اللغة الهدف (العربية) بخطته وفق ما تقتضيه قواعدها وأساليبها من فصل ووصل وتقديم وتأخير وذكر وحذف مع مراعاة أحوال الخطاب والثقافة القبليّة للمترجم عن موضوع النص.

الخاتمة

إن الاستعانة بالمعطى التواصلي يدفعنا إلى إعادة النظر في طبيعة الترجمة وغاياتها ويجعل المتعلّم منغمسا فيها، يمارسها بشكل قريب من العفوية من أجل التواصل. ثم إن فهم النصية يسهم كثيرا في فهم عملية الترجمة وتطوير تدريسها وممارستها، وأحسب أن أفضل ما يحقق التكافؤ التواصلي بين النصين: المصدر والهدف، هو الفهم العملي للنصية وطبيعة النص ونوعه ومجاله والجمهور الموجّه إليه، فذلك يؤدي إلى تحسين الأداء في الترجمة.

الإحالات والهوامش:

1. انظر: Galisson, R, Coste, D ; dictionnaire de didactique des langues, traduction.
2. انظر: ألبرت نيوبرت، وغريغوري شروف، الترجمة وعلوم النص، ترجمة د/ محي الدين حميدي، نشر جامعة الملك سعود، الرياض ، 2000، الهامش، ص، 210.
3. انظر: محمود الجليلي، ملاحظات حول تطوير اللغة العربية لمسايرة التطور العلمي والتقني، مجلة همزة وصل، العدد 6، الجزائر، ديسمبر 1973، ص، 203.
4. ياسين الأيوبي، أساليب الكتابة الفنية والعلمية ، مجلة المعرفة، العدد 421، سوريا، أكتوبر 1998، ص، 154.
5. المرجع نفسه، ص، 154.
6. د/ خير الله عصار، مدخل إلى قضايا التعليم في العلوم الاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985، الجزء 1، ص، 15.
7. يقول الجاحظ في هذا المعنى :"أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه" البيان والتبيين، تحقيق وشرح حسن السندوسي، دار المعرفة، تونس 1990، الجزء 1، ص، 83.
8. د/ زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط7، القاهرة، 1982، ص، 213.
9. انظر: . Vigner, G ; Didactique fonctionnelle du français, Hachette, paris, 1980,p, 142
10. نفسه، ص، 14 و15.
11. انظر: Rey, Alain, le lexique : Images et Modèles , du dictionnaire à la lexicologie, Armand colin, Paris, 1977, p, 158.
12. انظر: De Saussure, Ferdinand ; cours de linguistique générale, édition critique préparée par Tullio DE Moro, Payothéque, Paris, 1983,p,166.
13. دي سوسير، ف، فصول في علم اللغة، ترجمة:د/ أحمد نعيم الكرّاعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص، 208.
14. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق وتعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص،36.

15. دار الشروق،ط،3، بيروت، مارس 2007، ص، 145.

16. المقابلات الأجنبية لهذه المصطلحات هي على التوالي:

Les genres de denrées de grains, machines agricoles, la valeur nutritive des denrées alimentaires, culture diétiques et alimentaire saines.

17. الترجمة وعلوم النص، مرجع سابق، ص، 197.

18- انظر: De Saussure, Ferdinand ; cours de linguistique générale,p,144

19- أحمد نعيم الكرّاعين، مرجع سابق، ص، 53.

20- انظر: الجيلالي الكدية، الترجمة بين التأويل والتلقي، ندوة الترجمة والتأويل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1995، ص، 57.

21- انظر محمد الديداوي، منهاج المترجم بين الكتابة والإصلاح، والهوية والاحتراف، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 2005، ص، 328.

22- عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات معهد العلوم اللسانية والصوتية، المجلد الثاني، الجزائر، 1972، ص، 46.

23- انظر: De Saussure, Ferdinand ; Cours de linguistique générale,p,155

24- انظر: ألبرت نيوبرت، وغريغوري شروف، الترجمة وعلوم النص، مرجع سابق، ص، 107.

25- انظر: د/محمد عناني، نظرية الترجمة الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى، القاهرة 2003، ص، 210.

26- انظر: د/ بشير إبرير، الخطاب العلمي وبعض خصوصياته، (رؤية تعليمية) مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 6، 2007، ص، 220.

27- انظر: الترجمة وعلوم النص، مرجع مذكور سابقا، ص، 171.

28- انظر: د/ أحمد الجوهري، ديداكتيك الترجمة العلمية، ندوة الترجمة العلمية، مرجع سابق، ص، 171.

29- انظر: د/ محمد عناني، فن الترجمة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ط5، القاهرة 2000، ص، 82.

30- انظر: محمد الديداوي، منهاج المترجم، مرجع مذكور سابقا، ص، 43، وص، 44.

31- انظر: محمد الديداوي،نظرية الترجمة الحديثة، مرجع مذكور سابقا، ص، 164.

32- انظر: محمد الديداوي، منهاج المترجم، مرجع مذكور سابقا، ص، 25.

33- د/ شريف بوشحدان، واقع الخطاب العلمي في التعليم الجامعي، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد6، 2000، ص، 270.

34- انظر: محمد الديداوي، منهاج المترجم، مرجع مذكور سابقا، ص، 25.

35- دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص، 83.

36- لمزيد من التفاصيل انظر: دلائل الإعجاز، ص، 83 وما بعدها.

37- دلائل الإعجاز، ص، 170، 171.

38- انظر: بحوث ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1992، ص، 175 وما بعدها.

39- نظر: أحمد الجوهري، ديداكتيك الترجمة العلمية، ندوة الترجمة العلمية، مرجع سابق، ص، 172.

40- نفسه، ص، 172.

41- نفسه، ص، 173.

42- انظر:د/ محمد عناني، نظرية الترجمة الحديثة، مرجع سابق، ص، 33.

43- انظر: الترجمة وعلوم النص، مرجع سابق، ص، 66.

المعاجم المتخصصة ومكانتها في التراث العربي

د. سناني سناني
ج . بسكرة

أولا: كتب الرسائل أولى المعاجم المتخصصة:

1: مفردات الرسائل(مصطلحاتها) وليدة البيئة العربية.

2: الرسائل المتخصصة وتنوع مجالاتها.

3: نموذج من كتب الرسائل: خلق الإنسان للأصمعي.

ثانيا: تعدد مجالات المصطلح في العصر الإسلامي.

1: مفاهيم الإسلام الحنيف

2: المفاهيم المتعلقة بالجوانب الحضارية المختلفة

ثالثا: ثراء المعاجم المتخصصة في التراث العربي.

1: تعدد مجالات المعاجم المتخصصة.

2: التقصير في حق المعاجم المتخصصة.

3: أهم مصنفات المعاجم المتخصصة في التراث العربي.

المعجم المتخصص هو حصيلة مجموع المصطلحات التي يحتضنها. والباحث في تراثنا العربي يجد أن المصطلح في العربية مرّ بمرحلتين: مرحلة العرب الجاهليين ، وقد جمع في عدة رسائل تعتبر باكورة المعاجم المتخصصة في العربية ، ومرحلة الإسلام الحنيف الذي ظهرت فيه عدة مصطلحات في المجالين: الديني والحضاري، وتشكلت في معاجم متخصصة مختلفة على النحو الذي سنفصّل فيه في هذا المبحث.

أولا : كتب الرسائل أولى المعاجم المتخصصة:

1 : مفردات الرسائل – مصطلحاتها-: وليدة البيئة العربية قبل الإسلام.

لقد جمع العلماء ألفاظ اللغة من أفواه العرب الخلّص؛ الذين لم يختلطوا بغيرهم، ولم تدخل العجمة إلى لسانهم، وكانت العربية آنذاك لغة القبائل التي سكنت شبه الجزيرة من اليمن إلى الشام إلى العراق وتخوم فلسطين وسيناء.[1] وشبه الجزيرة -كما هو معروف- بيئة صحراوية قاحلة عاش العرب فيها حياة بدائية بدوية، وتفاعلوا مع عناصر بيئتها بكل تفاصيلها -الجغرافية والحيوانية والنباتية-، وكانت اللغة الشفاهية وسيلتهم الوحيدة للتعبير عن وضعهم ومشاعرهم الإنسانية وعن عناصر بيئتهم، وبرعوا فيها براعة كبرى؛ فوضعوا لكل مسمى من مسميات محيطهم اسما أو أسماء عديدة، حتى وصل بهم الأمر إلى تتبع مراحل نمو الإنسان والحيوان والنبات ووضع اسم لكل مرحلة منها. (وسنضرب مثلا على ذلك بما كتبه الأصمعي في كتابه خلق الإنسان في مبحث لاحق).

لقد "كانت العربية قبل العصرين الأموي والعباسي محصورة ألفاظها بما كانت تقع عليه أبصار أهل البادية من النياق والجياد والسيوف والرماح والكثبان ومختلف أنواع الحيوان وما يتصل بذلك من كهانة وعرافة وفأل وطير ونحوها"[2].

2: الرسائل المتخصّصة وتنوع مجالاتها:

انتبه الرواد بعد جمعهم للمادة اللغوية الخام إلى أن ألفاظ هذه المادة يمكن تصنيفها في مواضيع مستقلة. ولذلك جاءت بواكير التأليف المعجمي في الرسائل الخاصة "فهي من أقدم ما ألف الدارسون في اللغة العربية إن لم يكن

أقدمها، وكانوا يجمعون في الكتاب منها الألفاظ التي تنتمي إلى موضوع واحد، فأصدروا كتبا خاصة بالنبات والحيوان والجماد، بل بأصناف منها كالخيل والإبل والحشرات والمواضع"[3]

ومن أشهر الرسائل التي ألفت في هذا البـاب:

- خلق الإنسان والخيل: لأبي مالك الأعرابي (يجهل تاريخ مولده ووفاته).
- الحشرات: لأبي خيرة الأعرابي العدوى (يجهل تاريخ مولده ووفاته).
- السلاح: للنضر بن شميل التميمي (122هـ - 203هـ).
- خلق الإنسان، الخيل، الإبل، النخلة: لأبي عمرو الشيباني (94هـ - 206هـ).
- الإنسان، الزرع: لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي (110هـ - 209هـ).
- خلق إنسان،المطر،المياه،الشجر،غريب الأسماء: أبي زيد لأنصاري(119ه- 215هـ)
- خلق الإنسان، الإبل، النحل، النبات، الخيل: للأصمعي (122هـ - 216هـ).
- أسماء الخيل، البئر، النوادر، الدرع: لابن الأعرابي (150هـ - 231هـ).
- الزرع والنخل، الشجر والنبات، الجراد: للباهلي أحمد بن حاتم (؟ - 231هـ).
- الحشرات، النبات والشجر: لابن السكيت يعقوب بن إسحاق (186هـ - 244هـ).
- الطير، الوحوش، الحشرات، العشب والبقل: للسجستاني أبو حاتم (؟ - 248هـ).
- أسماء السحاب والرياح والأمطار: لأبي إسحاق الزياري (؟ - 249هـ).
- السلاح، الجبال والأودية: للهروى شمر بن حمدويه (؟ - 255هـ).
- النبات: لابن قتيبة الدينوري (213هـ - 276هـ).
- الأنواء: للأخفش الأصغر علي بن الحسن (؟ - 315هـ).

- السرج واللجام، المطر والسحاب: لابن دريد محمد الأزدى (223هـ - 321هـ).
- أسماء بقايا الأشياء: للعسكري الحسن أبو هلال (؟ - 395هـ).

والملاحظ أن أغلب هذه الرسائل ألفت في القرن الثالث للهجرة، ولم يؤلف منها في القرن الرابع إلا النزر القليل، وقد اقتصرت في هذه القائمة على الرسائل المتعلقة ببيئة العربي في العصر الجاهلي وأوائل العصر الإسلامي. (4)

وقد ألف الدكتور نصار حسين كتابا حول معاجم الموضوعات وهو تتمّة لكتابه الشهير "المعجم العربي نشأته وتطوره" وتحدث فيه عما كتب حول: الإبل في أكثر من ثلاثين صفحة، وما كتب حول النبات في ما يقرب الثلاثين صفحة أيضا، ومثلهما أيضا لكتب المواضع (أي الأماكن)، وأكثر من خمس صفحات لما كتب حول الفروق اللغوية.(5)

3 : نموذج من كتب الرسائل: خلـق الإنسان للأصمعـي

يعـدّ كتاب:"خلق الإنسان" للأصمعي: (122-216هـ) من أوائل ما ألف في المعاجم المتخصصة، وقد وصل إلينا مطبوعا(*) ورتبه مؤلفه في ثلاثة أقسام، بدأها ببعض ما يذكر من حمل المرأة وولادتها والمولود، ثم ما يذكر من تقلب أحوال الناس، ثم تناول الوصف العام للإنسان مفصلا ووصف أجزائه، ثم ختم كتابه بذكر بعض الأوصاف الخلقية والخلقية العامة.

ففي وصفه لأجزاء الإنسان تجده يتتبع هذه الأجزاء بالتفصيل من أعلى الرأس إلى الظهر وفيه (الصلب): وهو المصطلح العربي الذي كان يطلق على ما يعرف اليوم بالعمود الفقري، ويورد تفصيلا دقيقا لمحتوياته حيث يقول:

"الصلب: وفي الصلب النخاع، وهو الذي يأخذ من الهامة ثم ينقاد في فقار الصلب حتى يبلغ عجب الذنب [آخر فقرة في العمود الفقري]".(6)

ثم يتحدث عن الجنبين والصدر حتى يصل إلى الجوف فيقول عنه :

"فالجوف فيه القلب وهو الفؤاد، وفيه غشاوة وهو غلافه الذي فيه الفؤاد، وربما خرج فؤاد الإنسان أو الدابة عن غشائه، وذلك من فزعه فيموت مكانه [وكأنه يشير إلى السكتة القلبية]، فلذلك تقول العرب انخلع فؤاده. وفيه أذناه وهما كالأذنين، وفيه سويداؤه وهي علقة سوداء في جوف القلب، إذا انشقت بدت كأنها قطعة كبد، يقال للرجل إذا أوصيّ بشيء اجعله في سويداء قلبك".(7)

وهكذا يتتبع باقي الأجزاء – بوصفها الخارجي والداخلي- إلى أن يصل إلى: الركبة، فالساق، فالقدم وفيها: العقب، والعير، والمشط، والسلاميات، والكعب والأصابع، والأنامل والخف: حذائها هو الذي يلي الأرض(8).

ومن أروع ما ذكره الأصمعي تفصيله الدقيق لرحم المرأة ومكوناته: "ومما يكون في النساء دون الرجال [...] والقرنتان: وهما رأسا الرحم اللذان يتعقفان فيقع فيهما الولد [إشارة لقناتي فالوب المقابلتين للمبيضين، وفيهما يتم التخصيب]، والحلقتان؛ فإحداهما: الحلقة التي في فم الرحم عند طرف الفرج، والأخرى: الحلقة التي تنظم على الماء [إشارة للمني] وتنفتح للحيض وما بينهما المهبل[...] ومما يخلق في الرحم المشيمة: وهي من الصبي بمنزلة السلى من الشاة والبعير، والماسكة: وهي القشرة تكون على وجه الصبي، والسقي: وهو جلدة فيه ماء تنشق على رأس الولد عند خروجه، وهو من الناقة السخب والسابياء، والمخاض: في البهائم والناس، ولا يكون الطلق إلا في الناس".(9)

هذه نماذج ومقتطفات من كتاب خلق الإنسان للأصمعي الذي عاش في القرن الثالث للهجرة تبيّن المستوى العلمي الدقيق الذي كان عليه المعجم العلمي المتخصص عند العرب منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا خلت! وأنت تقرأ فقرات هذا الكتاب تحسّ وكأنك أمام طبيب جراح مختص في التشريح يدرك تماما الفرق بين الطب البشري والبيطرة الحيوانية!

وقد يظن بعض الدارسين أن حركة تأليف المعاجم اللغوية المتخصصة في مجالات العلوم والفنون المختلفة هي من نتاج عصر النهضة الحديثة، كمعجم الحيوان والمعجم الفلكي ومعجم الألفاظ الزراعية، والمعجم الطبي وغيرها، لكن الواقع يؤكد أنها وليدة جمع وتحصيل لجهود سابقة واستخلاص من مكاسب وثروات محققة وتتويج لحركات فكرية متلاحقة".[10]

ثانيا: تعدد مجالات المصطلح في العصر الإسلامي:

لقد انتقل العرب بعد الإسلام من البداوة إلى الحضارة، ومن صحراء الجزيرة العربية إلى عواصم الحضارات الكبرى في التاريخ البشري – مصر والشام والعراق وبلاد فارس- وذلك في فترة وجيزة لم تتجاوز القرن الأول الهجري.

وقد رافق هذا الانتقال تغير حضاري جذري في حياة العرب الحاملين رسالة الإسلام لشعوب تلك البلاد المفتوحة، وشمل هذا التغيّر كل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية.وحينها اكتشف العرب أن لغتهم البدوية التي كانت وليدة بيئتهم أصبحت ألفاظها عاجزة عن استيعاب تلك المفاهيم الجديدة. فاضطرهم ذلك إلى تطوير لغتهم وإثرائها بألفاظ جديدة تستوعب ذلك السيل الهائل من المفاهيم التي انصبّت عليهم من كل حضارات

العالم وفي وقت وجيز لم يتجاوز القرن الرابع الهجري. إنها ثورة حضارية تكاد تنفرد في تاريخ البشرية كله!

والمفاهيم الجديدة التي ظهرت في حياة العرب سارت في اتجاهين اثنين:

1. مفاهيم الإسلام الحنيف: وما تضمنه من تفصيلات في أمور العقيدة والشريعة، وقد جاء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ببعض المصطلحات والألفاظ المقابلة لتلك المفاهيم، وتكفّل بعد ذلك علماء الشريعة بمختلف تخصصاتهم بوضع المصطلحات المحددة لتفصيلات الدين الحنيف(ومن أهمها المصطلحات الفقهية التي سنتحدث عنها في الفصل الموالي).

وقد عرفت بالألفاظ الإسلامية[11]. ويمكن الإلحاق بها المصطلحات المتعلقة بعلوم اللغة لأنها وعاؤها الحاضن.

2. المفاهيم المتعلقة بالجوانب الحضارية المختلفة : وخاصة العلمية منها. لأن العرب "أدركوا حاجتهم القصوى إلى فهم ما كان شائعا عند تلك الأمم من العلوم على اختلافها من طبيعية وغيرها"[12].

والمصطلحات المعبرة عن مفاهيم الاتجاهين شكلت بمجملها لغة جديدة في تاريخ العربية لم تعرفها من قبل، وسميت بلغة العلم في الإسلام. وهذه اللغة: "لم تنشأ دفعة واحدة، بل نمت وتنوعت على مر الزمن، بذرت بذورها في القرن الأول الهجري، وظهرت مصطلحات في الفقه التفسير والكلام، وتلتها في القرن الثاني مصطلحات في علوم اللغة والتاريخ، في الأخلاق والسياسة، في الطب والكيمياء، في الفلك والهندسة، واستكملت العلوم العربية في القرن الثالث لغتها، وتوفرت لها أسباب الحياة، وما أن حلّ القرن الرابع الهجري وهو العصر الذهبي في تاريخ الثقافة الإسلامية حتى استقر المصطلح العلمي...".[13]

ثالثا: ثراء المعاجم المتخصصة في التراث العربي:

1: تعدد مجالات المعاجم المتخصصة:

إن السّيل الاصطلاحي الذي دخل ساحة العربية في أوج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، لم يترك هكذا هملا، بل انبرى نخبة من العلماء إلى تصنيفه وترتيبه حسب مجالات تخصصه، ثم وضعه بعد ذلك في معاجم متخصصة "وبدئ بها في العلوم الدينية واللغوية، ثم طبقت فكرتها على العلوم الأخرى من إنسانية وطبيعية ورياضية".(14)

وكانت هذه الخطوة في التأليف المعجمي تمثل تجربة متميزة في تاريخ المعجم العربي تختلف عن المعاجم العامة في الجمع والوضع معا، وقد اختصت بمزايا منهجية وعلمية كثيرة، وكان هدفها: بيان دلالات الألفاظ في إطارها الاصطلاحي فقط. وإن أوردت معناها اللغوي فمن باب تبيان العلاقة بينهما ليس إلا. (15)

وقد عرف هذا النوع من تقسيم الألفاظ في الدراسات الغربية الحديثة بالحقول الدلالية؛ فالحقل الدلالي يضم مجموعة الألفاظ التي لها مكون دلالي ينتمي للحقل نفسه(16)

هذا وقد تفنّن صناع المعاجم المختصة في وضعها؛ فكانوا يقصرونها على علم بعينه أو يستوعبون فيها طائفة من العلوم من حيث المادة المجموعة. أما من حيث الترتيب: فكانوا يرتبونها ترتيبا موضوعيا- وهو غالب- أو يسلكون فيها مسلك الترتيب الهجائي على غرار معجمات اللغة العامة. وفيما يتعلق بالشرح: قد تأتي شروحاتهم تارة مركزة تكتفي بذكر الدلالة اللغوية للفظ

وتضيف إليها الدلالة الاصطلاحية، وقد تقتصر على المعنى الإصلاحي في دقة واختصار، و تنحو تارة أخرى منحنى البسط والتفصيل.[17] .

وقد توسع التأليف المعجمي المختص إلى مجالات كثيرة منها: الأعلام، والبلدان. فبالنسبة لمعاجم الأعلام: - التي سميت أيضا بالتراجم والطبقات- وجدت في التراث العربي معاجم عديدة اهتمت بطبقات المعتزلة، وطبقات الفقهاء – والشافعية خصوصا- وطبقات النحاة، وطبقات الأطباء...إلخ.

أما الأماكن فلم تكن أقل حظا من الأعلام؛ فقد أولع بعض الكتاب بها وأبدعوا فيها أيّما إبداع، وأخذت الطابع الموسوعي الجغرافي، وعلى رأس هؤلاء صاحب معجم البلدان ياقوت الحموي (624هـ).[18] .

وبالرغم من كثرة التأليف المعجمي المختص في مختلف المجالات، إلا أن قصب السبق والحظ الأوفر نالته "معاجم الفقه" فلم تبلغ تلك المعجمات على تنوعها "مبلغ شيوع معجمات الفقه في اللغة نفسها"([19]).

إن الثراء والغنى والدقة في صناعة المعاجم العربية المتخصصة، دفع أحد المستشرقين إلى التعليق على المعاجم المختصة بالنبات بالقول: " يرتفع البعض إلى مستوى الملاحظات الدقيقة، المدونة بمصطلحات تجبر على الإعجاب لدقتها، و يرد على الذهن هنا خاصة أعمال (أبي حنيفة الدينوري)"[20] .

2 : التقصير في حق المعاجم المختصة:

وعلى الرغم من هذه المكانة العليّة التي تحتلها المعاجم المختصة، إلا أن الاهتمام بها من قبل الباحثين لم يرق إلى المستوى المطلوب.

"فمعظمها لا يزال مخطوطا. والقليل الذي نشر منه كان إما في طبعات رديئة غير محققة، وإما من تحقيق مستشرقين لم تكن دراستهم بالعربية في الغالب كافية لإخراج نص علمي ذي خصوصيات تميزه إخراجا علميا دقيقا"[21].

مع الإشارة إلى أن أحد الباحثين دعا إلى ضرورة تهذيب هذه المعاجم وحذف ما لا يتناسب مع مستجدات العصر، فرد عليه الكواكبي بقوله: "... فالاستبقاء على النصوص كما وردت ضروري، تستوجبه الغيرة عليه كالغيرة على سائر الآثار التاريخية، فهي المرجع الأخير للذين يودون التوسع والتبحر في العلوم العربية[...] فلا مجال إذن للمس بما هو فخر للخلف من السلف، وإلا أثم الخلف بالعبث والعقوق والجحود".[22]

ومن مظاهر التقصير في حق المعاجم المتخصصة: إعراض الباحثين عن الأخذ بما فيها من رصيد ومناهج في الصناعة المعجمية الحديثة، بالرغم مما تمثله من رصيد معجمي لغوي واصطلاحي أصيل.

ومن الواجب رفع الغبن عن هذه المعاجم بتحقيق نصوصها تحقيقا علميا منهجيا دقيقا، وتحليلها بعد فهرستها وتبويبها حتى تيّسر الفائدة منها.[23]

وقد عدد الباحث: علي توفيق الحمد الفوائد التي يمكن تحصيلها من المعاجم العربية المختصة فيما يلي:

* الاطلاع على الذهنية الحضارية للأمة في عصورها السالفة.

* معرفة أثرها في المعاجم العامة، لأنها مثلث باكورة التأليف المعجمي (الرسائل).

* تأريخ العلوم المختلفة ودراسة تطورها.

* المساعدة في مجال الترجمة من اللغات الأخرى.

* الحصول على ثروة غزيرة من الألفاظ المتقاربة المعنى.

* إثراء المصطلحات وتنميتها وتفصيحها.

* الإفادة في معرفة وسائل توليد المصطلح وكيفية تطبيقها.

* تصحيح بعض الأغلاط في إطلاق مصطلحات حديثة واستخدامها في غير موضعها. (3)

3: أهم مصنفات المعاجم المتخصصة في التراث العربي:

1. كتب مصطلحات العلوم الدينية وأنواعها:

أ. كتب المصطلحات الفقهية:

* الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي (ت: 370هـ).

* طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية للنسفى (ت: 537هـ).

* تحرير التنبيه للنووي (ت: 676هـ).

* تهذيب الأسماء واللغات للنووي.

* الحدود والأحكام الفقهية للبسطامي (ت 875هـ).

* الحدود الأنيقة التعريفات الدقيقة للأنصاري (ت: 926هـ).

* التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ت: 1031هـ).

ب. كتب المصطلحات الحديثية:

* علوم الحديث لابن الصلاح (ت: 643هـ).

* المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي لابن جماعة (ت: 733هـ).

* الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير (ت: 744هـ).

* الديباج المذهب للجرجاني (ت: 816هـ).

* نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ).

* جواهر الأصول في علم حديث الرسول للفارسي (ت: 873هـ).

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث للبيقوني (ت: 1080هـ).

ج. كتب المصطلحات الصوفيـة:

* الرسالة القشرية لعبد الكريم القشيري (ت: 465هـ).

* اصطلاحات الشيخ محي الدين (ابن عربي) (ت: 638هـ).

* اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ت: 730هـ).

2. كتب مصطلحات علوم اللغة العربية:

أ. مصنفات في العروض والقافية:

* كتاب القوافي للأخفش (215هـ).

* مختصر القوافي لابن جنى (ت: 392 هـ).

* عروض الورقة الجوهري (ت: 393هـ).

* الوافي في العروض والقوافي للتبريزي (ت: 502هـ).

* المعيار في أوزان الأشعار والكافي في علم القوافي للشنتريني (ت: 549هـ).

ب. مصنفات في الحدود النحوية:

* الحدود للرماني (ت: 384هـ).

* الحدود في النحو للجبراني (ت: 668هـ).

* الحدود في النحو للفاكهي (ت: 972هـ).
* شرح الحدود في النحو للفاكهي.

ج. مصنفات في الأصوات وصفاتها:

* مخارج الحروف وصفاتها لابن الطحان (ت: 560هـ).

د. مصنفات في الدلالة وتطورها وتأصيلها:

* كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية للرازي (ت: 322هـ).
* التجبير في التذكير للمقشري (ت: 465هـ).

3. كتب مصطلحات الفلسفة وعلم الكلام:

* رسالة الحدود لجابر بن حيان (ت: 200هـ).
* رسالة الحدود والرسم للكندي (ت: 260هـ).
* رسالة الحدود الفلسفية للخوارزمي الكاتب (ت: 387هـ).
* رسالة الحدود لابن سينا (ت: 428هـ).
* رسالة الحدود للغزالي (ت: 505هـ).
* كتاب الحدود والرسوم لإخوان الصفا.
* كتاب المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي (ت: 631هـ).

4. كتب المصطلحات الطبية:

أ. المصنفات الاصطلاحية العامة:

* التنوير في الاصطلاحات الطبية للقمري (ت: 380هـ).

* مفيد العلوم ومبيد الهموم لابن الحشاء (ت: 647هـ).

* بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية من العربية واليونانية واللاتينية (ت: بعد 924هـ).

* قاموس الأطباء وناموس الألبا للقوصنى (ت: بعد 1044هـ).

ب. المصنفات الاصطلاحية الخاصة:

* كتب العشر مقالات في العين لحنين بن اسحاق (ت: 264هـ).

* المرشد في طب العين للغافقي (ت: في ق 7 هـ).

ج. مصنفات في الأدوية المفردة:

* كتاب الأدوية المفردة لإسحاق بن عمران (ت: 279هـ).

*كتاب التلخيص في الأدوية المفردة لدونش بن تيم اليهودي (ت: 360هـ).

*كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة لابن الجزار (ت: 369هـ).

*كتاب الأدوية المفردة لأبي الصلت أميه بن عبد العزيز (ت: 529هـ).

*شرح أسماء العقار لأبي عمران موسى بن عبد الله الاسرائلي (ت: 601هـ).

*الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار (ت: 641هـ).

*منتخب كتاب جامع المفردات للغافقي (ت: 560هـ). انتخبه أبو الفرج غريقور بوس (ت: 684هـ).

*المعتمد في الأدوية المفردة ليوسف بن عمر الغساني (ت: 694هـ).

5. **كتب المصطلحات الرياضية:**

* اللّمعة الماردينية في شرح الياسمينية في الجبر والمقابلة للمارديني (ت: 912هـ).

6. **كتب التصنبف العلمي الابتسمولوجي:**

أ. **كتب عنيت بتصنيف العلوم والفنون:**

* الاهتمام ببعض العلوم والفنون والترجمة لأعلام المصنفين والمؤلفين منها:

* الفهرس لابن النديم (ت: 385هـ).

* الاهتمام بتصنيف العلوم وذكر مصطلحاتها.

* التعريفات للجرجاني (ت: 816هـ).

* الكليات لأبي البقاء الكفوي (ت: 1094هـ).

* كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (ت: بعد 1158 هـ).

* جامع العلوم الملقب بـ "دستور العلماء" لأحمد نكري (ت: في ق 12 هـ).

* مفاتيح العلوم للخوارزمي(ت:387هـ).

* الاهتمام بالعلوم وذكر أسماء الكتب، والتعريف بها والترجمة لأعلام المصنفين.

* مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زادة (ت: 962هـ).

* كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة (ت: 1067هـ).

ب. كتب خصصت لتصنيف العلوم و إحصائها:

* إحصاء العلوم للفارابي (ت: 339هـ).
* إرشاد القاصد إلى أسمى المقاصد لابن الأكفاني (ت: 749هـ).
* إتمـام الدراية لقراء النقابة للسيوطى (ت: 911هـ).([24])

وخلاصة البحث : أن المعاجم المتخصصة مثلت محورا مهما في المعاجم العربية، فكانت بدايتها الرسائل المتخصصة التي جمعت ما تداول على ألسنة العرب الجاهليين من مصطلحات تصف محيطهم و بيئتهم، ثم اكتملت بالمعاجم المتخصصة التي تضمنت مصطلحات العصر الإسلامي بشقّيها الديني و العلمي الحضاري ، فتوسع التأليف فيها في شتى المجالات مثل ما بينّاه.

لقد ترك لنا الأسلاف تراثا اصطلاحيا ضخما لم ينل حظّه و حقّه من الدراسة و التحقيق مقارنة مع المعاجم العامة. و يحتاج هذا التراث إلى جهود أكبر لتسليط الضوء عليه و استخراج كنوزه. لنواكب الحركية السريعة في الصناعة المعجمية المتخصصة الحديثة.

الهوامش:

[1] - ينظر، أحمد عبد الغفور عطار، مقدمة الصحاح،دار العلم للملايين، بيروت ، ط:4، 1990،ص: 2.

[2] - فايز الداية، علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق-، دار الفكر ، دمشق ، ط1، 1985م، ص: 208، وينظر، حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 2003م ، ص: 292.

[3] - حسين نصار، معاجم على الموضوعات، ص: 5.

[4] - ينظر، عدنان الخطيب، مرجع سابق ، ص: 205-206، حلمي خليل ، دراسات في اللسانيات التطبيقية ، ص: 292، أحمد عبد الغفور عطار، مرجع سابق ، ص: 52.

[5] - ينظر، حسين نصار، معاجم على الموضوعات، وزارة الإعلام، الكويت، 1985، ص: 3-123.

(*)- طبعته: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ببيروت، سنة 1903م، ونشره: أوقست هفز مع كتاب: الإبل ونسخة مختصرة لكتاب،: الإبل لنفس المؤلف (الاصمعي) وكذلك كتاب: القلب والابدال لابن السكيت.

[6] - الأصمعي عبد الملك بن قريب ، كتاب خلق الإنسان، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1903م ، ص: 211.

[7] - الأصمعي، خلق الإنسان ، ص، 218.

[8] - ينظر:المصدر نفسه، ص: 218- 228.

[9] - المصدر نفسه ، ص: 229.

[10] - علي توفيق الحمد، مرجع سابق، ص: 89.

[11] - ينظر، هادي العلوي، المعجم العربي الجديد، دار الحوار، اللاذقية- سورية، ط1، 1983م، ص: 89.

[12] - فايز الداية، مرجع سابق، ص: 208، السيد صبري إبراهيم ،المصطلح العربي – الأصل والمجال الدلالي -، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،1996م، ص: 17.

[13] - إبراهيم مدكور، لغة العلم في الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع: 29، س: 1972، ص: 15.

[14] - إبراهيم مدكور، مرجع سابق، ص: 16 ،17.

[15] - ينظر، خالد فهمي، تراث المعاجم الفقهية في العربية ، ايتراك للطباعة والنشر،القاهرة ، ط1، 2003 ، ص: 49، إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، ص: 156.

[16]- voir: Alain polguere , André clas, a.mel-uik, introduction a la lexicologie :explicative et combinatoire , édition duculot, Louvain-la neuve , 1995 ,p:173.

[17] - إبراهيم مدكور، المرجع السابق، ص: 16.

[18] - ينظر:إبراهيم مدكور، مرجع سابق، ص: 16 .

[19] - حسين نصار، المعجم العربي، ص: 57.

[20] - ريجيسر بلاشير، ملاحظات على تطور التأليف المعجمي عند العرب، ترجمة: أحمد درويش، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع: 24، س: 1969، ص: 130.

[21] - إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، ص: 157.

[22] - محمد صلاح الدين الكواكبي، تعقيب على مقال: المعاجم العربية وضرورة تهذيبها، فؤاد حنا ترزي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م: 37، ج2، 1972، ص: 393.

[23] - إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، ص: 157.

[24] - ينظر: مالك محمد صالح ياسين، **كتب** المصطلحات العلمية العربية إلى عصر النهضة الحديثة في ضوء الدرس اللغوي المعاصر، إشراف: أحمد محمد قدور، أطروحة دكتوراه جامعة حلب، 1998م، ص: 92- 95 ، عدنان الخطيب، مرجع سابق ، ص: 205-206، محمد حسن عبد العزيز، المصطلح العلمي عند العرب.

مؤشرات الذاكرة الكونية
في رواية "اعترافات أسكرام"
للكاتب عز الدين ميهوبي

أ.د. عثمان بدري
أستاذ التعليم العالي - الجزائر

1

ما فتيء الخطاب الروائي يتصدر في استقطاب وبناء أمهات القضايا الإنسانية الكبرى ذات السعة الكونية، إطارا، والحمولة العالمية، دلالة، حتى وإن توخى ذلك من مواقع رصد واستكشاف محلية أو إقليمية أو جهوية خاصة، وببصمات أسلوبية وتقنية أخص.

ومن بين الأعمال الروائية التي استكشفت ذلك، نشير -على سبيل المثال لا الحصر- إلى شيخ الرواية العربية، نجيب محفوظ (1911-2006)، الذي وهب إدراكا فلسفيا كونيا، وتنفيذا فنيا محليا، خصوصا في رائعته "أولاد حارتنا"، وإلى ثاني اثنين في مشيخة الرواية العربية المتجذرة في الجزائر، الطاهر وطار، في مجمل أعماله، وبالأخص في درته رواية "الحواة والقصر"، وإلى مهندس سردية الطفرة النفطية في الفيافي الصحراوية المترامية، وحكاء الوعي المتحوّل تحولا مفارقا، عبد الرحمن منيف (1933-2004)، في "أرض السواد" و"مدن الملح"، وإلى الرّوائي السوداني، الرشيق، العميق، الطيب صالح، في "موسم الهجرة إلى الشمال"، التي تفردت بتعابير الجنوب والشمال، أو "الأنا" الحضارية التابعة مع

"الآخر" الحضاري المتبع، وإلى الرّوائي اللّيبي إبراهيم الكوني "عراف" أسئلة الصمت الكونية، التي تشي بها علامات الجغرافيا البشرية الزرقاء، وتدخرها مكامن "الأهقار" الصحراوية الراسية، التي تحتضن الكون بسلطة "الهامش"، "المنتبذ"، "ألغرائبي" فيها، ومن ثمة .... إلى الروائي الجزائري واسيني الأعرج، الذي عرف كيف يدير طقوس وتروس مفارقة الاحتجاج بالتاريخ والاحتجاج عليه، في روايته "كتاب الأمير" التي تنتظمها رؤية نفي "التنافي" بين الإسلام والمسيحية في سياق المكون العقائدي الرّوحي، وبين الشرق والغرب في سياق المكون الحضاري الأوسع، وبين ضفتي المتوسط في سياق المكون الجغرافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

2

وفي سياق "تفضية"[1] الذاكرة الكونية للعالم المعاصر، وإدراجها في الذاكرة السردية للخطاب الروائي يتنزل الإنجاز السردي الأحدث زمنيا والأوسع في المجال الفضائي، والموسوم بعنوان لافت، وهو: "اعترافات أسكرا م " الصادر للكاتب عز الدين ميهوبي، عن "منشورات دار البيت" بالجزائر العاصمة سنة 2008، في وعاء مكتنز مرصوص يتكون من 587 صفحة من القطع المتوسط.

وللإنصاف فإن من يعرف –عن كثب- أن المسار الإبداعي للمبدع عز الدين ميهوبي هو الشعر ومشتقاته، يفاجأ وتتلبسه سورة الاندهاش، وهو يلهث الأنفاس في تلقي هذه الرواية المكتظة التي ترحل به في أصقاع وتجاويف وامتدادات الذاكرة الكونية التي لبست لبوس الذاكرة السردية المثيرة للقارئ، ليس فحسب بوضعه في سياق رحلة كونية استكشافية حول العالم من داخل

العالم، و إنما ببلاغة التباس سلالة القول التي اشتقت منها أو تذرعت بها، هل هي -افتراضا- سلالة الخطاب الروائي "الهجين" في صيغه الكونية الأوسع القائمة على "تلاقح" وصهر أمشاج من فسيفساء القول التي لا حصر لها، أم أنها سلالة سردية الرحالات الاستكشافية الكبرى الواصفة لأجزاء مترامية في مجاهل المعمورة[2]، أم هي سلالة "الخطاب المترابط" الذي أنتجته الشبكات العنكبوتية لإمبراطورية المعلومات والاتصال الإلكترونية التي تفيض بها الواجهات الأمامية للألفية الثالثة، على وجه الخصوص[3]؟

وسواء شربت هذه الرواية من كل ذلك أم من بعضه، فالمؤكد أن كفاءة تمثل وبراعة تمثيل الكاتب لما هو سيار في فضاء إمبراطورية المعلومات المتعابرة القارات. هي التي فرضت على القارئ أن يستقبل هذه الرواية بوصفها "طفرة" سردية غير مسبوقة في فضاء الرواية الجزائرية تحديدا، وربما في فضاء الرواية العربية المعاصرة، على الإجمال.

و إذا كان ذلك قد لا يرضي آفاق توقعات "الاصطفائيين" من أهل الحرفة الروائية على مستوى كيفية القول الفعلية أو الافتراضية، فمن البيّن أنها قد تفردت في مقول القول لها، من حيث حجم وكثافة الكتلة الكميّة للمادة النصيّة ومن حيث سعة وامتلاء الفضاء الكوني المؤطر الذي لم يقتصر على تعابير ذاكرة القارات الخمس، و إنما امتد ليشمل أجراما كونية أخرى خارج مدار الأرض[4]، ومن حيث مؤشر الزمن الفلكي الافتراضي، المتمدد أماميا وخلفيا، تمددا يقوم على "فانتازيا" توقع محتمل المآل والصيرورة الكونية للحياة على سطح الكرة الأرضية لما يقارب مدة خمسين سنة، مما تدخره الألفية الثالثة، وعلى حفريات استرجاع مشهد الأحداث والمنعطفات التاريخية الكونية الكبرى التي تتجاوز الخمسين سنة، ما يذكرنا بسردية "الخيال العلمي"[5] (Science fiction)،

وما هو في حكمها من الأفلام الإلكترونية، المصنعة، تصنيعا كونيا يقوم على افتراض بديل آخر للحياة خارج فضاء الكرة الأرضية، هذا فضلا عن تشبع الذاكرة السردية للرواية بالذاكرة الوثائقية (الأرشيفية)، المتنوعة المشارب والسياقات(6).

❸

وإذا كان من حق الكاتب أن يكون حرا في تأطير هذه المغامرة الكونية وفي انتقاء وعرض الأزياء التي أرادها مقاسا للقوام الكوني الذي استوقفه، فمن حق المتلقي أن يتساءل -على الأقل- أيهما احتوى الآخر وأعاد إنتاجه، ذاكرة الفيض الإعلامي، ألمعلوماتي، المتدفقة، التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، أم الذاكرة السردية (التخييلية)، التي يفترض فيها -ونحن في مقام الرواية- أن تستقطب الفيض ألمعلوماتي "الخارج / روائي"، وأن تعيد "تحبيكه"و"أسلبته السردية" على النحو الذي يجعل هذه الرواية تمتلك –بوصفها إبداعا- سلطة الاستثناء في الإحالة على العالم الكوكبي، الافتراضي، المترامي، داخلها، وليس خارجها؟ لنعلق الإجابة الفورية عن هذا التساؤل الإشكالي لقراءة أخرى، أكثر تفاعلا وأقل انفعالا، ولنخلص سريعا إلى أن المكونات السردية المفترضة في هذه الرواية: طبيعة ووظيفة الأشكال والمستويات اللغوية -أنماط ومستويات المدرك المكاني، من شخصيات ومشخصات وإحداثيات وأشياء وفضاءات -أنماط ومستويات المدرك الزمني- أنماط ومستويات حقول المعنى الخ.. قد سخرت لتأطير فسيفساء مترامية ينتظمها فضاء اجتماعي وإنساني (كوني) "محتبس" آل الكاتب على نفسه أن يحرره من محابسه التي تضيق ذرعا به، فافترض له آلية غير معهودة في فضاء المتخيل السردي الجزائري، على الأقل، تتمثل في الإصرار على إرادة الاعتراف والمكاشفة، والمساءلة الأخلاقية، ليس

فحسب من مواقع ضحايا الاحتباس فيه، الذين تشملهم توصيفات "العالم الثالث" المتكتّل -غالبا- في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، فحسب، وإنما أيضا -وهذا هو اللافت في الأمر- من مواقع افتراض استرجاع ذاكرة "الوعي المفقود" أو "الزمن الضائع" للإنسان "الإنساني" الذي يبدو سليل العالم الأول والثاني، المتكتلان في أوروبا وأمريكا الشمالية وما إليهما.

وإذا أردنا اختزال توصيف مقول القول في هذه الرواية لقلنا بأنها مؤسسة على مساءلة أخلاقية لسلطة طبائع الاستبداد التي أفقدتها شهوة الاستحواذ على أقدار ومقدرات العالم، البصيرة، فرأت الكون كلّه بوصفه عقيدة يستوي في موازينها "الجلادون" الذين شرعوا لأنفسهم "حق العصمة" و"ضحايا" لا يحق لهم حتى مجرد الإقرار بتركهم أحرارا يواجهون مصيرهم باحتكامهم إلى مكامنهم "الهامشية" "المنتبذة".

وبهذا التصور تبدو هذه الرواية "تسريدا" كونيا للخطاب الثقافي "المابعد/كولونيا لي" الذي تفاوتت إنجازاته في تفكيك إشكالية "المركز" و"الهامش"، أو "الأنا" المهيض، المريض، المنفعل، التابع، و"الآخر" "المستحوذ"، "المستبد"، "المتبع"، كما تجلى ذلك في ثنايا الخطاب الشعري لمحمود درويش (1944-2008) وفي خطاب النقد الثقافي لإدوارد سعيد 1935-2003)، وفي المشروع المقاوم الفذ لعبد الوهاب ألمسيري[7] (1938-2008).

وإذا افترضنا أن هذا هو الإطار الصوري الفوقي الناظم لهذه الرواية فإننا نتساءل: ما هي أبرز مؤشرات الذاكرة الكونية المحتبسة التي تبحث لها عن متنفس قد يخفف من أهوال ومآسي انفجارها الكوني المدمّر؟ لنشر -بداية- إلى إضاءة جانبية ولكنها ذات علاقة، وهي أن للذاكرة الكونية الماثلة في هذه الرواية، ذاكرة شبيهة لها، كانت قد اختزلتها وأومضت بها المخيلة الشعرية

للشاعر عز الدين ميهوبي في إحدى أهم قصائده الشعرية التي استغرقها - آنذاك- "الوقع" الشائه المفرغ من المعنى "للعولمة" "mondialisation"، بعنوان: عولمة الحب، عولمة النار"[8]، إذ بعد الموازنة بدا لنا أنها مااختزلته وكثفته وأمعنت في الإيحاء بمناهضته تلك القصيدة، قد وسعت ونوعت وفصلت في استزراعه واستنباته رواية "اعترافات أسكرام"، التي وَلّدَتْ من غرابة أسئلة انتفاء الهوية في القصيدة فيضا كونيا لذاكرة الكوكب الأرضي الملوث، المنهك، الذي يستجدي البحث في أوحاله المغلقة عن مخرج يستعيد به شيئا من التوازن المختل، وإن تعذر عليه استعادة الاتزان، فكان أن استبصر له الكاتب عز الدين ميهوبي، مخرجا أو فلنقل -حلا- جذريا (طوبا ويا) ولكن لا نجد له بديلا في المخارج أو الحلول الرسمية الفوقية القائمة على المخاتلة والاصطياد والاستهلاك الظرفي.

ويتمثل هذا المخرج في تنظيم مسابقة عالمية لذاكرة الاعتراف والمكاشفة والمساءلة في فضاء فندق "أسكرام بالاس" بأعالي تامنراست، ولا يهم -بعد ذلك- أن تبقى هذه الذاكرة مجرد "يوتيوبيا" مثالية حالمة في مجرى الواقع الحي، الذي تستبد به المصلحة، ثم المصلحة، ثم المصلحة والمصالحة، ما دام الكاتب قد قال كلمته ومشى.

4

وكما هو متواتر فإن أول مؤشر للذاكرة الكونية، في هذه الرواية، هو مؤشر "العنوان"[9] "Le titre" الخارجي الأم، أو العناوين الداخلية المتفرعة فيها.

والملاحظ أن التصور الهندسي الفضائي الذي تتصدر الأرض مركزه، قد أسقط أفقيا ورأسيا على علامات العتبة الخارجية الأم، أو على علامات العتبات

المتفرعة منها، وذلك على نحو دائري مفتوح يشبه مدارات القوقعة الحلزونية التي تتشكل محرزاتها، تشكلا لولبيا، من الداخل إلى الخارج في حالة الانتشار، ومن الخارج إلى الداخل في حالة العودة إلى مركز الثقل، مما نتج عنه اختزال العناصر السردية الروائية الأساس: (الشخصية-المدرك المكاني-المدرك الزمني) في بعضها، وفي "تفضية" (spatialisation) محتمل الحمولة المعنوية التي تحيل عليها أو تشي بها، بحيث تكون نتيجة ذلك تشييد إطار فضائي مرتحل يغري المتلقي بممارسة اللعبة التأويلية على أوسع نطاق.

وفي هذا السياق تستوقفنا العتبة الأم، أو العتبة النواة، المتمثلة في العلامات المكبرة خطيا ولفظيا ودلاليا للعنوان اللغوي: "اعترافات أسكرام"، وفي علامات الصورة المرئية المتفحمة التي سُكَّتْ في فضاء الواجهة الأمامية لهذه الرواية.

وإذا كانت وظيفة "تعيين" (désignation)، الفضاء المكاني للرّواية قد تحققت في "لفظ" الجملة الاسمية في عتبة "اعترافات أسكرام"، فإن تحديد (indication)، "الملفوظ" فيها يتم على نحو (انزياحي)، غير متوقع، وذلك لأن المعتاد في سلوك لفظ المسند الأول: "اعترافات" يحيل على "ملفوظ" الإنسان العيني، المتعين في مقام الارتياب والمساءلة الإرادية التلقائية، أو الإكراهية الموجهة، كأن نقول –مثلا- "اعترافات الآثم"، أو "اعترافات المذنب"، أو "اعترافات المتهم"، الخ... إلا أن تعيين هذا المسند بالمسند إليه، المكاني "أسكرام"، يعدل في وجهة التوقع الآلي للمتلقي ويضعه -فجأة- في سياق الإغراء (Séductive) -الوظيفية الإغرائية للعنوان- بمحتمل "ملفوظ" "إفضاء" أو "بوح" أو "اعتراف" أو "مكاشفة" أو "إشهاد" بحالة فك لغز أو عقدة أو احتباس كونية شاهد إثباتها ومشهودها –معا- المدرك المكاني "المتفضي"، الجاذب، اللافظ، للعالم –بحكم وظيفته- متمثلا في "شخصنة" فندق "أسكرام

بالاس"، الذي تحول من مجرد علامة إشهار سياحي لاستقطاب حشود الوافدين عليه من الشمال بحثا عن الدفء والصفا والإشباع الروحي المفتقد، إلى مرصد مركزي للكون في فضاء أعالي تامنراست، درّة أقاصي الجنوب الجزائري، وبوابة أسرار الكون في عالم الصحراء المترامي، مكمن الرسالات الكونية الكبرى، ومصدر الثروات المادية الكبرى، أيضا.

وبما أن أي عتبة تحتمل دائما أن تكون علامة "مفسّرة" لأفق النص، و"مفَسَّرَةٌ" به، فإن حصيلة قراءة النّص الرّوائي، رجحت لدينا تفسيرا افتراضا - والرواية كلها تقوم على تجريب المنطق الافتراضي- مؤداه أن الرّوائي قد اتخذ من هذا الفضاء الكوني الذي يشعر فيه كل شيء بالتوحد والإتحاد، وباستثارة الذاكرة النائمة في قاع الوعي، كرسي اعتراف ومنصة مساءلة، بل كراسي اعتراف ومنصات مساءلة "الجنوب"، "المهمش"، "المنتبذ"، "الضحية"، "المتجذر" للشمال "المركز"، "الغازي"، "المستغل"، "المستبد"، الذي لم تقتصر شهوة طبائع الاستبداد المتأصلة فيه، على تجريب أحدث وأبشع مبتكرات مصانع الإبادة المادية أو المسخ المعنوي للبشر، وإنما تجاوزتها إلى إحراق وتسميم ومسخ الحياة الطبيعية الكونية.

5

ولتجذير وتوسيع وتنويع فضاء الذاكرة الكونية المحتبسة التي تبحث في محابسها عن متنفس يتيح لها المساءلة والقصاص المعنوي، على الأقل، تأتي العتبات الداخلية المتفرعة القائمة على آلية "الفصل والوصل"، التي تعد من بين أهم مكونات "السرد الإطاري"[10] (le récit - cadre)، وتتمثل هذه العتبات المنفصلة، المتصلة، معا، في:

1- "تين أمود"، من ص: 5 إلى ص: 117.

2- "عين الزانة"، من ص: 119 إلى ص: 258.

3- "الشاعر والجدران"، من ص: 259 إلى ص: 358.

4- "الفجيعة على أستار الكعبة"، من ص: 259 إلى ص: 442.

5- "تورا بورا"، من ص: 443 إلى ص: 484.

6- "قديس الماء الأبدي"، من ص: 531 إلى ص: 584.

7- "رماد النبي الأخير"، من ص: 584 إلى ص: 587.

فإذا استثنيا العنوان الأخير (السابع)، الذي يبدو مجرد إضاءة خلفية مختزلة لاحتراق شخصية "أودلف هوسمان"، الغازي الألماني الذي أنشأ فندق أسكرام محبة في رماد نبيه الملهم (شارل دي فوكو)، دفين تامنراست، ليلقى هو أيضا مصرعه، باستثناء ذلك فكل العتبات الأخرى تتكامل في عدة مؤشرات تصبّ كلّها في إشباع وعي المتلقي بقضية الذاكرة الكونية في هذه الرّواية. فعلى المستوى الأبسط، المتمثل في المادة المعجمية، نجدها مفرغة من الإفادة المتعينة في ظاهر اللفظ، إذ ليس لها منطق، الكلام المفيد، ومعنى ذلك أنها مجرد حامل لمحمول مبهم، مستكن، يغري المتلقي -وهو في مقام السرد- بالبحث عن الملفوظ السردي المضمر في قفاها، ولذلك جاءت أشبه ما تكون باللافتات الصماء التي تستفز وعي المتلقي بما لا تقوله. وعلى مستوى البناء الإطاري (الموضوعاتي)، الذي يبدو هو الأهم فيها، نجد أنها جميعا تتكامل في هيكلة ومحورة ومفصلة "وتفضية" النص الرّوائي كلّه، على نحو يجعل المنطق السردي لها، وللنص الرّوائي كلّه أكثر انتظاما في تقنية "السرد الإطاري"، " - Le récit cadré"، التي تتناسل فيها المكونات السردية، تناسلا يقوم على الفصل والوصل، في آن معا، إذ يمكن للمتلقي أن يستقبل هذه العتبات بوصفها "أكوانا"

موضوعاتية جزئية منفصلة عن بعضها، ولكنها جميعا متعالقة فيما بينها أولا، ومنتظمة في "كون" متصل أكبر منها، وهو "كون" ذاكرة "أسكرام" العجيبة، ثانيا، فهي تتكون من ست عتبات تمثل كل واحدة منها لوحة أو لافتة إطارية لمؤطرات سردية تتوالد من بعضها على نحو منفصل يجعلها تمتلك ملمح رواية افتراضية قائمة بذاتها، ما يعني -بالنهاية- أننا بصدد مشروع "سداسية" ذات مؤطرات سردية داخلية متغايرة في الفضاء الذي تحيل عليه وفي مكون الشخصيات المرتبطة بها، وفي مجاري الزمن وفي محتمل الحمولة الدلالية، أوسعها وأكثرها تكثيفا واستشرافا عتبة افتتاحية الرّواية: "تين أمود"، الشخصية النسائية التارقية، الشابة، التي افتتن بها الجميع واستعصت على الجميع، مكتسبة بذلك ظلالا أسطورية رمزية للجزائر العميقة التي تروض وتستعصي على الترويض، بـ 112 ص، وعتبة: "عين الزانة"، الذاكرة المكانية الحيّة التي جاءت شاهد إثبات تاريخي وجغرافي مفتوح الفضاءات على بشاعة الذاكرة الكولونيالية السوداء لفرنسا في الجزائر بـ: 139ص، وأوسطها عتبة "الشاعر والجدران"، التي تتوالد منها تناسلات إشكالية الحرية بين الإلزام والإلزام، أو بين الضرورة الأيديولوجية المغلقة للثورة الكوبية وبين إرادة اختيار حرية التعبير، في الفن عموما، وفي الشعر خاصة، بـ099 ص، وعتبة "الفجيعة على أستار الكعبة"، التي تنتظم مؤطراتها السردية في ذاكرة التدافع أو التنازع الأيديولوجي (الكوني)، القديم، الجديد، بين الإسلام والمسيحية، أو بين الغرب المادي الذي استبدل سلطة الميتافيزيقا بتوثين سلطة الأشياء، والشرق الروحي الذي يحكم الميتافيزيقا في الواقع الفيزيقي، بـ 083ص، وعتبة: "تورا بورا"، المؤسسة، تأسيسا إشهار يا، فجائعيا، تتنظمه فسيفساء الظاهرة الكونية للإرهاب، التي أنتجت وعبئت في الشمال، وسوقت وبرمجت ووظفت في الجنوب، ليحترق بها، العالم كلّه، جنوبا وشمالا بـ 087ص، وأصغرها عتبة

"قديس الماء الأبدي"، التي تشي بمحتمل نهاية رومانسية لتوقع كوني بديل يتمثل في محو ذاكرة الموت والدمار والتنازع، والتأسيس -مجددا- لذاكرة الحياة المتطهرة، انطلاقا من قدسية الماء، التي تستحضر في مضمر هذه العتبة منصوص الآية الكريمة ((وجعلنا من الماء كل شيء حياً))[11].

❻

ولكن كون هذه الأطر والمؤطرات الموضوعاتية "السداسية" التعطيب، متناسلة من موقع ثابت للرصد والاستكشاف والاستقطاب والتوزيع، متمثلا في ما يفضي به الفضاء الكوني المتفحم الحياة، في فندق "أسكرام بالاس"، بتامنراست، وعلى ضفافها، من جهة، وائتلافها جميعا في صيغ وآليات الخطاب الفوري، المتوالد من بعضه، الذي يمثل قاموس "البوح" و"الاعتراف" و"المكاشفة" و"المساءلة"، "كلماته المفاتيح" (les mots clés)، منذ بداية النص الروائي: "ربما أكون ثقيلا عليكم، أنصحكم بتحملي قليلا...(...)، قررت أن أعترف، هكذا رغبة مني، بشيء من سيرتي المختلفة"[12]، وحتى آخر فقرة منه: "انتهت الاعترافات، ولكن هو سمان غير موجود، أين اختفى؟ ما هذه الجلبة والصراخ، أسكرام احترق..." [13]، من جهة ثانية، يجعل منها أقنعة متناوبة تتغذى كلها، -في حالتي الانفصال والاتصال- من محتمل حمولة رؤية الاحتراق الكوني التي أفضت بها العتبة الأم: "اعترافات أسكرام" ومفصلتها وأدارت دورتها الدموية العتبات السنة المتفرعة السابقة، وفاض بها الوعي الكوني المحتبس لذاكرة الشخصيات الإطارية البؤرية الستة، الأساس، مثل ذاكرة شخصية (صالح النازا)، المثقلة بمآسي الاحتراق المادي والمعنوي، التي تحيل على الجرائم الكونية، اللاإنسانية لفرنسا الكولونيالية في الجزائر عموما، وفي أقاصي جنوبها الصحراوي، خصوصا، في افتتاحية الرواية: "تين أمود"[14]، وذاكرة

شخصية (أنطوان مالو)، الموسيقي الفرنسي، سليل وضحية الصندوق الأسود للتاريخ الكولونيالي الفرنسي في الجزائر، من خلال الفضاء المتعابر لها -ذاكرة الشخصية- بين "تامنراست" و"عين الزانة" بمدينة سوق أهراس، أقصى الشرق الجزائري، ومدينة "أميان" الفرنسية[15]، وذاكرة شخصية الشاعر الكوبي (الافتراضية)، (إيناسو ميغوال غارسيا)، سليل الثورة الكوبية، وأحد ضحاياها في: "الشاعر والجدران"[16]، وذاكرة شخصية الفنان التشكيلي الإسباني (رفائيل رامون كابريرا)، المثقلة بأوزار ذاكرة التنافي الأيديولوجي بين سلطة التاريخ الاجتماعي والوجداني والحضاري والعقائدي الوافد من قلب الجزيرة العربية، وسلطة الجغرافيا البشرية البيضاء في الضفة الشمالية للمتوسط، حينا، أو بين سلطة الاستحواذ بالأشياء والاستحواذ بها، وسلطة الاستحواذ بالروح والاستحواذ بها، حينا آخر، في: "الفجيعة على أستار الكعبة"[17]، وذاكرة أمين راشد المدعو الأفغاني، الفلسطيني، المثقلة بذاكرة النفي من التاريخ، والإجتثات من الجغرافيا في: "تورا بورا"، ومن ثمة إلى البديل الافتراضي: ذاكرة شخصية الباحثة اليابانية في اقتصاد التنمية بدول المغرب العربي السيدة (ساديكو)، التي لم تحل شرائط مآسي الموت والدمار والمحو الكوني، التي حلت باليابان قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، دون انتصارها لإرادة الميلاد الجديد للحياة المتطهرة التي تدخرها التجاويف والمسارب المائية في أقاصي الصحراء الجزائرية المترامية في "قديس الماء الأبدي"[19].

7

إن هذا التصميم والإدراج والإخراج الإطاري الكوني،تتناوبه أطر ومؤطرات فيض ذاكرة كونية "مفضاة" اتخذت من تمثل مجرى وعي الشخصيات البؤرية الأساس، المشار إليها، مدارا للقول السردي في هذه الرواية، وذلك على نحو يجعل المتلقي يتوهم أن المدرك السردي في الرواية كلها هو مكون

الشخصية الروائية، في سياق هيمنة الصيغة السردية للمحكي الفوري الذي تواتر في "نقد السرديات" باسم "محكي الكلام"، الذي يفترض فيه أن تختفي أو تتوارى أو تنزوي صيغة "الراوي العالم بكل شيء"، إلا أننا حين نمعن النظر في كيفية تناسل "محكي الكلام"، انطلاقا مما تفضي وتفيض به الذاكرة المتدافعة لهذه الشخصيات، سنجد أن سقف الإيهام الفني أو الجمالي بحيوية أو خلق هذه الشخصيات يتراجع، وذلك لأنها بقيت رهينة مادتها المرجعية الخام "الخارج/روائية"، التي لم تكرر وتشتق وتتحول من مجال التماثل مع علامات الواقع الخارجي المعهود، إلى مجال المتخيل السردي، المعادل للواقع، معادلة فنية أساسها المجاوزة.

وفيما يبدو فإن ذلك لا يعود -بالتأكيد- إلى زهد الكاتب عز الدين ميهوبي في ادعاء الاحتراف الشكلاني للكتابة السردية القائمة على سلطة المتخيل، أو إلى زوال الحدود الحافة بين ما نفترضه واقعا خارجيا وما نفترضه واقعا متخيلا، أو بين ما يبدو مألوفا معلوما، وبين ما يبدو "غرائبيا"، مجهولا، لسبب واحد وهو أن ما يزخر به الواقع الخارجي المستور وراء سطحه المستور، يبدو -في جوانب كثيرة منه- أكثر بلاغة من المنظور المتخيل له، وإنما الأمر يعود -فيما نقدر مؤقتا- إلى تعليلين، يتمثل الأول في أن سلطة صوت الكاتب "الشاعر" في هذه الرواية أوسع مساحة وأعلى نبرا من سلطة صوت الكاتب "الروائي" الذي يفرض عليها انحيازه للنوع الروائي -مهما أمعن في التجريب- أن يُفرِد أصوات الآخرين وأن يحررهم من نسق سلطة صوته المهيمنة.

ولعل ملمح "شعرنة" الكون السردي هو الذي جعل افتتاحية الرواية عموما، والحيز الخاص فيها بالشخصية الدرامية "تين أمود"، خصوصا متخمة بذاكرة نصوص شعرية طويلة ومتنوعة، يتحول فيها مركز اهتمام المتلقي من التعاطي مع مجرى التناسلات السردية المتغيرة، والمتغايرة، إلى التعاطي مع

سكونية الخطاب الشعري[20].

ويتمثل التعليل الثاني -وهو الأهم- في أن البنية الإطارية الناظمة للنص الروائي كله، بنية افتراضية ساكنة تتمثل في قيام الشخصيات الروائية الأساس بمأمورية "ما قبل سردية"، لا تحيد عنها، رغم تراميها المكاني وتمددها الزمني وتنوع المجالات الموضوعاتية لها، وهي أن تتناوب هي أو ما اشتق منها أو جاء في ركابها في أدوار وطقوس وحيثيات الاصطفاف -أولا بأول- على كرسي الاعتراف والمكاشفة والمساءلة كما أرادت لها فرضية "عودة الوعي" المفقود للعالم، التي يبدو أن مبعثها تشبع الكاتب برؤية ثقافية كونية، تتمثل في "أخلقة" الوعي بالكون الذي فقد الأخلاق الكونية، فاختل توازنه، وفاض على بعضه، في السياق العام، وبثقافة الاغتسال والتطهر الروحي من ثقل آثام وأوزار المقامرين به، الذين أخذتهم العزة بالإثم، وأباحوا لأنفسهم حق الوصاية على العالم، ومن ثمة حق تحويله إلى محرقة كونية تبين عنها المقولة الاستعلائية المتعجرفة: "من ليس معنا فهو ضدنا" في سياقاتها ومساراتها ومصبّاتها الكونية القديمة، أو الجديدة المتحينة.

الهوامش والإحالات

1) انظر في مجال السرد والفضاء:

- GERARD GENETTE, FI gures II, ed. du Seuil, Paris 1969, pp: 43-48.

- جوزيف، إ، كيسنر، شعرية الفضاء الروائي، ترجمة: لحسن أحمامة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص: 17-47/61-100/193-257.

2) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات (عالم المعرفة 138)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو/حزيران، 1989، ص 49-87/89-110/165-186.

3) نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة (عالم المعرفة 369)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 2009، ص: 109-184.

4) عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، منشورات البيت، الجزائر 2008، ص:16-21/23-32.

5) محمد العبد: "الخيال العلمي، استراتيجية سردية"، فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ع:71 صيف-خريف 2007، ص: 28-46.

6) تزخر الرواية بأمشاج عديدة للذاكرة الوثائقية (الأرشيفية) كالرسائل والمخطوطات والمحفوظات والصور والأفلام والخطب، الخ... انظر:-على سبيل المثال- عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام (س)، ص:92-97/119-124/134-137/152-168/272-274/325-327.

7) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 2000، ص:91-100/120-121.

وأنظر أيضا: مريد البرغوثي: "إدوارد سعيد صوت التفكير المستقل"، مجلة البلاغة المقارنة "ألف"، الجامعة الأمريكية، القاهرة 2005، ص:16-24.

- فيصل دراج: "أنطونيو غرامشي وإدوارد سعيد، إشكالان مختلفان"، السابق، ص:121-133.

8) عز الدين ميهوبي، ديوان: "عولمة الحب، عولمة النار"، منشورات أصالة الجزائر 2002، ص: 41-68.

9) عثمان بدري، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2000، ص:27-56.

10) للسرد الإطاري في هذه الرواية هوية "الذاكرة داخل الذاكرة"، وعلى سبيل المثال فإن كل المكونات السردية لمخزون الذاكرة الكونية، الذاتية أو الموضوعية، المجهرية الصغرى أو الموسعة، في افتتاحية الرواية "تين أمود"، قد تناسلت من تمثل الكاتب لفيض ذاكرة شخصية صالح النازا، وكذلك الأمر بالنسبة لفيض مخزون ذاكرة الشخصيات الأساس الأخرى في الرواية.

11) سورة الأنبياء، الآية 30.

12) عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام (مص:سا)، ص: 5.

13) المصدر السابق، ص: 584.

14) نفسه، ص:5-128/32-104/109-117.

15) نفسه، ص: 121-137/149-172/173-258.

16) نفسه، ص: 260-269/280-295/306-314/347-358.

17) نفسه، ص: 359-442.

18) نفسه، ص: 443-450/456-479/494-530.

19) نفسه، ص: 531-554/567-584.

20) نفسه، ص: 51-52/93-97.

التّعْمِيَة في خدمة المجتمع

أ. د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة
القبة، الجزائر

" لم نجد في الكتابة السرية لدى كل الحضارات التي استعرضناها حتى الآن ... أي عمل واضح في استخراج المعمّى ... وبالتالي فإن علم التعمية الذي يشمل علمي التعمية واستخراج المعمّى لم يولد حتى هذا التاريخ [أي القرن 7م] في جميع الحضارات التي استعرضناها بما فيها الحضارة الغربية ... ولد علم التعمية بشقّيْه بين العرب، فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعمّى وكتبها ودوّنها. إن هذه الأمة التي انبثقت من الجزيرة العربية في الأعوام الستمئة والتي أشعّت فوق مساحات من العالم المعروف، أخرجت بسرعة واحدة من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت."

(مؤرخ علم التعمية ديفد كاهن David Kahn في كتابه The code breakers)

ملخص:

تُعْنى التعمية cryptography بطرق إخفاء المعلومات ودراسة تطبيقاتها. وهي تعتبر في هذا العصر فرعا من فروع الرياضيات وعلم الحاسوب. نتناول في هذا البحث موضوع التعمية وعلاقتها بشتى الميادين، أبرزها التجارة الإلكترونية والبطاقات البنكية ومختلف كلمات المرور الحديثة، الخ.

ونتناول في البداية الجانب التاريخي للتعمية ومنشأها كعلم تفوق فيه العرب والمسلمون فكانوا روادا في هذا المجال. وقد تطورت التعمية قبل الحرب

العالمية الثانية، كما تواصل هذا التطور بعد الحرب باستخدام وسائل جديدة. ولذا قدمنا بعض التفاصيل حول هذا الجانب ضمن قائمة مرتبة زمنيا تضم أبرز المحطات التي مر بها علم التعمية.

ومن جهة أخرى، خصصنا حيزا من هذه الدراسة للتعمية العسكرية والجوسسة، كما ركزنا على تلك التي تمس المعلومات والوثائق ذات الطابع الاقتصادي والصناعي والاجتماعي، وقدمنا في ذلك نموذجين حديثين. وفي الأخير أشرنا إلى التعمية الكمومية quantum cryptography المبنية على مفاهيم ميكانيكا الكم وإلى آفاقها المذهلة، إذ من المتوقع أن تعوض التعمية الكمومية مستقبلا التعمية المؤسسة على نظرية الأعداد (الرياضيات) المتداولة الآن، وهو ما سيحدث ثورة عارمة في هذا المجال يسقط من جرائها الكثير من الضحايا (بشَرًا ومؤسسات).

كانت الدبلوماسية ومصالح الدفاع العسكري والتجهيزات الحربية تحتكر التعمية cryptography وأدواتها. ومنذ مطلع القرن العشرين بدأت الأمور تتغير في اتجاه آخر، وتمخضت التعمية عبر الرياضيات فولدت علم الحاسوب! والغريب أن هذا العلم الذي لا يتجاوز عمره عشرات السنين قد تمكن من احتواء علم يرجع تاريخه إلى أزيد من عشرين قرنا!، ومنذ منتصف السبعينيات من القرن العشرين، امتد استعمال التعمية من مجال الاتصالات والمراسلات العسكرية والدبلوماسية والأمنية إلى عديد المجالات الأُخرى، مثل الصناعة والاقتصاد والتجارة (للحفاظ على الأسرار المتعلقة بالابتكارات والتصاميم، وبالصفقات التجارية والأوضاع المالية، الخ)؛ والبنوك والهيئات المصرفية (للحفاظ على حسابات الأفراد والودائع، وحمايتها من الاختلاس والتحايل).

وامتد أيضا هذا الاستعمال إلى شبكات الحواسيب الشخصية وغير الشخصية (للحفاظ على أمن المعلومات الحساسة، وحماية الملفات والمعلومات والحيلولة دون ولوج الغير إلى الشبكات عن طريق الرقم السري الخاص بالمستخدم؛ وإلى الاتصالات السلكية واللاسلكية المتعددة الأشكال لحمايتها من خطر التَّنصّت). كما نجد التعمية في البث التلفزيوني حيث يتم تشفير برامج بعض القنوات لمنع مشاهدتها باستثناء المشتركين.

ولعل الكثير من القراء لا يعرفون أن للتعمية دورا بارزا أيضا في مجال البحث عن اللغات القديمة والكشف عن أسرارها، فهي التي كشفت مثلا عن رموز اللغة الهيروغليفية منذ عشرات السنين ... ولا يزال هذا العلم يستخدم في الكشف عن خبايا اللغات المسمارية القديمة. وهكذا تتضح الأهمية المتزايدة التي يكتسيها علم التعمية في كافة المجالات، ومن ثمّ فهو يستحق منا وقفة متأنية لنتعرّف على مختلف جوانبه، سيما التاريخية والمستقبلية.

ما هي التعمية؟

يمكن أن نقول بإيجاز أن التعمية مجموعة من الأدوات التقنية التي تسمح بإخفاء معلومات بواسطة شفرة سرية، كأن تكتب نصا وتستبدل فيه كل حرف بحرف آخر، أو برقم وفق قاعدة معينة (كاستبدال كل حرف بالحرف الذي يليه في الترتيب الأبجدي). وينظر البعض إلى التعمية على أنها "علم السرية".

والواقع أن هناك نوعين من التعمية، هما تعمية المعاني بالتورِية التي تعتمد على خبرة المتراسلين وعلاقاتهم فيما بينهم، وهذا النوع بعيد عن التعمية الحديثة، ولا يهمنا في هذا المقام. أما النوع الثاني، فهو يعنى بتعمية الحروف،

يغض النظر عن معنى الكلمات والجمل، ولذا فهو يخضع لقواعد دقيقة جعل من التعمية علما قائما بذاته.

وتستخدم التعمية الآن، كما كان حالها في الماضي، وسائل لغوية وأدوات من المنطق الرياضي والرياضيات ذاتها، فصارت التعمية الحديثة تمسّ العديد من المظاهر الاجتماعية. وأصبحت بذلك وطيدة الصلة بكافة المجالات العلمية. ومن ثم ساد استعمال أحدث الوسائل التكنولوجية، وأصبحنا في أمس الحاجة إلى سن قوانين جديدة تنظم سيْر هذا العلم وتتماشى مع نظرة الأفراد والمسؤولين لمفهوم "السرية".

ويرى بعض المؤرخين أن التعمية بدأت فنّا ثم صارت تقنية، ولم تلبث طويلا حتى أصبحت علما مستقلا بقواعده وأدواته المختلفة. وقد عاشت التعمية هذه المراحل الثلاث غير المتساوية المدة، وانتقلت من مرحلة إلى أخرى عبر انقطاعات وقفزات نوعية أوصلتها إلى عصرها الحالي، وهو يمثل بدون شك عصرها الذهبي. لنستعرض الجانب التاريخي لعلم التعمية مبتدئين بما أسهم به أجدادنا العرب والمسلمون في هذا الباب لأنهم أهل لهذا التبجيل كما سنرى أدناه.

التعمية عند العرب والمسلمين:

لا شك أن القارئ غير المختص سيستغرب عندما يطلع على رأي ثلاثة خبراء ومؤرخين عرب لعلم التعمية، وهم محمد مرياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيان حين يقولون : "خلصنا من بحثنا هذا إلى أن علم التعمية واستخراج المعمّى علم عربي الأصل والنشأة والتطور، فالعلماء العرب هم أول من كتب في طرائق التعمية الرئيسية التي مازال العالم يستخدم بعضها حتى اليوم. وما كان لنا أن نصل إلى هذه الحقيقة لولا اكتشافنا مخطوطات عربية مهمة

في هذا الباب، منها ما هو موغل في القدم يعود إلى القرن الثالث للهجرة، ومنها ما كان في حكم الضائع المفقود ... " (مرياتي، 1992 : ص 27).

وهذه شهادة أخرى لأحد الغربيين تؤكد رأي المؤرخين العرب السابقين في أسبقية أجدادنا في اكتشاف طرق استخراج المعمّى وتآليفهم في هذا الموضوع. يقول مؤرخ علم التعمية ديفد كاهن David Kahn : " لم نجد في الكتابة السرية لدى كل الحضارات التي استعرضناها حتى الآن ... أي عمل واضح في استخراج المعمّى ... وبالتالي فإن علم التعمية الذي يشمل علمي التعمية واستخراج المعمّى لم يولد حتى هذا التاريخ 1 في جميع الحضارات التي استعرضناها بما فيها الحضارة الغربية ... ولد علم التعمية بشقيه بين العرب، فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعمّى وكتبها ودونها. إن هذه الأمة التي انبثقت من الجزيرة العربية في الأعوام الستمئة والتي أشعّت فوق مساحات من العالم المعروف، أخرجت بسرعة واحدة من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت."2 (مرياتي، 1992 : ص 30).

وتأكيدا على ما ذهب إليه هؤلاء الخبراء جميعا، نتعرّف على بعض العرب القدامى الذين كتبوا في علم التعمية وانشغلوا به خلال نحو ثمانية قرون :

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ/718م-170هـ/786م) : ينسب إليه كتاب في التعمية لم يعثر عليه المؤرخون، بل هناك من اعتبر هذا العالم أول من وضع علم التعمية وكتب فيه.

2- جابر بن حيان (توفي 200هـ/810م) : ألف كتاب "حل الرموز ومفاتيح الكنوز".

3- ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصري (توفي 245هـ/859م) : ألّف كتاب "حل الرموز وبرء الأسفام في أصول اللغات والأقلام".

4- سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (توفي 248هـ/862م) : قال فيه ابن النديم في "الفهرست" أنه كان "يتبحر في الكتب ويخرج المعمّى، حاذق في ذلك، دقيق النظر فيه."

5- يعقوب بن إسحاق الكندي (توفي 260هـ/873م) : من مؤلفاته في التعمية رسالة في استخراج المعمّى.

6- أحمد بن علي بن وحشية (توفي بعد 291هـ/914م) : من مؤلفاته في علم التعمية "شوق المستهام في معرفة الأقلام". وقد ترجم الكتاب إلى الإنكليزية عام 1806.

7- محمد بن أحمد بن كيسان (القرن 3هـ/9م) : قال ياقوت الحموي في "معجم الأدباء" أن "له في العروض والمعمّى كتابا."

8- داود بن الهيثم بن إسحاق التنوخي (228هـ/843م-316هـ/928م) : كان نحويا لغويا حسن المعرفة بالعروض واستخراج المعمّى.

9- محمد بن أحمد بن محمد بن طباطبا (توفي 322هـ/934م) : من مؤلفاته رسالة في استخراج المعمّى.

10- محمد بن سعيد البصير الموصلي (القرن 4هـ/10م) : كان رائدا في استخراج المعمّى والعروض.

11- إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب (نحو القرن 4هـ/10م) : من مؤلفاته في علم التعمية كتاب "البيان والتبيين."

12- أحمد بن عبد العزيز الشنتمري (كان حيّا عام 553هـ/1158م) : كان ذائع الصيت في العروض وفك المعمّى.

13- أسعد بن مهذب بن مماتيّ (554هـ/1149م-606هـ/1209م) : من مؤلفاته في علم التعمية كتاب "خصائص المعرفة في المعمّيات."

14- إبراهيم بن محمد بن دُنَيْنير (583هـ/1187م-627هـ/1229م) : من مؤلفاته في علم التعمية كتاب "مقاصد الفصول عن حلّ الترجمة."

15- علي بن عدلان النحوي المترجم (583هـ/1187م-666هـ/1268م) : من مؤلفاته في علم التعمية كتاب "المؤلَّف للملك الأشرف في حل التراجم" وكتاب "المُغْلَم".

16- علي بن محمد بن الدريهم (712هـ/1312م-762هـ/1359م) : من مؤلفاته في علم التعمية "مفتاح الكنوز في إيضاح الرموز" و"إيضاح المبهم في حل المترجم" و"مختصر المبهم في حل المترجم" ونظم لقواعد فن المترجم وضوابطه وقصيدة "في حل رموز الأقلام المكتوبة".

17- علي بن محمد بن أيدمر الجلدكي (توفي 742هـ/1341م) : من مؤلفاته في علم التعمية "كنز الاختصاص ودرّة الغواص في معرفة أسرار علم الخواص".

18- أحمد بن علي القلقشندي (756هـ/1355م-821هـ/1418م) : نجد فصلا كاملا في موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" المكونة من 14 جزءا يتناول موضوع التعمية.

19- أحمد بن محمد أبو القاسم العراقي3 : من مؤلفاته في علم التعمية "حل الرموز وفتح أقفال الكنوز".

20- محمد بن الحسن أبو الحسن الجرهمي4 : له شرح حول طريقة حل تعمية الشعر.

وما دام الأمر هكذا فمن حقنا أن نتساءل : ما الذي جعل العرب والمسلمين يهتمون إلى هذه الدرجة بعلم التعمية بوجه عام؟ يجيب المؤرخون عن هذا السؤال بملاحظتين هما : ظهرت التعمية، بمعنى "تشفير النصوص" في القرنين الثاني والثالث للهجرة، وهذا راجع لمتطلبات ترجمة كتب الحضارات الأخرى، علما أن بعضها كان معمّى. ثم إن الحاجة السياسية إلى التعمية، سيما

في منطقة الشام ومصر، ابتداءً من القرن السادس للهجرة ساعدت على تطور هذا العلم، وصار الملوك يستعملون التعمية في مراسلاتهم، وامتد ذلك إلى دواوينهم المختلفة. كما يلاحظ المؤرخون في هذا الباب أنه لولا التقدم الذي عرفته مختلف العلوم عند العرب في ذلك الوقت، وبوجه خاص الرياضيات وعلم اللغة لمَا بلغ علم التعمية ذلك المستوى المتقدم على أيديهم.

وهكذا نرى أن الحاجة الأمنية هي التي دفعت علم التعمية إلى الأمام مستغلا تطوّر العلوم الأخرى. فابتداء من القرن الرابع نجد العديد من العاملين في الدواوين والإدارات يستعملون التعمية حتى صار أمناء السر ملزمين بالإلمام بهذا العلم.

التعمية قبل الحرب العالمية الثانية:

لقد ظهرت التعمية، بمعناها البسيط، منذ العصور الغابرة إذ عثر علماء الآثار عما يثبت استعمالها في عهد الفراعنة. ويُذكر بوجه خاص أن اليهود قديما كانوا يخفون معانى بعض النصوص بقلب أحرف الأبجدية (وهو ما يسمى التعمية بالقلب)، أي باستبدال آخر حرف في الأبجدية بأول حرف فيها واستبدال ثاني حرف بالحرف قبل الأخير، وهكذا دواليك. ويمكن أيضا أن تقلب حروف كل كلمة على حدة في النص، فنكتب مثلا "دمحم لاخ دلاخ" بدل "محمد خال خالد".

وهناك أيضا طريقة التعمية بالإبدال التي تتمثل في الاتفاق على استبدال كل (أو بعض) الأحرف بأحرف أو رموز وفق قاعدة معينة. وعلى سبيل المثال كان يوليوس قيصر يستعمل (القرن 1 ق.م.) شفرة سرية في مراسلاته حيث كان يسحب مثلا جميع الحروف بأربع مراتب : الألف يصبح ثاء والباء جيما

والتاء حاء، الخ. ويتفرع عن علم التعمية علمٌ يسمى "استخراج المعمّى"، وهو يستخدم علم اللسانيات (خصوصيات اللغة التي تكتب بها الرسائل المشفرة) والرياضيات والإحصاء.

وقد امتدت هذه المرحلة إلى الفترة التي تفصل الحرب العالمية الأولى عن الثانية. ومن المعلوم أن بعض الطرق التقليدية والميكانيكية قد تواصل استخدامها حتى فترة الحرب العالمية الثانية. ويرى المتتبعون أن هذه المرحلة (العصر الفني كما يصفه البعض) هو الذي جلب الأنظار أكثر من أي وقت مضى.

ويفرّق المختصون بين فرعين للتعمية : cryptology (علم التعمية) الذي يهتم بعلم المراسلات السرية وبين cryptography (فن التعمية) الذي يعني مجموعة الطرق والتقنيات التي تضمن السرية. لكن هذا التمييز بين المصطلحين لا زال حديث العهد ولم ينتشر استعماله بين الناس، ولذا سوف نهمل هنا هذا التمييز.

وكان الاهتمام خلال العصر الفني منصبّا على كيفيات التشفير، أي تحويل نص واضح إلى نص غامض المعنى. وبعدها تأتي عملية إزالة التشفير (استخراج المعمّى)، أي ردّ النص الغامض إلى نص مقروء وواضح استنادا إلى القواعد التي تم بها التشفير. وهنا يميّز المختصون بين إزالة التشفير وإزالة التعمية حيث يكمن الفرق بينهما في كون الأولى تعتمد على قواعد وآليات تم بها التشفير. أما الثانية (إزالة التعمية) فتتم دون معرفة مسبقة لتلك القواعد، كما يفعل القراصنة. وسنستعمل هنا – قصد التيسير، ولأننا لا نحتاج إلى المبالغة في التدقيق - مصطلح "التعمية" للدلالة على المصطلحين بما في ذلك التعمية في حد ذاتها (التشفير) وفك (أو استخراج) المعمّى (كسر الشفرة، أو كسر مفتاح التعمية).

لقد تطورت وتحسنت الطرق التقليدية من عهد الفراعنة وقيصر الروم إلى الحرب العالمية الأولى ببطء شديد. ورغم ذلك ظلت التعمية تستخدم أدوات

ضعيفة وسهلة الاختراق. ويرجع ذلك إلى ضعف الوسائل التكنولوجية وإلى كون الجانب النظري لم يتحرر عن الجانب العملي، فلم تظهر مفاهيم نظرية بارزة إلا بعد مرور فترة نضج دامت قرونا.

وكان ظهور مفتاح التشفير قد مكّن من بروز مبدأ آلية تعمية التغيرات بشكل دوري. والملاحظ أن ظهور هذا المفتاح قد واكب "تكميم" أفواه الرياضيين : كان جلّ رجال التعمية خلال الفترة الممتدة من القرون الوسطى إلى عصر النهضة الأوروبية من المختصين في الرياضيات. وتغيّر الأمر فيما بعد وحلّ العسكريون ورجال الأمن محلّ الرياضيين لأن الطابع السري لهذا النوع من الأبحاث يتطلب هذا الخيار.

وعند انتهاء الحرب العالمية الأولى ظهرت آلات تشفير أدت إلى الاستغناء عن كثير من اليد العاملة وحسنت إمكانيات التشفير، ومن ثمّ ظهرت الحاجة إلى تطوير الجانب النظري. فنودي مجددا إلى الرياضيين، لكنه لم يكن من السهل، بالنسبة للعسكريين وزملائهم الأمنيين، إعادة الرياضيين إلى مجال التعمية لأنها أصبحت تعتبر سلاحا مرتبطا بالجهد الحربي والأمني درجة سريته تتطلب توخي الحيطة والحذر الشديدين.

وفي هذا الجو المتقلب، لا نستغرب أن نرى العالم آينشتاين وزملاءه منهمكين في صناعة القنبلة الذرية بلوس ألموس Los Alamos الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كان فيه الرياضي البريطاني آلن تورينغ Turing (1912-1954) يطوّر في الريف الإنكليزي آلة كولسوس Colossus التي تعتبر أول آلة إلكترونية حاسبة قابلة للبرمجة. إنها بداية عصر جديد بالنسبة للتعمية، إنه "عصر التقنية". لكن ما علاقة آلة كولسوس بالتعمية؟

لقد كان مشروع كولسوس - الذي أشرفت عليه مصلحة الشفرة البريطانية - جزءا من برنامج يهدف إلى إزالة التعمية للاتصالات التي يقوم بها الألمان. وليس من محض الصدفة أن نجد الآلة، التي تسمى آلة تورينغ، تمثل في الواقع نموذجا لجهاز سمي فيما بعد الحاسوب (أو الكومبيوتر)! وهكذا نرى أن التعمية كانت من وراء صناعة الحاسوب وظهور علم الحاسوب. هل نستغرب بعد ذلك من صلة علم التعمية بعلم الحاسوب؟! من هنا بدأت المرحلة الثالثة للتعمية ودخلت عصرها الذهبي من بابه الواسع.

ولم يكن تورينغ وحده في مجال البحث عن إزالة التعمية. ففي مخابر بيل Bell الأمريكية كان كلود شانون Shannon قد و�ع أسس ما يسمى بـ: "نظرية السرية" حتى إن كانت هذه النظرية قد خيّبت آمال البعض. لكن ذلك لم يمنع الأمريكيين من اختراق الشفرة اليابانية آنذاك، وساهم ذلك في انتصار الحلفاء على جيوش هتلر خلال الحرب العالمية الثانية. ومهما يكن من أمر فإن العسكريين ورجال الأمن ساهموا خلال قرون عديدة في تطوير التعمية، ولا يزالون.

والجدير بالذكر هنا أن الاتصالات الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية كانت تتم بالراديو عبر الشفرة الشهيرة إنيغما Enigma. ولعل أبرز حدث عرفه علم التعمية من الناحية الأمنية هو نظام إنيغما الذي ابتكره الألمان قبل الحرب العالمية الثانية. وهو يتمثل في آلة كهروميكانيكية تقوم بتشفير وفكّ تشفير البرقيات المتعلقة بقوات الحلفاء.

وكانت آلة إنغما �خمة لكنها تحمل إلى جبهة القتال على عجلات. والغالب أن الألمان كانوا واثقين من استحالة اختراق هذا النظام، والمؤكد أنهم لم يكونوا على علم من أن هذا النظام كان قد اخترق من قبل الحلفاء قبل اندلاع

الحرب العالمية الثانية بفضل آلة كولسوس، كما أسلفنا. وهذا ما مكّن الحلفاء من فك شفرة نحو 80 % من برقيات الألمان. وقد خصص الحلفاء لهذا العمل التجسسي خلال الحرب أزيد من عشرة آلاف موظف في مركز سري بضواحي لندن. سنعود أدناه ببعض التفاصيل إلى دور التعمية في الجوسسة.

التعمية بعد الحرب العالمية الثانية:

ليس من الغريب أن يكون المدير العلمي، آلن تورينغ، لفريق الباحثين الأنكليز الذين تمكنوا من كسر شفرة آلة إنيغما رياضي التكوين. فقد أدت الآلة التي تحمل اسمه إلى ابتكار أول حاسوب في العالم عام 1948. وظل هذا الابتكار طي الكتمان عشرات السنين.

والواقع أن تطور المعلوماتية عرف قفزة نوعية منذ السبعينيات فجعل علم التعمية يتقدم بسرعة فائقة بفضل الرياضيات التي أتاحت حلولا نظرية لقضية تبادل المعلومات بين عدة أطراف بصفة سرية وذلك بناء على مفهومين جديدين هما مفهوم "المفتاح العمومية" ومفهوم "التوقيع الرقمي".

هناك طريقتان رئيسيتان للتشفير: نظام يقوم على مفتاح متناظرة تسمى "المفتاح السرية" ونظام يقوم على مفتاح غير متناظرة تسمى "المفتاح العمومية". إذا استخدم شخصان "المفتاح المتناظرة" في تبادل الرسائل ينبغي عليهما اقتسام سر يدعى المفتاح السرية. تسمح هذه المفتاح بتشفير الرسالة عند الإرسال، ثم إزالة تشفيرها عند الاستلام. ومن نقائص هذه التقنية وجوب إرسال المفتاح. ولذا يتعيّن أن تكون قناة المراسلة قناة آمنة.

ولنضرب هنا مثالا نوضح به كيف يمكن الاعتماد على أدوات رياضية في مجال التعمية بالمفتاح السرية : هب أن عليا وأحمد أرادا تبادل برقيات سرية.

عليهما أن يتفقا على استعمال مفتاح سرية... يمكنهما مثلا أن يقررا تبني مفتاحا تستخدم عددا يتكوّن من 19 رقما. ينبغي أيضا أن يتفقا على استعمال صيغة ريا□ية تسمح بتعمية (تشفير) البرقية، ثم باستخراج المعمّى (كسر الشفرة). حتى يرسل علي برقيته يستعمل المفتاح المتفق عليها والصيغة الريا□ية، فتصبح بذلك مشفرة غير مقروءة من طرف أي كان. وعندما تصل البرقية إلى أحمد يستخرج المعمى باستعمال نفس المفتاح ونفس الصيغة الريا□ية.

فما من شك أن هذا النوع من التشفير قد ساعد على تطوير علم التعمية المعلوماتية، لكن عيبه الرئيسي يتمثّل في كونه لا يصلح إلا إذا كان عدد المعنيين بالبرقية لا يتجاوز بضعة أشخاص. ذلك أن تطور شبكة الأنترنت وكثرة زبائنها لا يسمح باستخدام هذا النوع من التعمية على نطاق واسع. والحل ربما يكمن في إيجاد مفتاح سرية لكل شخصين إثنين. غير أنه يستحيل تسيير شبكة الانترنت بهذا العدد من المفاتيح : فإذا كان عدد المفاتيح اللازمة لخمسة أشخاص هو 10 مفاتيح فإن عدد المفاتيح المطلوبة لألف شخص سيكون نصف مليون مفتاح لتأمين سرية جميع المراسلات.

وحتى تُحل مسألة تعدد المفاتيح السرية تمّ عام 1975 إدخال مفهوم المفتاح العمومية. ويستعمل هذا المفهوم نفس المبدأ المبيّن في المثال السابق إلا أننا ندخل متغيرا للتشفير وآخر لفك التشفير : تتكوّن المفتاح من جزأين لهما وظيفتان مختلفتان: جزء (مفتاح) سري وجزء (مفتاح) عمومي. وعلى كل شخص أن يعلن للآخر عن مفتاحه العمومية ويحافظ على مفتاحه السرية. ويتم التشفير بواسطة المفتاح العمومية التي يمتلكها مستلم الرسالة ويزال التشفير بواسطة المفتاح السرية لهذا الأخير. وهكذا فكل من يملك المفتاح العمومية يمكنه تشفير رسائله، علما أن مستقبِل الرسالة سيستعمل مفتاحه الخاصة لفك الشفرة.

لقد طور الرياضيون عام 1977 هذه الطريقة وسمّوها طريقة RSA (وهي الأحرف الأولى للرياضيين الثلاثة الذين ابتكروها5) بناء على نظرية الأعداد مستخدمين الأعداد الأولية التي سنشير إليها لاحقا. والواقع أن الحاجة إلى التعمية تجاوزت آنذاك المجالات التقليدية (العسكرية والدبلوماسية، الخ.) إذ أصبحت حاجة عمومية تمس الحياة اليومية للمؤسسات بكافة أشكالها وكذا الأفراد. وهكذا صارت التعمية الحديثة، بفضل خدمات الحاسوب، اختصاصا تابعا لمجال البحث العمومي – إضافة إلى البحث العسكري والأمني – في المعلوماتية النظرية.

ويتفق الخبراء على القول بأن التعمية الحديثة قد برزت بظهور بحث الأستاذين ديفي Diffie وهلمان Hellman عام 1976 6. وهم يؤكدون أن ظهور الحاسوب قلب المفاهيم الأساسية للتعمية، ذلك أنه وفّـر قوة حسابية فائقة لفئة الباحثين، سيما في مجال إزالة التعمية.

ومن العوامل التي طورت التعمية منذ نشأتها حدة "المواجهة" بين فئة الباحثين في مجال حماية المعطيات ووضعها في مأمن من القرصنة وبين فئة الباحثين في طرق إزالة التعمية وكسر الحماية. وأدى تطور هذه المواجهة ببعض المسؤولين إلى رفع طابع السرية على الكثير من الخوارزميات المستخدمة.

ومنذ الثمانينيات أصبحت الحاسوبات الشخصية تزداد قوة بحيث صار باستطاعتها استخدام أنظمة تعمية كانت في السابق حكرا للأجهزة العسكرية ... بل انقلبت الأمور اليوم وصارت أفضل خوارزميات التشفير وأفضل أنظمة التعمية تكتشف داخل مخابر الرياضيات التطبيقية بعيدا عن عيون العسكريين ورجال الأمن الذين تحولوا أحيانا إلى زبائن يشترون برامج التشفير والتعمية من القطاع المدني لسد بعض حاجياتهم.

أما التوقيع الرقمي فيسمح، خلافا للمفتاح العمومية، بتوقيع برقية بصيغة رقمية تماما كما نوقع عقدا أو رسالة عادية. ويستعمل هذا النوع من التوقيع عكس فكرة المفتاح العمومية : إذا كان أحدهم يمتلك مفتاحا خاصة ومفتاحا عمومية فإنه يتم القيام بسلسلة حسابات انطلاقا من المفتاح السرية ومن البرقية التي ستحمل التوقيع فيرفق التوقيع بالبرقية. وسيتمكن مستقبِل البرقية من التأكد من التوقيع انطلاقا من المفتاح العمومية ومن التوقيع وذلك حتى يتحقق من أن الأمر يتعلق بالتوقيع المناسب.

ومن جهة أخرى فإن ظهور الإنترنت والبريد الإلكتروني في نهاية القرن العشرين طرح مسائل أمنية عويصة سارع المختصون إلى البحث عن الحلول المناسبة لها من خلال تطوير وسائل التعمية. والسؤال المطروح في هذا السياق هو : هل هناك ضمانات أمنية عندما نستخدم البريد الإلكتروني، أو الهاتف الخلوي، أو عندما نرسل برقم بطاقة التأمين (التمويل) عبر الإنترنت؟ والواقع يقول إنه لا وجود لضمانات أكيدة في هذا الباب لأن القراصنة قادرون على تحويل تلك المعلومات باستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة وتطور المعلوماتية.

والتعمية تُستخدَم أيضا في إبرام الصفقات التجارية والمبادلات البنكية لتأمين مثل هذه العمليات المالية. وقبل ذلك كانت (ولا تزال) معظم الاتصالات بين البنوك خاضعة للتشفير. كما أصبحت الآن التوقيعات الرقمية مقبولة لدى العديد من البنوك، وهو ما يجعل هذا الميدان عرضة لكل المخاطر. ولذا فإنه يحتاج إلى ضوابط أمنية كبيرة حتى لا يتمكن القراصنة من الاختراق وتحويل الصفقات والأموال إلى غير وجهتها، أو تغيير قيم المبالغ المحولة أو الأمر بتحويل مبالغ بدون علم أصحابها، الخ.

ولذلك فالسعي إلى المزيد من تأمين البطاقات البنكية ونحوها لا زال حثيثا، ولن يتوقف لأن بقدر ما تشتد القيود الأمنية بقدر ما يزيد بحث القراصنة عن اختراقها، فهي في نهاية المطـاف معركة دائمة في هذا القطاع بين طرفين، هما : طرف أصحاب البنوك ورجال الأعمال، وطرف القراصنة والمحتالين. والملاحظ أن التعمية "المدنية" ظهرت، شيئا فشيئا، بعد أن تبنّت الولايات المتحدة الأمريكية مقياسا تجاريا للتشفير، عام 1977، يمكن أن يكون مرجعا لكل رجال الصناعة وهو مقياس "ديس" DES (Data Encryption Standard). ولازال هذا المقياس لم يفقد إلى اليوم أهميته.

إن التحول من الطابع "العسكري" إلى الطابع "المدني" لم يتم دون ظهور مستجدات على صعيد البحث العلمي في مجال التعمية. ففي حقل الصفقات التجارية، لوحظ مثلا وجود معطيات قد لا تعتبر سرية، وهو ما أ[illegible]اف مهام جديدة للتعمية (قد نكون حريصين مثلا في تعاملنا التجاري على عدم كشف هوية الشريك أو فحوى وثيقة لا غير).

ومن بين المبتكرات الحديثة في البطاقات البنكية أن التعرف على البطاقة ورقمها السري يتم من خلال حسابات تجرى داخل البطاقة ذاتها ولا تجرى داخل النظام المعلوماتي للمؤسسة التي يتعامل معها صاحب البطاقة. وهذا يعني أن البطاقة لا تترك أثرا في أجهزة المؤسسة التي من الجائز أن تخترق من قبل القراصنة ويطال الضرر في تلك الحالة صاحب البطاقة. وهذا ما يزيد في تأمين التعامل بالبطاقات البنكية. وقد قطعت التعمية الحديثة شوطا معتبرا جعلها تهتم حتى بالفنون الجميلة والصور حيث يمكن تشفير صورة موزعة على شبكة الإنترنت. وهذا يساعد مثلا على الكشف عن مهربي اللوحات الفنية ونحوها، وليس فقط عن مبيضي الأموال والمتعاملين معهم.

محطات تاريخية بارزة:

استكمالا للمعلومات التاريخية المقدمة آنفا، نستعرض في ما يلي ملخصا يتبع التسلسل الزمني، ويشير لأبرز المحطات التي عرفها تاريخ التعمية منذ العهود الغابرة حتى نهاية القرن العشرين7. ولم نواصل تقديم أحداث القرن الحادي والعشرين لكثرتها وتشعبها، ولأننا سنشير إلى بعض منها في بقية هذا البحث.

* حوالي 1900 قبل الميلاد : كانت هناك كتابات هيروغليفية غير مطابقة للغة المتداولة آنذاك. ولذا اعتبر بعض المؤرخين أنها تمثّل أول كتابة معمّاة.

* 1500 قبل الميلاد : هناك لوح من آسيا الصغرى يحتوي على صيغة مشفرة لصنع دهن برّاق لطلاء الأواني الطينية.

* 600-500 قبل الميلاد : مخطوطات عبرية استعملت التشفير.

* 487 قبل الميلاد : استعمل اليونانيون وسيلة في التشفير وفكّ التشفير تتمثل في عصا تُلفّ حولها قطعة من الجلد، ويكتب عليها نص الرسالة. ثم تستخدم هذه القطعة كحزام لحامل الرسالة. وعندما يصل المبعوث إلى الشخص الذي ينبغي أن يقرأ الرسالة يلفها هذا الأخير حول عصا في حوزته فيستخرج المعمّى وتصبح الرسالة مقروءة.

* حوالي 150 قبل الميلاد : اكتشاف في اليونان ساعد فيما بعد العديد من المهتمين بمجال التعمية.

* 60-50 قبل الميلاد : استخدم القيصر (100-44 ق.م.) طريقة الإبدال في التعمية فأزاح حروف الأبجدية بمقدار معين في مراسلاته. كما عوّض أحيانا الأحرف اللاتينية بالأحرف اليونانية. وكان هذا كافيا للتعمية في ذلك الوقت، سيما أن الأمية كانت منتشرة بين الناس.

* القرن الثامن الميلادي : دخول العهد العربي الإسلامي والتعمية العربية. ومن أبرز الكتابات فيها كتاب ابن وحشية "الشوق المستهام في معرفة رموز الكلام" وكتاب الكندي الذي يوضح طرق استخراج المعمّى، وهو أقدم نص يكتب في هذا الموضوع حسب المؤرخين، من بينهم سيمون سينغ Singh Simon. وقد ظل العرب والمسلمون متفوقين على الأوربيين خلال عدة قرون في مجال التعمية.

* 1226م : ظهرت انطلاقا من هذه السنة تعمية ذات طابع سياسي نجدها في أرشيف مدينة البندقية.

* حوالي 1250م : وصف روجيه باكون Roger Bacon عدة طرق للتعمية موضحا "أن الإنسان الذي يعبر عن سر بشكل غير ذلك الذي يحوّره لحيلولة دون تمكّن الآخرين من الإطلاع عليه إنسان مجنون".

* 1379م : قدم غابرييل دي لافيند Gabriel de Lavinde عدة مفاتيح تشفير بسيطة إضافة إلى أبجدية تشفير. ويعتبر عمل دي لافيند أول نموذج لكيفية دام استعمالها قرابة أربعة قرون في أوروبا وأميركا.

* 1392م : ضم جوفري شوسر Geoffrey Chaucer إلى أحد كتبه الخاصة بتشغيل آلة فلكية نصوصا توضح بعض قوانين التعمية.

* 1412م : قدم أحمد بن علي القلقشندي (756هـ/1355م-821هـ/1418م) في موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" المشكلة من 14 جزءا مجمل ما توصل إليه العرب والمسلمين في ذلك الوقت في مجال التعمية. ومما نجد في هذه الموسوعة كيفية إخفاء المعلومات السرية من خلال الحروف.

* 1466م : ابتكر ليون باتيستا ألبرتي Leon Battista Alberti أول طريقة تشفير متعددة الأبجديات. ويبدو أن طريقته في التعمية لم تكسر حتى القرن التاسع عشر. وكانت هذه الطريقة أكثر أمنا من طريقة دي لافيند التي كانت مستعملة بوجه خاص في الشؤون الدبلوماسية. ولم يتم إدخال اختصارات على هذه الطريقة إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

* 1474م : ألّف سيكو سيمونيتا Sicco Simonetta كتابا في التعمية "كتاب الشفرة" (Liber Sifrorum) خدمة لدوق ميلانو الإيطالية.

* 1506 : كان جيوفاني سورو Giovanni Soro من أبرز علماء التعمية الأوروبيين. فقد كان مسؤولا عن التشفير في البندقية بدءا من عام 1506م. وكان بابا الفاتيكان قد اختبر شفرته لدى سورو فأرسل إليه نصوصا معمّاة طالبا منه كسر تعميتها، فأجاب سورو بأنه لم يتمكن من ذلك. لكن البعض يشكك في صدق سورو ... فلعله ادعى ذلك حتى يواصل الإطلاع على أسرار الفاتيكان.

* 1518 : كتب جون تريتم Jean Trithème أول كتاب مطبوع حول التعمية. وابتكر طريقة تعمية نجد فيها كل حرف ممثلا بكلمة. كما جاء بتشفير متعدد الأبجديات وضحها في جداول.

* حوالي 1550 : ابتكر جيروم كاردان Jérôme Cardan شبكة سميت باسمه. وتستعمل هذه الشبكة التي تظهر فيها نوافذ فارغة وأخرى داكنة كما يلي : يكتب المشفِّر نصه بشكل طبيعي عبر النوافذ الفارغة، ثم يسحب الشبكة ويملأ الفراغات بنصوص وهمية (أي نصوص عشوائية). وعندما يصل النص إلى صاحبه فما عليه سوى وضع شبكة كاردان على النص فيظهر له النص المفيد دون غيره فيدرك مغزى الرسالة.

* 1553 : ألّف جيوفن باتيستا بيلازو Giovan Batista Belaso كتابا أو�ح فيه طريقة تعمية بالإبدال متعددة الأبجديات. وأدخل عليها عبارة "كلمة السر". ومن المعلوم أن هذه الفكرة تعتبر أساس ما يستعمل حاليا في بعض أنظمة التعمية.

* 1563م : ألّف جيوفاني باتيستا ديلا بورتا Giovanni Battista Della Porta أربعة كتب حول تاريخ التشفير قبل عهده وخلاله. كما تناول فيه المميزات اللغوية التي تساعد على التشفير. والملاحظ أن أفكاره لا زالت معتمدة لحد الآن في مجال التعمية. ومن تلك الأفكار كيفية استبدال حرفين برمز واحد.

* 1578 : ألّف مارينس Marins الذي كان أحد موظفي التعمية في جمهورية البندقية كتابه "من عالم استخراج المعمّى" (Del mondo di extrazar le cifre).

* 1585 : ألّف بليز دي فيجينير Blaise de Vigenère كتابا حول التشفير �مّنه جدولا مهمًا في مجال التعمية يحمل اسمه. وقد ساد الاعتقاد بأن طريقته في التعمية يستحيل كسرها. والحقيقة أنها كسرت في نهاية القرن التاسع عشر... وهذا لم يمنع مجلة علمية راقية – وهي مجلة Scientific American - من أن تؤكد عام 1917، أي بعد أزيد من ـمسين سنة من كسر هذه الشفرة، بأنها "شفرة مستحيلة الكسر".

* 1623 : ابتكر فرنسيس باكون Francis Bacon نظام تعمية جديد. ويعتقد البعض أن هذا الشخص هو في الواقع وليم شكسبير.

* 1691 : أعد أنتوان روسينيول Antoine Rossignol بمعية ابنه مؤلفا سمّاه "الشفرة الكبرى" (Grand Chiffre) حول التعمية أهداه للملك لويس الرابع

عشر. لكن قراءته كانت صعبة بحيث عجز المختصون عن قراءته حتى نهاية القرن التاسع عشر.

- قبل مواصلة استعراض هذه الومضات التاريخية نشير إلى أن ظهور التقنيات الجديدة خلال المرحلة الموالية في مجال الاتصال (النقل، الصحف، التلغراف، ...) كان حافزا قويا أدى إلى تقدم علم التعمية. كما أن الحروب والصراعات بين الدول دفعت في نفس الاتجاه.

* 1790 : ابتكر تومس جفرسون Thomas Jefferson اسطوانة مشفِّرة متميزة، مما جعلها تظل مستعملة - رغم التقدم التقني السريع – حتى بعد قرن ونصف من ابتكارها. وبعد أن أهمل هذا الابتكار خلال فترة معينة أعيد إحيا ئه عام 1891 من قبل الضابط إتيان بازيري Etienne Bazeries الذي حاول بدون جدوى أن يتبناه الجيش الفرنسي. والغريب أن الجيش الأمريكي قد ابتكر نظاما يكاد يكون مطابقا لاسطوانة جفرسون عام 1922.

* 1854 : كان شارل ويتستون Charles Wheatstone من رواد التلغراف الكهربائي. وقد ابتكر طريقة تعمية متميزة.

* 1857 : بعد وفاة الأميرال فرنسيس بوفور Francis Beaufort نشر أخوه شفرة تحمل اسمه.

* 1854 : قام شارل باباج Charles Babbage بكسر شفرة دي فيجينير، لكن هذا الإنجاز ظل مجهولا لأنه لم ينشر مضمونه. ولم يتم تسليط الضوء عليه إلا في القرن العشرين حين درس المؤرخون مجموعة مؤلفات وبحوث باباج.

* 1861 : نشر فردريك كازسكي Friedrich Kasiski كتابه "الشفرات وفن التشفير" (Die Geheimshriften und die Dechiffrierkunst) الذي قدّم

أول حلّ عام لمسألة استخراج المعمّى إذا كان النص مشفرا وفق الطريقة المتعددة الأبجديات ذات المفاتيح الدورية. وبذلك أي على كسر شفرة دي فيجينير التي ظلت صامدة خلال عدة قرون.

* 1891 : ابتكر الضابط بازيري (المشار إليه آنفا) اسطوانة تعمية. وكانت هذه الأسطوانة تتكوّن من 20 قرصا يحمل كل منها 25 حرفا. لكن الجي� الفرنسي لم يستخدم هذه الأسطوانة.

* 1917 : ابتكر جلبير فيرنام Gilbert Vernam، الذي كان يعمل لدى شركة "آي تي تي"AT&T، آلة تشفير متعددة الأبجديات وسهلة الاستعمال. لم يستعمل هذا التشفير عسكريا، لكنه استخدم من قبل الدبلوماسيين الألمان عام 1921.

* 1918 : استعمل الألمان في نهاية الحرب العالمية الأولى نظام التشفير، المسمى ADFGVX، الذي يمثّل في حد ذاته امتدادا لنظام آخر رمز إليه بـ ADFGX. وقد اخترقه أحد الضبا ر الفرنسيين مبكرا.

* 1919 : قام أرثر شربيوس Arthur Scherbius بتسجيل براءة اختراع آلة التشفير الشهيرة إنيغما8 Enigma. لكن الثمن الباهظ الذي طلبه صاحبها لم يشجع على استعمالها، علما أن هناك مبتكرين آخرين في بلدان مختلفة كانوا قد عر�وا في نفس الفترة آلات مماثلة.

* 1925 : اقترح بوريس هجلين Boris Hagelin للجي� السويدي الآلة "ب-21 " (B-21) التي كانت خلال عقد من الزمن أصغر آلة قادرة على طباعة برقيات مشفرة. وكان الحلفاء قد صنعوا خلال الحرب العالمية الثانية آلة من نفس الطراز تسمى "سي-36" (C-36) في أوروبا و"إم-209" (M-209) في الولايات

المتحدة. وأنتجوا منها 140 ألف نسخة. وبعد الحرب العالمية أسس هجلين في سويسرا شركة تعتبر لحد الآن من أبرز المؤسسات المصنعة لتجهيزات التعمية.

* 1929 : نشر لستر هيل Lester Hill مقاله "التعمية في الأبجدية الجبرية" (Cryptography in an Algebraic Alphabet) الذي يصف فيه طريقة تشفير تحمل الآن اسمه. وهو تشفير متعدد البيانات يستعمل أدوات ريا ?لية مثل الأشعة والمصفوفات.

* 1931 : نشر هربرت ياردلي Herbert Yardley كتابه "الغرفة السوداء الأمريكية" (The American Black Chamber)، الذي يعتبر من أشهر كتب علم التعمية. فقد نجح مثلا في كسر عدة شفرات، منها شفرات يابانية.

* 1933-1945 : لم تعرف آلة إنيغما نجاحا تجاريا، لكن الألمان تبنّوها وحسنوها واتخذوها آلة تشفير عسكرية خلال الحرب العالمية الثانية. وقد قام بكسر تشفيرها الرياضي البولندي مريان رجفسـ ر Marian Rejewski الذي اعتمد على نص مشفر وقائمة مفاتيح تم الحصول عليها عبر أحد الجواسيس. وكانت البرقيات العسكرية الصادرة خلال الحرب عن إنيغما تُفَكّ شفرتها في أنكلترا من قبل آلن تورينغ Alan Turing وغوردن ولشمن Gordon Welchman وآخرين، وذلك باستخدام أولى الحواسيب.

* 1940 : نجح وليم فريدمن William Friedman في كسر شفرة آلة تشفير يابانية، وهي آلة "بوربل" PURPLE. ويعتبر فريدمن أب التعمية في أمريكا. وكان يرأس فريقا يختص في التعمية، كما أنه استعمل هذا العلم لكسر شفرة المهربين خلال فترة تحريم الخمر في أمريكا.

- وبعد بروز الحاسوب خلال السبعينيات وظهور شبكة الإنترنت قفزت التعمية إلى مرحلة راقية بأدوات جديدة، هذه أهم محطاتها :

* 1970 : طور هوست فيستل Horst Feistel خلال السبعينيات مشروع بحث لدى شركة "آي بي إيم" IBM أدى إلى ابتكار شفرة "لوسيفير" Lucifer التي كانت بدورها من وراء ابتكار شفرات متعددة.

* 1976 : نشر ويتفيلد ديفي Whitfield Diffie ومارتن هلمن Martin Hellman بحثا بعنوان "اتجاهات جديدة في التعمية" (New Directions in Cryptography) ادخلا فيه فكرة التعمية بالمفتاح العمومية. وقدّما حلا جديدا لمسألة تبادل المفاتيح السرية.

وفي نفس السنة ظهرت شفرة "معيار تشفير البيانات" (Data Encryption Standard) المنبثقة عن شفرة لوسيفير. وقد اعتبرت هذه الشفرة صعبة الاختراق إلى درجة أن وزارة الدفاع الأمريكية تبنتها وراقبت في ذات الوقت تصديرها. ومن ثم نالت شهرة واسعة.

* 1977 : ابتكار نظام "آر آس أي" RSA (وهذه التسمية تمثّل الأحرف الأولى لأسماء المبتكرين ريفست وشمير وأدرمان Rivest, Shamir & Adleman). يعمل هذا النظام بالمفتاح العمومية، وهو يسمح بالتأكد من البيانات إ�افة إلى تشفير النصوص. وقد ذاع صيته عبر أرجاء العالم في كل الأوسا ر التي تبحث عن تأمين اتصالاتها.

* 1978 : نشر خوارزمية نظام "آر آس أي" RSA.

* 1990 : نشر مقال لـ كسوجيا لاي Xuejia Lai وجيمس ماسي James Massey يقدم خوارزمية جديدة سميت IDEA (اختصارا لـ International

Data Encryption Algorithm) لتعمية البيانات تعوض نظام "معيار تشفير البيانات". وقد أثبت هذا النظام جدارته حيث لم يتم اختراقه اختراقا كليا لحد الآن.

* 1990 : نشر شارل بنيت Charles Bennett وجيل براسارد Gilles Brassard نتائجهما التجريبية حول التعمية الكمومية. وهذا نوع من التعمية يستخدم ما يعرف في الفيزياء بالفوتونات. يعتبر هذا الاكتشاف بالغ الأهمية لأنه يوفّر سرية الاتصال، كما يكشف عن المخترقين المحتملين. أما عيب التعمية الكمومية فيتمثل في أنها تتطلب وجود واصل من الألياف البصرية بين المتراسلين.

* 1991 : كانت وكالة المخابرات الأمريكية "الآف بي آي" قد تحدثت عن احتمال طلب السماح لها بالنفوذ إلى أية مراسلة في أمريكا فأصدر الباحث فيليب زيمرمن Philip Zimmermann نظام تعمية مجانيا يقي المستخدم من اختراق مراسلاته. وصار هذا النظام بعد ذلك معيارا دوليا.

* 1995 : قام نيكولا جزين Nicolas Gisin بتجربة حول التعمية الكمومية في سويسرا مستعملا واصلا من الألياف البصرية طوله 25 كلم.

* 1999 : استطاعت شبكة من الحاسوبات المنتشرة في 11 موقعا داخل ستة بلدان أن تفكك عددا من 155 رقما إلى عوامل أولية. وقد دقّ هذا الحدث ناقوس الخطر لأنه يشكل تهديدا أمنيا على التجارة الإلكترونية في العالم إذ كان استخدام هذا العدد في أنظمة التعمية المعتمدة على شفرة "آر آس أي" RSA واردا.

* أول يناير 2000 : أحدث الانتقال من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين تعطلا في الأنظمة الأر?ية التي تقوم بمعالجة المعلومات المرتبطة بأقمار الجوسسة.

الحاسوب والتعمية:

دعنا نتحدث قليلا في البداية عن الحاسوب بمعزل عن دوره في التعمية. فمن بين الإنجازات الكبرى التي حقّقتها التقنيات الإلكترونية صناعة جهاز الحاسوب. والحاسوب صنع، في بداية الأمر، لمساعدة الباحث الرياضي في دراسة مسائله الحسابية التي لا يكفيه الوقت لحلها يدويا نظرا لطول العمليات فيها. وعلى هذا الأساس قدّر أحد الريا يين في نهاية الأربعينات أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف لن تحتاج إلى أكثر من ثلاثة أو أربعة أجهزة حاسوب لتغطية كافة حاجياتها المستقبلية! وكم هو عدد هذه الأجهزة الآن في أمريكا والعالم؟ إنه يعدّ بالملايين!

وفيما يخصّ مجال الريا يات بالذات، يخطر الكثير من الناس في التصور أن الحاسوب هو الآن قادر على حل جميع (أو جلّ) المسائل التي يبحث فيها الريا يون. ورغم كثرة استعمال هذا الجهاز لدى الباحثين في الريا يات فإن المسائل التي يحلها الحاسوب في هذا الحقل لا يساوي عددها شيئا بالمقارنة مع عدد المسائل التي يحلّها الريا يون بدون تدخل الحاسوب!

وفي الفروع العلمية الأخرى، مثل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والهندسة ...، فإن الحاسوب أصبح من الأدوات العادية التي يستخدمها يوميا العاملون في هذه الميادين، وهذا رغم أن عمر الحاسوب حوالي نصف قرن. ولم يقتصر هذا الجهاز على التدخل في الاختصاصات العلمية فحسب بل نجده يصول ويجول في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وفي الطب والصيدلية والاقتصاد، وفي اللسانيات وعلم النفس ... والباحث اليتيم، اليوم، هو ذلك الباحث الذي يشتغل دون حاسوب بجانبه مهما كان مجال اختصاصه.

وكان أول حاسوب يزن أكثر من ثلاثين طنا وينجز حوالي 5000 عملية في الثانية. واستطاع الجيل الثاني من الأجهزة أن يرفع عدد العمليات إلى 200.000 عملية في الثانية. وعندما وصل الجيل الثالث تضاعف هذا العدد عشر مرات. وأما الجيل الرابع فبإمكانه إنجاز مئة مليون عملية في الثانية ... وكل جيل جديد يأتي لنا بمضاعفة هذا العدد آلاف المرات.

لقد أصبح، اليوم، عدد أجهزة الحاسوب المستعملة في مختلف القطاعات مقياسا لتقدم الدول وميزانا لقدراتها. وفي حين كان الحاسوب يستخدم للسرعة في إجراء عمليات حسابية بسيطة صار يقدّم العديد من الخدمات الأخرى. ويمكن تلخيص مهامه الحالية في ثلاثة محاور، والملاحظ أن كلاً منها يدعم تطوير التعمية دعما أكيدا:

1. إنشاء أنظمة بحث جديدة ومعالجة المعلومات من أجل كسب سرعة أكبر والتوصل إلى ابتكار تقنيات جديدة. كما أن تجميع المعلومات في ما يسمى ببنوك المعلومات يسمح بالاستعمال الأمثل للحلول التقنية المتوفرة.

2. إنشاء أنظمة اتصال قادرة على توصيل جملة كبيرة من المعلومات (مثل شبكة الأنترنت والشبكات الداخلية "الأنترانت")، إذ أن الاستعمال المكثف للحاسوب في العالم طرح مسألة «الاتصال». وهنالك بحوث جارية منذ سنوات من أجل تطوير الاتصال بين الإنسان والحاسوب، ليس كتابيا فحسب بل صوتيا أيضا. وهذا الأمر بالغ الأهمية لأنه يسمح للشخص المراقب في المصنع، مثلا، أن يصدر أوامره شفويا للحاسوب خلال عملية الإنتاج قصد إجراء تعديل سريع أو تدارك خطأ آني. كما يتيح للطبيب الجرّاح تتبع عملية جراحية يقوم بها الحاسوب مع إمكانية إعطاء أوامر شفوية (حتى عن بعد) خلال إجراء العملية

فينفذها الجهاز الجراح فورا، وقس على ذلك إذا ما فكرت في عمليات أمنية محضة يقوم بها الجي ⍰ أو رجال الأمن.

3. « تأليل» المراقبة وتصميم نماذج ريا ⍰ية. وسنهتم هنا بجانب من جوانب تصميم النماذج.

وخلاصة القول إن تطوير الحواسيب سمح لعلم التعمية بالابتعاد عن المعالجات التقليدية المرتبطة باللغات المتداولة : فالرسالة أو البرقية في مفهوم التعمية الحاسوبية ليست سوى سلسلة من الأرقام المتكونة من الرقمين 0 , 1 .

الأعداد والتعمية:

يقوم مبدأ المفتاح العمومية على خواص الأعداد الطبيعية. من لا يعرف تلك الأعداد التي لا تقبل القسمة على عدد سوى على 1 وعلى نفسها؟ إنها الأعداد الأولية، وهي : 2 ، 3 ، 5 ، 7، 11 ، 13 ، 17 ، 19 ، 23 ، ...

يعلم الريا ⍰يون من قديم الزمان أن قائمة هذه الأعداد غير منتهية. ويتساءل تلاميذنا دائما لماذا يطلب منهم، في التمارين الحسابية، تفكيك عدد طبيعي إلى عوامل أولية مثل : 15=3 × 5 ، 36=2 × 2 × 3 × 3 ، 38=2 × 19. إنهم لا يعلمون أن فكرة تفكيك الأعداد الطبيعية إلى عوامل أولية هي أساس المفتاح العمومية في التعمية ! بل إن دراسة خواص هذه الأعداد تعمقت منذ 1980 بعد أن تم اكتشاف دورها الفعال في تقنيات التعمية. وهكذا ندرك مرة أخرى أن الريا ⍰يات الأكثر تجريدا يمكنها أن تكون أساسا لتطبيقات ملموسة.

كيف يتم استعمال هذه الأعداد في التعمية؟ من المعلوم أنه كلما كان العدد الطبيعي كبيرا كلما صعب تفكيكه إلى عوامل أولية. تصوّر مثلا أنك

سئلت عن تفكيك عدد طبيعي يبلغ عدد أرقامه 1500 رقم. نحن نستطيع عادة القيام بهذه العملية اعتمادا على الطرق التقليدية، مستنجدين بالحاسوب إذا كان عدد أرقام العدد المطلوب لا يتجاوز كثيرا 15 رقما. وباستعمال وسائل ضخمة مثل استخدام آلاف الحاسوبات، المنتشرة عبر العالم والمترابطة فيما بينها من خلال شبكة الإنترنت، وعبر شبكات داخلية مؤمنة، تمكّن الرياضيون منذ بضع سنوات من تفكيك عدد صعب المعالجة يبلغ عدد أرقامه 129 رقما. ولذلك فإن مسألة تفكيك الأعداد الكبيرة تمثل بالنسبة للمختصين في نظرية الأعداد تحديا حقيقيا.

تعتمد فكرة استخدام الأعداد الأولية في مجال التعمية - وبصفة خاصة في المراسلة بواسطة المفتاح العمومية - على ملاحظتين:

- إنه من السهل إيجاد عددين أوليين كبيرين أ ، ب ثم حساب جدائهما ج=أ × ب.

- إنه من الصعب جدا اتباع المسلك المعاكس، أي تحديد العددين أ ، ب انطلاقا من معرفتنا للعدد الكبير ج. هذه الصعوبة، بل هذه "الاستحالة" العملية، هي التي تضمن استحالة استخراج المعمّى في المراسلات بالمفتاح العمومية من طرف الجواسيس حتى ولو علموا بقيمة العدد ج.

لا بد من أن نشير في هذا السياق، بخصوص الأعداد الأولية، إلى أن دور نظرية الأعداد في مجال التعمية يطرح أمام الرياضيين قضايا تخص أدبيات مهنتهم. فعلى سبيل المثال، إذا اكتشف أحدهم طريقة أكثر فعالية من الطرق السابقة، تمكن من تفكيك الأعداد الطبيعية إلى عوامل أولية، ماذا عليه أن يفعل؟ هل يبعث بها إلى أعلى سلطة في البلاد أو يعرضها أمام الجمهور في ندوة

عالمية حتى لا يستغلها أحد ضد الآخرين؟ أو يبيعها إلى من يدفع أكثر؟! ذلك جزء من بعض التسا ئلات التي يطرحها تطور علم التعمية على الباحثين في هذا الحقل.

التعمية العسكرية:

ما من شك أن التعمية وسيلة قوية لدعم الأمن العسكري وجهده خلال الحروب، في الدفاع وفي الهجوم. وقد كانت التعمية تعنى في البداية بالاتصالات على مستويات معيّنة بين القادة. ولذلك كانت تدرّس قديما في بعض الكليات، سيما العسكرية لدى الإغريق، وكانت محلّ تقدير رفيع لدى قادة الجيوش في العصور الغابرة.

وقد تخيّل العسكريون في الماضي، وابتكروا طرقا مختلفة كي تصل الأوامر السرية للقادة إلى أبعد الحدود وتحفظ تعليماتهم وتكون في مأمن من استخبرات الأعداء. ويذكر المؤرخون أن الإقدام على استخدام حروف أو رموز سرية يعتبر في المحاكم الإنكليزية أمرا لا يخفف العقوبات بل يزيد في ثقلها، وظل الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر.

كما أن الملك الفرنسي هنري الرابع (1553م-1610م) قد اخترق بعض الرسائل المشفرة كانت موجهة إلى الحكومة الأسبانية في عهده فأمر الرياضي الشهير فيات Viète بالبحث عن كيفية كسر شفرتها. وتمكن فيات من تلبية طلب الملك، وهو ما أتاح التعرف على نوايا الأعداء خلال سنتين كاملتين.

أما في عهد الدوق الفرنسي ريشليو Richelieu (1585م-1642م) فكان فنّ فكّ تشفير الكتابات السرية قد بلغ درجة عالية حتى اعتبر علما ينبغي على الحكومات الاعتناء به. وكانت لوزارة الشؤون الخارجية آنذاك كلية يدرّس فيها هذا الفن. وتواصل هذا الاهتمام بالتعمية على أكثر من صعيد، سيما العسكري.

وعلى الرغم من أن مؤرخي تلك الحقبة (القرن 16م) لم يعثروا على آثار مراسلات عسكرية استعملت فيها التعمية فإنهم واثقون بأن الأوامر الموجهة لقادة الجيوش على جبهات القتال في القرن الثامن عشر كانت لا ترسل إلا من نصوص مشفرة.

ثم أصبحت المراسلات المشفرة أكثر استعمالا بين العسكريين. فالمؤرخون9 يؤكدون أن في عهد نابليون الأول (1769-1821) كان الإمبراطور يشفّر مراسلاته خلال الحرب د روسيا في بداية القرن التاسع عشر. وفي الحرب الأسبانية كان أحد الأسبانيين قد عثر على مفتاح شفرة فسهّل مهمّة بلده في استعادة بعض أرا يها. ومن المعلوم أن استعمال التعمية قد عمّ لدى قادة الجيوش الأوروبية قبل نهاية القرن التاسع عشر.

وفي نهاية القرن التاسع عشر كان العسكريون الألمان يعتبرون أن المراسلات المشفرة ينبغي أن تعمم على جميع المستويات في الجي . وهكذا كانت البرامج المقررة في كلياتهم العسكرية تتضمن دروسا وتدريبات على كتابة النصوص المشفرة وقراءة المراسلات المشفرة. بل تتطلب تلك البرامج إلمام الطالب بالمبادئ النظرية لفنّ التشفير. أما في الجي الفرنسي فالملزمون آنذاك باستخدام التشفير في المراسلات هم كبار القادة. وكانت المساعي جارية لبلو ذ ما بلغه الألمان في هذا المجال، وكذا التمكن من التراسل باستعمال التعمية على كل المستويات في زمن الحرب كما في زمن السلم. وكان القادة العسكريون يرون بأنه لا بد من تدريب الضبا ر على استعمال الشفرة خلال زمن السلم لأن ذلك غير ممكن خلال الحروب.

غير أن امتلاك شفرة خاصة بالمراسلات السرية ليس كافيا إذ من الضروري أن يضمن درجة مقبولة من السرية وعدم الاختراق. وهذه هي نقطة عف أنظمة التشفير عموما. ويروى مثلا خلال الحرب التركية الروسية

(1877-1878) أن السلطات الفرنسية استلمت ذات يوم من أحد ملحقيها العسكريين المتابِعين لهذه الحرب برقية مشفرة. لكن مسؤول مكتب التشفير كان غائبا فا□طر الوزير الذي كان يجهل مفتاح التشفير إلى اللجوء لأحد الضبا ر ليحاول فكّ شفرة البرقية. وقد تمكن الضابط من ذلك بعد بضع ساعات، وهذا يدل على هشاشة التشفير المستخدم.

ثم ازدادت التعمية العسكرية أهمية في الحروب منذ مطلع القرن العشرين، حتى أن الخبراء وصفوا كلا من الحربين العالميتين الأولى والثانية بأنهما كانتا "حربًا تعمية". ولعل أبلغ دليل على ذلك قرار حكومة تشرشل خلال الحرب العالمية الثانية بخصوص المعارك التي دارت رحاها في صحراء شمال إفريقيا المتمثّل في ترك الألمان يدمرون قاعدة عسكرية بريطانية بأكملها رغم علم تشرشل بتفاصيل الخطة الألمانية وتوقيتها عن طريق كسر تعمية الألمان وقراءة رسائلهم. وهكذا □حى البريطانيون بقاعدة من قواعدهم حتى لا يكتشف الألمان بأن الحلفاء تمكّنوا من كسر شفرتهم.

وعلى كل حال فإن القادة العسكريين كانوا واعين منذ القرن التاسع عشر بضرورة التمييز بين نظام كتابة مشفّرة و□عه صاحبه من أجل تبادل ظرفي لرسائل بين أشخاص منعزلين، وبين طريقة تعمية تهدف إلى و□ع قواعد لمدة زمنية غير محدودة تضمن سرية التواصل بين قادة الجي□. ذلك أن هؤلاء القياديين لا يستطيعون تغيير شفرتهم بكل حرية في أي وقت. ثم إنهم مطالبون دائما بعدم حمل أشياء أو كتابات تتضمن معلومات تفيد العدو حول المراسلات السرية. لذلك فنظام التعمية، كما كانت تراه في الماضي القيادات العسكرية، لا بد أن تتوفر فيه بعض الشرو ر الأساسية منها :

1- يجب أن يكون النظام منيعا من الناحية الأمنية حتى لا يخترق، أو يخترق بصعوبة كبيرة.

2- ينبغي ألا يشكل خطرا حتى لو سقط في أيدي العدو.

3- يجب ألا يتطلب تبليغ مفتاح الشفرة أو تذكّرها نصوصا مكتوبة. كما يجب أن يتمكن مستعملوها بتغييرها عند الحاجة.

4- يجب ألا يتطلب تشغيله اللجوء إلى عدة أشخاص.

5- يجب أن يكون استعمال هذا النظام يسيرا، وألا يتطلب جهدا فكريا مركزا.

والواقع أن هناك أسرارا عسكرية (أو غير عسكرية) لا يهم أن تعرف بعد وقت معيّن (ساعات أو أيام) كأن تكون حاملة لخبر هجوم مرتقب بعد ساعات، بينما تتطلب معلومات أخرى أن تظل سرية خلال سنوات عديدة. ولذا وجب التمييز بين أنواع الأسرار. ففي الحالة الأولى يكفي لنظام التعمية ألا يتمكن العدو من فكّ شفرته قبل ساعات .. لكن هناك من يعارض هذه الفكرة ويبرر معارضته بافتراض أن هناك رسالتين تحملان معلومتين وشفرة بنفس الطريقة، وتم إرسالهما الواحدة تلو الأخرى، وقد استطاع العدو الحصول عليهما وقضى وقتا في فك الشفرة الأولى وفاته اعتراض مفعولها. لكنه سوف ينجح في التصدي لمفعول الرسالة الثانية لأن فكّ الشفرة الأولى سيسمح له بفك الشفرة الثانية في لحظات.

تلك هي بعض انشغالات التعمية العسكرية قصدنا من خلال استعراضها الإشارة إلى تنوع الرؤى والاستعمالات عبر العصور.

الجوسسة والتعمية

حتى تتضح لدينا أهمية التعمية بشتى أنواعها وفي كل المجالات، نقدم فيما يلي نموذجين من الهيئات الأمنية التي تعمل في مجال الجوسسة العسكرية

وغير العسكرية، هما "مركز أمن الاتصالات"10 في كندا وشبكة إشلون Echelon العالمية11. وقد اخترنا هذين الجهازين لكون حقل انشغالهما تجاوز التوقعات، ووصل حدود التجسس الاقتصادي والتجاري على الأصدقاء والحلفاء.

النموذج الأول : مركز أمن الاتصالات الكندي

تسعى بعض الدول سعيا منقطع النظير من أجل حماية مجمل الاتصالات التي تحمل طابعا سريا (عسكريا، حكوميا، اقتصاديا، ...) كما سنرى ذلك في حالة كندا. هناك في كندا مركز قومي يسمى "مركز أمن الاتصالات" مهمته الإشراف على التعمية في كندا بهدف دعم الحكومة ومختلف هيئاتها في هذا المجال بما في ذلك أجهزة الاستخبارات. كما يقدم خدمات تضمن أمن المعلومات والاتصالات الإلكترونية. أما شعار المركز فهو "الحفاظ على أمن كندا عبر تفوقها في مجال الاتصال"، وهو يوظف في مقره المركزي بالعاصمة الكندية نحو 1500 موظف.

وقد رأى هذا المركز النور منذ بداية الحرب العالمية الثانية. وكان قد تمكن خلال تلك الحرب من اختراق رسائل عديدة ذات صلة بالاستعلامات العسكرية الألمانية في أمريكا الجنوبية وفك شفرتها. كما استهدف المركز مصالح البحرية والسلك الدبلوماسي لحكومة في ن الفرنسية (حليفة هتلر آنذاك).

وبعد أن و�عت الحرب العالمية أوزارها درست السلطات الكندية مدى فائدة الإبقاء على هذا المركز. ومما أقنع الحكومة بأهمية الحفاظ عليه حينذاك تصريحات خبير التعمية السوفييتي الشهير إغور غوزنكو Igor Gouzenko التي أكد فيها وجود خلايا تجسس سوفييتية نشطة في كندا. وفي 1947 أصبح أمن

الاتصالات في كندا أحد الأهداف الرئيسية للمركز. وصار اسمه "مديرية الاتصالات لدى المجلس القومي للبحوث". وبعد ذلك نشط المركز وربط علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة وبريطانيا واستراليا وزلندا الجديدة، وعاد التعاون بين جميع هذه الهيئات إلى ما كان عليه خلال الحرب العالمية، بل زادت وتيرته وصارت تلك الدول تتقاسم الكثير من المعلومات الأمنية والدبلوماسية والتجارية. ثم تدعم أكثر فأكثر نشا ر هذا التعاون بوسائل تقنية وتكنولوجية إبان الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وتواصل أيضا بعد تلك الفترة.

وقد أعادت الحكومة الكندية عام 1974 الاسم القديم للمركز بدل "مديرية الاتصالات لدى المجلس القومي للبحوث". حدث هذا التغيير في التسمية إثر حصة تلفزيونية بثتها قناة أمريكية كشفت فيها عن الدور التجسسي لهذه المديرية. لكن المركز ظل يقوم بمهمته الأولى ولم يحد عنها.

وبعد سقو ر حائط برلين عام 1989، وانهيار المعسكر الشرقي تقشفت الحكومة الكندية في ميزانية المركز وقلصت عدد موظفيه، وهو ما أثر في أدائه التجسسي خلال التسعينيات. لكن تلك الحقبة عرفت ثورة عارمة في مجال تكنولوجيات الاتصالات وتنوعت وسائلها بسرعة مدهشة، سيما بعد ظهور شبكة الأنترنت. ثم جاءت أحداث 11 سبتمبر 2001 في نيويورك وما تلاها من تداعيات. وهكذا أعيد الاعتبار للمركز في ديسمبر 2001 وخولت له صلاحيات واسعة لضمان أمن تكنولوجيات الاتصالات والمضي قدما في تطوير أنظمة التعمية في كندا.

ويعلن المركز   لآآحة بأنه يسعى إلى التحكم في البنية القاعدية العالمية للاتصالات، وهو مجال بالغ التعقيد، ويشكل في نظر المركز أكبر خطر على البلاد. وعلى سبيل المثال يقوم المركز بجمع المعلومات حيثما وجدت، سيما تلك

التي تفيد الحكومة في باب التوجهات الاستراتيجية واتخاذ القرارات الحاسمة والتقييم اليومي لوسائل ونوايا الدول الأخرى. ويرجع نجاح المركز في هذه المهمة إلى تحكمه في أبرز تكنولوجيات البنية القاعدية العالمية لمجال الاتصالات ... وفي ذلك تعاون كبير مع الدول الأربع المشار إليها آنفا.

وبعد أن كان الاتحاد السوفييتي هو محط نظر المركز خلال الحرب الباردة تحول اهتمامه إلى قطاعات أخرى تمسّ السياسة والصناعة والاقتصاد والتجارة وأمن الكنديين في الداخل والخارج، سيما من ظاهرة الإرهاب. وقد تطلّب منه ذلك توظيف عدد كبير من محللي المعلومات والمختصين في مختلف اللغات والمترجمين ومحرري التقارير والمهندسين المصممين للبرمجيات ومختبرين للتكنولوجيات الحديثة في مجال الاتصال والتعمية. وهكذا وظّف المركز رياضيين لتطبيق الرياضيات في مجال التعمية وفي قطاعات أخرى مرتبطة بتكنولوجيات الاتصالات. كما وظّف معلوماتيين ومبرمجين لتطوير أنظمة وبرمجيات تعنى بمجالات عملية مختلفة : أمن المعلومات، استخراج المعمّى، الدعم التقني، القطاعات المرتبطة بالاتصالات.

وغطى المركز أيضا حاجياته من الفيزيائيين للبحث في مجال تطوير الرادارات والاتصالات وتحليل الإشارات الرقمية. ويشمل حقل بحوث هؤلاء الفيزيائيين أمن مختلف الاتصالات الحكومية وسبل إيجاد طرق جديدة لاكتساب المزيد من المعطيات والتحاليل اعتمادا على الأدوات المعلوماتية والتجهيزات التكنولوجية الراقية. وامتدت حاجة المركز إلى الإداريين والمختصين في الصيانة بمختلف أنواعها، وكذا الشؤون المالية والمحاسبية وتسيير المنشئات، والمخططين ومسيري المشاريع، والمختصين في مجال الاتصال وفي الموارد البشرية.

وهكذا نرى بأن المركز الكندي لم يغفل أي قطاع وأنه لا يتوانى في التجسس على كافة المشاريع، وقد تزود بكل الوسائل التكنولوجية الحديثة وبالموارد البشرية اللازمة من علماء وباحثين وتقنيين وإداريين كي يكون رائدا في مجال التعمية حرصا منه على أمن الاتصالات مهما كانت طبيعتها. فكيف لا يكون هذا المركز نموذجا يحتذى به في بلدان أخرى؟

النموذج الثاني : شبكة التنصت العالمية "إشلون"

إشلون شبكة تجسس أمريكية الأصل، لكنها توسعت فيما بعد إلى أربعة بلدان أخرى، وهي تقوم بمراقبة كافة الاتصالات العالمية من مكالمات هاتفية أر؟ية ونقالة، ورسائل عبر الفاكس وبريد إلكتروني. وهناك حسب تقديرات صحفية حوالي 175 محطة تنصت رئيسية أمريكية منتشرة في نحو ماسين دولة، غير أنها لا تنتمي بالضرورة كلها إلى إشلون. وهذا دون الإشارة إلى المحطات التقليدية مثل السفارات والقنصليات والمحطات والأقمار الصناعية المتحركة بحرا وجوا.

تستطيع شبكة إشلون تحليل مليونيْ مكالمة في الدقيقة الواحدة. وهي تقوم باختراق نحو 4.3 مليار اتصال يوميا، وهذا يعادل تقريبا نصف الاتصالات اليومية عبر العالم المقدرة بـ 10 ملايير اتصال. ومن المعلوم أن هذه الشبكة التنصّتية تقوم بمهامها آليا، ولا تبلّغ الجهات المعنية إلا بالاتصالات التي تتضمّن كلمات مفتاحية معينة سبق تزويد الشبكة بها. ولا تخضع ا .طلاع الفعلي المباشر (قراءة النصوص أو الاستماع إلى الأصوات أو مشاهدة الصور المسجلة عبر الشبكة) من قِبَل الأشخاص المكلفين بالمراقبة إلا التسجيلات التي تتضمن تلك الكلمات المفتاحية. وبعد ذلك يقوم المراقبون الأمنيون بعملية

انتقاء على مستوى المعطيات المتوفرة، ويرسلونها إلى الحكومة الأمريكية. ومن ثمّ ترسل المعلومات إلى الجهات المعنية في الداخل والخارج، من مصالح أمنية ودبلوماسية وعسكرية وخاصة، دون أن نن م المؤسسات الاقتصادية والتجارية.

وقد جنّدت الشبكة نحو 120 قمرا اصطناعيا تجسسيا وعدة غواصات لاختراق البرقيات والرسائل التي تنقلها الأقمار الاصطناعية والكوابل في قاع المحيطات والبحار (حيث تلصق تجهيزات إلكترونية على تلك الكوابل في أماكن محددة داخل الماء لتلتقط الحقول المغنطيسية المارة في تلك الكوابل ثم ترسل تلقائيا إلى الجهات المختصة).

إليك بعض المحطات التاريخية تعرفنا بنشأة هذه الشبكة العالمية السرية:

* 1948/1947 : تمديد صلاحية الميثاق المعروف باسم يوكوزا UKUSA (هذا الاسم مركب من UK وUSA، وهما الرمزان اللذان يدلان على المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية). وقد وقّع هذا الميثاق السري خلال الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة وبريطانيا، وكان يهدف إلى تنظيم التعاون بين مصالح الاستخبارات بين البلدين في مجال الجوسسة على الاتصالات وتبادل المعلومات. وبعد ذلك انضمت إلى هذا الميثاق كندا12 وأستراليا وزلندا الجديدة. وكان الهدف الرئيسي لهذه الشبكة آنذاك هو الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي.

* 1952 : إنشاء وكالة الأمن القومي National Security Agency في الولايات المتحدة من هيئة المخابرات الأمريكية لتختص في التجسس الكهرومغنطيسي (أي الاتصالات عبر الراديو والرادار والاتصالات الهاتفية ونحوها)، والعمل على تصميم أنظمة تعمية تضمن سرية الاتصالات الحكومية والدبلوماسية والعسكرية الأمريكية. والوكالة تستخدم في أمريكا وحدها

نحو 4000 موظف يعالجون المعلومات المخترقة بواسطة شبكة من أقوى الحواسيب، وميزانيتها تقدر بنحو 4 ملايير دولار.

* 1966 : تولت وكالة الأمن القومي الأمريكية التحكم في قاعدة منويذ هيل Menwith Hill بشمال أنكلترا، وكانت القاعدة قبل هذا التاريخ تحت رقابة الجي ▯ الأمري ر فصارت أ ▯خم محطة اختراق للاتصالات في العالم.

* 1987/1985 : قيام مشروع إنشاء شبكة عالمية لمراقبة الاتصالات كشف عنه الصحفي دونكن كمبل Duncan Campbell. أما فكرة المشروع فتتمثّل في ربط قواعد اختراق المعلومات التي نشرها أعضاء ميثاق يوكوزا في مختلف بلدان العالم (عبر حواسيب قوية). هذا المشروع هو مشروع إشلون.

* 1989 : أدى سقو ر جدار برلين إلى إعادة النظر في المهام الإستراتيجية للولايات المتحدة. فصار غزو الأسواق الاقتصادية والتجارية العالمية هو الهدف الأول، واندرجت هذه الأولوية في عمل مشروع إشلون.

* 1996 : كشف الخبير النيوزلندي ني ر هيجر Nicky Hager في كتابه "السلطة السرية" (Secret power) عن وجود أكبر شبكة تجسس حول الاتصالات في العالم، وذكر أنها سميت إشلون.

* 1998 : أكدت دراسة قام بها البرلمان الأوروبي على وجود مخاطر يتسبب فيها نشا ر هذه الشبكة على بلدان الاتحاد الأوربي ومؤسساته. وفي نفس السنة قامت وكالة الأمن القومي الأمريكية بإحالة عدد كبير من موظفيها على المعاش المسبق حتى يتم توظيفهم في الشركات الخاصة، وتستغلهم كعملاء للوكالة. وفي نفس الوقت قامت الوكالة بتوظيف عدد معتبر من المواهب الشابة.

* 1999 : قدم البيت الأبيض برنامج تصميم حواسيب الهدف منه حل مسألة التعمية والسرعة في معالجة الاتصالات المختَرَقَة، على أن ينجز المشروع عام 2004.

وقد عبرت لجنة برلمانية أوروبية سميت لجنة "أنظمة المراقبة والاختراق الإلكتروني التي يمكن أن تعرّض الأمن القومي للخطر" عام 2000 عن مدى جهل الدوائر السياسية الأوروبية بالرهانات الجديدة في مجال الاختراق الإلكتروني. وقضت هذه اللجنة سبعة أعوام في أداء مهمتها لتصل إلى ما وصل إليه المختصون منذ سنين. وطالب أعضائها باتخاذ سلسلة إجراءات من شأنها تحرير التعمية والحفاظ على أمن المواطن الأوروبي كما هو الحال في الولايات المتحدة.

وما يزعج الأوروبيين بوجه خاص في هذا الباب هو أن الجوسسة التي راحوا ضحيتها من طرف حلفائهم لم تكتف بالاتصالات المختلفة (سيما ذات الطابع العسكري) بل ذهبت إلى أبعد من ذلك وصارت تهتم بالجانب الصناعي والاقتصادي والتجاري. ثم إن شبكة إشلون لا تقوم بنقل تلك المعلومات إلى سلطات الولايات المتحدة وحدها بل تنقلها إلى حلفاء آخرين (دول ومؤسسات). وقد ثبت لدى الأوروبيين أن مؤسسات أوروبية لم تفز بصفقات تجارية دولية في مجالات عديدة (كالطيران والرادارات) بسبب العمل التجسسي لإشلون وفازت بها مؤسسات أمريكية.

وهكذا عبّر المتحدث باسم اللجنة الأوروبية عن قلقه، كما وصفت رئيسة البرلمان الأوروبي آنذاك قضية إشلون بالفضيحة. أما وزير الخارجية البلجيـ ر فكان أكثر حدة حين اعتبر الوضع غير مقبول وهدد باستخلاص "ما ينبغي استخلاصه في مجال السياسة الخارجية". كما طالب وزير فرنسي سابق بتنصيب لجنة تحقيق أوروبية حول الموضوع. وقد أدت مثل هذه التصريحات

برئيس الحكومة البريطاني الأسبق توني بلير إلى التأكيد بأن بلده لم يسبق له أن خان حلفاءه الأوروبيين بتعاونه مع الولايات المتحدة.

وتؤكد وكالة الأمن القومي الأمريكية أن لا يعنيها من وراء المعلومات المستقاة سوى أمن المواطن الأمريكي. غير أن الأوروبيين يشككون في هذا القول ويعتقدون أن الوكالة تقوم عبر شبكة إشلون بعملية جوسسة اقتصادية وصناعية لصالح الولايات المتحدة وغيرها من الحلفاء المقربين، كما أنها تخترق الاتصالات الخاصة الأوروبية.

والواقع أن شبكة إشلون لم تزعج الأوربيين وحدهم بل أقلقت أيضا اليابانيين. فقد جاء في الصحافة اليابانية أن نظام إشلون راقب خلال عشرين سنة المكالمات الهاتفية للدبلوماسيين اليابانيين. كما تقوم إشلون بمراقبة العديد من الجمعيات غير الحكومية، مثل الصليب الأحمر الدولي وجمعيات الخضر (كمنظمة "غرينبيس")، ومنظمة العفو الدولية، الخ.

ومما زاد في تخوفات الأوروبيين أن لجنة التحقيق الأوروبية في موضوع إشلون كانت قد طلبت مقابلة المسؤولين في وكالة الأمن القومي الأمريكية التي كانت من وراء نشار إشلون. لكن الوكالة رفضت الطلب. كما ألغيت معظم اللقاءات الأخرى التي كانت مبرمجة مع مسؤولين أمريكين. زد على ذلك أن بريطانيا تنتسب في آن واحد إلى الاتحاد الأوروبي وإلى شبكة إشلون.

ولنقدم أدلة وقرائن وأحداث ذات علاقة بشبكة إشلون تدعم الشكوك والتخوفات الأوربية في المهام الحقيقية لشبكة إشلون :

1. لقد قام الصحفي البريطاني دونكن كمبل - المختص في المسائل المرتبطة باستخدام التكنولوجيات الحديثة في مجال الاستخبارات - بتحقيق حول

شبكة إشلون فتبيّن أنها تخترق يوميا كل الاتصالات الإلكترونية والهاتفية والمراسلات عبر الفاكس في أوروبا، وذلك من خلال أقمار تجسسية ومحطات أرضية تابعة للشبكة موزعة في الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا وزلندا الجديدة وبلدان أخرى كثيرة.

ويضيف الصحفي أن هناك ما يثبت أن بعض تجهيزات إشلون تستهدف القطاع التجاري وليس العسكري. وذكر بعض المؤسسات الاقتصادية التي كانت محل اهتمام الجوسسة الصناعية من قبل إشلون خلال السنوات الأخيرة، منها شركة تصنيع الطائرات الأوروبية إيربوس Airbus ومؤسسة الصناعة الإلكترونية الفرنسية تومسون Thomson(التي فقدت صفقة تقدر بنحو مليار ونصف مليار دولار). ويبدو أن طريقة عمل الوكالة في هذا الباب، وهي تهتم بكل ما يبرم من عقود تجارية في مجال صناعة الطيران والأقمار الاصطناعية، أنها مثلا تزوّد شركة بوينيغ بمعلومات عندما تعتبر الوكالة أن تلك المعلومات تفيد الشركة.

2. 1990 : اختراق الاتصالات بين مؤسسة يابانية تختص في صناعة الأقمار الاصطناعية وأندنوسيا حول إبرام صفقة بمئات ملايين الدولارات. وقد تدخل الرئيس بوش الأب شخصيا لتقتسم الصفقة المذكورة بين اليابانيين والأمركيين. وفي نفس السنة دشنت الصين المقر الجديد لسفارتها بأستراليا، فتم اكتشاف أن خلال تشييد هذا المقر قام رجال أمن أمريكيون بوضع تجهيزات مجهرية تجسسية متعددة وأنظمة مراقبة الاتصالات في جل جدران مبنى العمارة. وكانت الاتصالات المسجلة تتجه تلقائيا عبر أقمار إشلون إلى مركز الوكالة بالولايات المتحدة.

3. 1991 : مصادرة 12 طنا من الكوكايين بفضل اختراق الاتصالات التي تتم بين بارونات المخدرات في أمريكا اللاتينية.

4. 1992-1993 : التجسس على اتصالات السلطات المكسيكية عندما كانت تتفاوض مع الولايات المتحدة وكندا حول اتفاق التبادل الحر في شمال أمريكا.

5. 1993 : وضع تجهيزات قادرة على التنصت على قادة 15 دولة دعاهم الرئيس بيل كلنتون إلى الاجتماع في الولايات المتحدة. ويذكر أن بعض المعلومات المستقاة قد تم نقلها إلى مؤسسات كانت قد موّلت الحملة الانتخابية لبيل كلنتون.

6. 1994 : كانت شبكة إشلون قد استخدمت بقوة من قبل الأمريكيين خلال مفاوضات الغات GATT بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. واستخدمت الشبكة، بوجه خاص، من أجل التجسس على موقف كل بلد من بلدان الاتحاد الأوروبي البالغ عددها آنذاك 15 دولة، وللتعرف أيضا على استراتيجية اللجنة الأوروبية. وهذا ما جعل المسؤولين الأوروبيين يعطون حينئذ تعليمات لموظفي الاتحاد الأوروبي في بروكسل تقضي بعدم استعمال البريد الإلكتروني.

7. 1994-1996 : ابتكر أحد المهندسين ينتسب لشركة غير أمريكية جهازا ذا تكنولوجيا عالية لإنتاج الكهرباء. فتجسست عليه شبكة إشلون وأرسلت بمضمون أعماله إلى مؤسسة تكنولوجية أمريكية التي سارعت إلى تسجيل براءة ابتكار حول الجهاز. وكانت العدالة قد حكمت فيما بعد لصالح المهندس، لكن شركته تضررت، ولم تتمكن من دخول السوق الأمريكية بسبب هذا الاختراق.

8. 2000 : كشفت وثائق سرية للغاية، بعد أن رفع عنها طابع السرية بشكل رسمي، عن وجود برنامج إشلون. وفي نفس السنة نشرت الصحافة الألمانية مقالات تفيد بأن محطة في ألمانيا تابعة لشبكة إشلون تقوم بأعمال تجسسية على مؤسسات سويسرية وألمانية اقتصادية وتجارية.

9. 2001 : استخدام شبكة إشلون لرصد تحركات منظمة الباسك الإسبانية واختراق اتصالاتها.

وفي نفس السنة تم تصميم برنامج من قبل الولايات المتحدة لتصنيع شبكة من 24 قمرا صناعيا للتجسس ليلا ونهارا، ومهما كانت أحوال الطقس. وقدرت تكلفتها بـ 25 مليار دولار على أن تكون عملية بدءا من 2005.

كما كشفت الصحافة الألمانية عن اختراق أجهزة وزارتي الخارجية والدفاع عبر نظام مايكروسوفت التي تعمل به الحواسيب المستعملة في الوزارتين. ثم اكتشفت السويد نفس الظاهرة التجسسية في مؤسساتها. ومن المعلوم أن ألمانيا قررت بعد ذلك إزالة هذا النظام واستبداله بنظام آخر طلبت من مؤسساتها القومية (مثل شركة سيمنس Siemens) تصميمه.

10. 2002 : ظهور ما يسميه البعض بمشروع "إشلون 2".

لكن هناك من يبرر هذا التصرف من قبل الأمريكيين بسببين، أولهما أن الأوربيين، سيما الفرنسيون، يطورون تدابير تجارية غير متفق عليها، وأن هناك قدرات اختراق لدى دول أوروبية (مثل ألمانيا وفرنسا) مماثلة لما يقوم به إشلون. وثانيهما أن التجسس على المؤسسات الاقتصادية والتجارية يندرج في إطار مكافحة الفساد المالي ودفع الرشاوى من قبل مجموعات ومؤسسات أوروبية لحكومات وهيئات مختلفة. ثم إنه من الصعب أحيانا تحديد "جنسية" مؤسسة اقتصادية أو تجارية إن كانت فروعها منتشرة عبر العالم.

ونتيجة لكل هذه الأحداث وتداعياتها قرر الاتحاد الأوروبي عام 2004 تخصيص 11 مليون يورو لتطوير التعمية الكمومية من أجل ضمان أمن الاتصالات فوق أراضيه. والهدف من هذا المشروع هو ابتكار نظام تعمية

يحول دون اختراق أية معلومات تنقل من خلاله متحديا بذلك نظام إشلون واختراقاته السافرة. وهذا ما جعل الأوربيين يقررون اللجوء، دون تردد، لنظام التعمية الكمومية (انظر أدناه)، وهو مشروع تشارك في إنجازه العديد من البلدان الأوربية الغربية، بما في ذلك روسيا.

التعمية الكمومية:

إذا اعتبرنا أننا بلغنا درجة مقبولة من الأمن بفضل التعمية المبنية على الأعداد الأولية لأنه لا توجد لحد الآن طريقة سريعة تمكن من تفكيك الأعداد الكبيرة إلى أعداد أولية، فماذا يحدث لو تمكن العلماء من اكتشاف طريقة سريعة التفكيك للأعداد الطبيعية إلى أعداد أولية؟ هذا هو السؤال المحيّر الذي يؤرق اليوم العلماء. ولو حدث ذلك لذهب نظام التعمية الحالي أدراج الرياح ولبات الوضع الأمني في عدة قطاعات حيوية مأساويا في جميع الدول المتقدمة والنامية.

من هذا الباب الواسع دخلت الفيزياء في مجال التعمية مستخدمة فرعها المسمى بالفيزياء الكمومية، لتحلّ بذلك محلّ الرياضيات. وهذه الفيزياء هي علم يعنى بالمجهريات فيدرس الجسيمات الأولية، مثل البروتونات والنيترونات والإلكترونات، كما يدرس الفوتونات والذرات والجزيئات الكيميائية.

تقوم التعمية الكمومية بتشفير المعلومة التي نريد إرسالها بالتأثير على الجسيمات الأولية (باستقطابها مثلا) بحيث يستحيل على أي جاسوس اختراقها. والجميل في هذه الطريقة لا يتمثل في كون الجاسوس لن يتمكن من بلوغ هدفه فحسب، بل إن كل محاولة اختراق ستحدث اضطرابا في الجسيمات سرعان ما يكتشفها صاحب المعلومة.

والواقع أن نظام التعمية الكمومية يكتفي بإرسال مفتاح الشفرة ولا يشفّر النص. وهذا راجع لخصوصيات الفيزياء الكمومية. وقد وُ⍰عت أسس هذه التعمية عام 1984 بفضل عدة أبحاث منها بحوث شارل بنيت وجيل براسارد. أما الأفكار الأولى فظهرت خلال الستينيات من القرن الماضي في أعمال ستيفن ويسنر Stephen Wiesner ... والغريب في هذه الأعمال أنها لم تقبل للنشر وقتئذ رغم قيمتها العلمية.

وهناك الآن محاولات وبحوث عديدة في هذا الاتجاه لتصميم أجهزة تجريبية لهذا النوع من التعمية. وإذا ما نجحت هذه التجارب في التعمية الكمومية فإن الخبراء يرون فيها "الأمن المطلق" بعد أن يتم التخلص بسلام من التعمية "العددية". وسيكون نظام التعمية الجديد ناجعا، بالدرجة الأولى، على مستوى أمن الدول والهيئات العالمية قبل أن "ينزل إلى الأسواق".

يقارن بعض الخبراء علم التعمية بشبكة الإنترنت، فكلاهما ترعرع لدى العسكريين ورجال الأمن. وعندما فكّ هؤلاء الحصار عليهما وجعلهما في متناول "المجتمع المدني" تطورا بشكل مده ⍰، وقدّما خدمات لا تضاهى للمدنيين والعسكريين وللناس أجمعين.

اهم المراجع

أولا : بالعربية

1. سعد الله، أبوكر خالد (2005). عالَم الريا ?ليات. الجزائر : دار هومة.

2. مرياتي، محمد؛ مير علم، يحيى؛ حسان الطيان، محمد (1992). علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب : أبحاث الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، ج 1. حلب : معهد التراث العلمي العربي. ص 27-58.

ثانيا : بالأنكليزية والفرنسية

1. Cerf N. & Gisin N. (2000). “Les promesses de l'information quantique”, La Recherche, 327 : 46-53.
2. Diffie W.& Hellman M.E. (1976). New directions in cryptography. In IEEE Transactions on information theory, Vol. IT-22 : 644-654.
3. Kahn D. (1980). La guerre des codes secrets. Paris: InterEditions.
4. Kerckhoffs A. (1883, January). “La cryptographie militaire”. Journal des sciences militaires, Vol. 9 : 5–38.
5. Rivest, R. (1999). Pour la libéralisation de la cryptographie, Pour la Science, 260 : 101-106.
6. Rivest, R.; Shamir, A. & Adleman L. (1978, February). “A method for obtaining digital signatures and public key cryptosystems”. Communications of the ACM. : 120-126.
7. Singh S. (1999). Histoire des codes secrets. Paris : LC Lattès.

ثالثا : مواقع على شبكة الإنترنت

1. موقعان حول إشلون Echelon :

http://www.echelonwatch.org

http://reseau.echelon.free.fr/reseau.echelon/documents/stoa/vol1_fr.pdf

2. موقع "مركز أمن المعلومات" الكندية

http://www.cse-cst.gc.ca

الهوامش

[1] - يقصد القرن السابع الميلادي.

[2] - جاء هذا النص في كتاب لديفد كاهن عنوانه The code breakers يتضمن 1164 صفحة.

[3] - لم يتمكن المؤرخون من معرفة سنة ولادته أو وفاته.

[4] - لم يتمكن المؤرخون من معرفة سنة ولادته أو وفاته.

[5] - هؤلاء الريا▯يون هم رون ريفست Ron Rivest وأدي شامير Adi Shamir ولين أدلمن Len Adleman المنتسبون لمعهد التكنولوجيا لماسشوستس الأمري ر MIT (Massachusetts Institute of Technology).

[6] البحث هو

Diffie W., Hellman M.E. (1976). New directions in cryptography. In IEEE Transactions on Information Theory, Vol. IT-22. pp. 644-654.

[7] – للمزيد من التفاصيل، انظر الموقع التالي على شبكة الإنترنت :

http://www.apprendre-en-ligne.net/crypto/index.html

[8] – يرجع تاريخ إنيغما في الواقع إلى سنة 1919 عندما سجّل المهندس الهولندي هوغو ألكسندر براءة اختراع آلة تشفير كهروميكانيكية. وبعد ذلك قام الدكتور أرثر شربيوس بالتأمل في أفكار صاحب البراءة، وأنشأ في برلين شركة تصنيع آلة تشفير مدنية سماها إنيغما. غير أن هذه الشركة أفلست في الوقت الذي أثارت هذه الآلة اهتمام العسكريين الألمان فتبنوها.

[9] انظر مثلا المرجع الهام الصادر في نهاية القرن التاسع عشر :

Kerckhoffs A. (January 1883). La cryptographie militaire, Journal des sciences militaires, Vol. 9. pp. 5–38.

[10] – انظر موقع هذا المركز على شبكة الأنترنت :

http://www.cse-cst.gc.ca

[11]– انظر الموقع على شبكة الأنترنت :

http://www.echelonwatch.org

[12] - وبطبيعة الحال فقد كان لمركز أمن الاتصالات الكندي، الذي تعرفنا عليه في النموذج الأول، باع طويل في هذه الشبكة.

أفكار في تعليم اللغات في الجزائر

أ .د . صالح بلعيد
(ج. تيزي وزو)

1ـ ملخص باللغة العربية:

تقديم أفكار مستقبلية لمدرسة الغد، وما أتصوّره من حلول تربوية لوضع لغوي متجانس في المجتمع الجزائري المتعدّد اللغات.

1ـ إنزال اللغة العربية المكانة اللائقة بها كلغة رسمية ولغة القرآن، ولغة تجمع كل اللغات وتحافظ على اللحمة الوطنية، ومن هنا يجب على المدرسة أن تنزلها المكانة الأعلى فوق كلّ ما يدرّس في المنظومة المدرسية.

2ـ معاملة اللغة الوطنية معاملة احترام، والعمل على تعميم تعليمها، واحترام خصوصياتها، وعدم التعالي على اللغة العربية الرسمية. ومن ثمّة لا بدّ من الإشارة إلى ضرورة الاهتمام بكلّ التكلمات الأمازيغية، ولا يمكن فرض لغة أمازيغية على لغات أخرى، بل يحصل أن تنال كل لغة نصيباً من التعلّم في مناطقها فقط.

3ـ معاملة اللغة الفرنسية على أنّها لغة أجنبية كانت وستبقى، وأن يحصل في هذا المجال التعدّد اللغوي الحقيقي، وكسر هيمنة اللغة الفرنسية التي سادت في مجتمعنا، بل يؤدّي بنا أمر التعدّد إلى فتح المجال لاختيار الأولياء اللغة الأجنبية التي يتلقاها أبناؤهم/ اللغات الأجنبية، وأن يحصل التعدّد اللغوي في الجامعة بتعليم بعض الوحدات باللغات المتقدمة.

تلك هي الأفكار العامة المُراد تقديمها، ومن ورائها نقدّم ملاحظات أخرى جزئية ذات العلاقة بالموضوع؛ وهي توصيات يُراد منها تنبيه أولي الأمر بضرورة العمل على الانسجام الاجتماعي الذي لن يحصل إلا عن طريق الإجماع على لغة واحدة، ولا شكّ أنّ اللغة الجامعة للمجتمع الجزائري هي العربية.

2ـ ملخص باللغة الفرنسية:

Quelques idées sur l’enseignement et langues en Algérie

Résumé en lingue française

Il s’agit de proposer des idées sur l’école de demain, ainsi que des solution pédagogiques à la situation linguistique homogène qui devait prévaloir en Algérie qui se distingue par le plurilinguisme.

1- doter langue arabe du statut qu’elle mérite en tant langue officielle, et langue du coran, voire de langue qui subsume les autres parlés et veille à la cohésion sociale. Dés lors, l’école se devait de lui accorder une place de choix.

2- Traiter la langue nationale avec respect, oeuvrer à sa généralisation de son enseignement, respecter ses spécificités et ne pas lui disputé sur statut de langue officielle. Parallèlement à cela, il y a bien de s’intéresser à tous les dialectes amazighes, et ne pas privilégier l’un de ces dialectes au détriment des autres. Dans cette perspective, il faut faire en sorte que chaque dialectes puisse bénéficier d’un enseignement dans la région où il est usité.

3- Traiter la langue française en tant que langue étrangère, comme elle l’a toujours été . A cet effet, il faut mettre un terme à l’higoumène de la langue française qui a prévalu ces années durant dans notre société. Le plurilinguisme dans ce cas de figure, pourrait permettre aux parents de choisir la langue étrangère inculper à leurs enfants. Le plurilinguisme pourrait aussi déboucher sur un enseignement de certain modèle à l’université dans les langues les plus évoluées.

Ce sont là autant d’idées générales, ayant trait au sujet. Elles peuvent être considérées comme des recommandations à l’adresse des décideurs, en vue de conférer plus de cohésion sociale qui ne peut advenir sans un connexion autour d’une seule langue. Il va sans dire que cette langue fédératrice au sein de la société algérienne ,ne peut être que la langue arabe.

المقدمة :

أحسّ بواجب تقديم أفكار علمية لما يجب أن تكون عليه منظومتنا التربوية في لاحق من إصلاحاتها، وهذا من خلال ما بصُرت به من ملاحظات ودراسات نظرية وميدانية، وإشراف على أبحاث تخصّ التعليميات، ويضاف إلى ذلك أنّني مدرس وَوَلِي التلميذ، فمواطنتي تتطلب مني وضع اليد في العجين، بتقديم الملاحظات التي يمكن أن تردم الصعوبات التي تلاقيها المؤسّسات التعليمية، كما أعدّ نفسي من النخبة الوطنية التي يطلب منها الترشيد والتوجيه وإهداء العيوب التي تعمل على التقويم. ومن دواعي هذا العمل كذلك تقديم البديل النوعي؛ بالاستفادة من الفشل الذي مُنيت به السياسة التربوية في السنوات الأخيرة؛ حيث يلاحظ: شرخ بين المؤسّسات، عجز عن تمكين المتعلّم من سلامة اللغة، شلل في الإبداع، كلام مكرور، سرقات أدبية وعلمية، العيش في التاريخانية، تخريج البطّالين، ضعف المستوى، غياب الكفاءة المِهْنية والتقنية، فراغ في النهضة الثقافية، ملل ثقافي مخيف... وتعود الكثير من هذه النقائص والعوائق إلى التخلّف الثقافي في محتوى التربية والتعليم، تربية تُجرى عليها تعديلات لكنّها لا تمسّ الجوهر، وفي كثير من الأحيان تعديلات وإصلاحات حينية ومصطنعة... وانعكس كلّ ذلك على **النسيج الاجتماعي** لأولادنا الذين لا يحترفون لغات المدرسة الجزائرية بطلاقة، فغرقنا في حمى الفَرْنَسَة، وفي ازدواجية متوحّشة، فأصبحنا نقلّد ولا نبدع، وانعزلنا عن المجتمع العالمي الذي أصبح يشكّ في الشهادات التي تعطيها جامعاتنا، واستدعى الأمر ضرورة التفكير في إصلاحات جادة. وبذا فإنّ عصرنا يتطلّب المزيد من الحركة، واتّخاذ محرّكات البحث السريعة للمحافظة على الوضع الذي نحن عليه على الأقلّ، فنحتاج إلى **بناء تخطيطات واستراتيجيات ورسم معالم** المستقبل بدراسات نوعية حداثية، وهذا ما نرومه من هذا الملتقى، ومن خلاله أقدّم أفكاراً تربوية من أجل رُقي أفكار أولادنا الذين سوف يحاسبوننا على القدر البسيط ممّا أوتينا به من أفكار، فهل وظّفناها في خدمة ما يرفع رصيدهم المعرفي.

ويأتي هذا العمل الموسوم: **أفكار في موقع تعليم اللغات في الجزائر**، ونحن نشهد إصلاحات تربوية؛ نعيد فيها فحص منظومتنا التربوية، ساعين لتخليصها من القيود التي تكبّلها، ولنتمكّن من خلق مواطن يحسّ بمواطنته، ويستطيع مواجهة العولمة وما تفرضه التحدّيات المعاصرة. هي أفكار ذات علاقة بالفعل التعليمي المعاصر، باستشراف **مدرسة الغد** التي نأمل أن تستفيد من أخطاء الماضي وهناته فالماضي مضى ولا يُحاسب، لأنّه عرف مرحلة التأسيس لمدرسة جزائرية بإطارات أكثرها متعاونة وبمناهج مستوردة، ولكن نستفيد من نقائصه التي لا نعود إليها. وهكذا تنصبّ مداخلتي في مقاربة إشكالية تعليم/ تعلّم اللغات المدرّسة في الجزائر، وأحاول استكشاف مقام اللغات (**العربية والأمازيغية والأجنبيات**) في النظام التعليمي من خلال ما يجب أن يكون عليه الوضع اللغوي في لاحقٍ من الزمان. وستكون محدّدات الموضوع كما يلي:

1ـ التخطيط التربوي: نعني بالتخطيط التربوي سنّ سياسة لغوية عامة، تنزّل فيها كلّ لغة مكانها، كما يتطلّب استكناه نظرية لغوية واضحة تأخذ في الحسبان مقام **اللغة الأمّ، واللغات الوطنية، واللغات الأجنبية**، ويكون لكلّ واحدة مقامها وحدودها والقواسم المشتركة بينها. وإنّ التخطيط يشمل معطيات لغات المدرسة في تجلّياتها الكبرى، ويتطلّب هندسة علمية من النخبة التي ترى الآفاق وتخطّط لما يجب أن يكون. والتخطيط التربوي يعني التخطيط للجيل القادم؛ أي لرجل 2035 ما هي ملامحه الكبرى، وما هي الحمولة الثقافية التي يحملها من المدرسة باعتباره مهندساً/ طبيباً/ أستاذاً/ طيّاراً/ رئيساً... وهذا يعني من الضروري بمكان أن تتدخّل السياسة اللغوية التي تعطي الملامح الكبرى لشخص له أفكاره وخصوصياته، وله مستقبله غير واقعنا الحالي.

وإنّ التركيز على التخطيط التربوي يعني أن يكون هناك:

1ـ تحديد موقع ومكانة اللغات المستعملة في المدرسة؛

2ـ وضوح الأهداف، مهما اختلفت الطرائق/ الطرق المؤدّية لتحقيقها؛

3ـ سنّ القوانين اللازمة للمتابعة والتنفيذ؛

4ـ إقامة مؤسّسات تعمل على التهيئة اللغوية؛

5ـ العمل على تجسيد التخطيط من قبل مؤسّسات الدولة؛

6ـ تدعيم تدريس اللغات بالمادة وبالوسائل والدراسات اللازمة؛

7ـ تحديد الآماد الثلاث بشكل واضح؛

8ـ استشراف المستقبل في ظلّ التخطيط الذي لا يراجع في أبعاده الكبرى؛

9ـ الأخذ في الحسبان عمليات التقويم والمتابعة.

2ـ **ضرورة تطوير المنظومة التربوية**: من الطبيعي أن تُراجع المنظومة التربوية، ومن الأمر الجيّد أن تحدث تعديلات حينية حينما يستدعي الأمر ذلك، ولذلك أدعو إلى **المراجعة لا للتراجع، فنعم للتطوير لا للتغيير، ونعم للتواصل لا للقطيعة**؛ لأنّ من سنة الله في خلقه أنّ الأعمال تتكامل، وأنّ الحياة متواصلة عن طريق المزيد على السابق، وهذا ما عرفته الحضارة البشرية، فهي سلسلة من الأمواج تتنامى وتتطوّر وتأخذ المجرى الصحيح بفعل التطوير والتحسين. ومن هنا لا نستغرب الإصلاحات التي بادرت بها الدولة الجزائرية سنة 2003، فهذا فعل نبيل؛ نتوق إليه ونحن ندرس في الجامعة، لأنّنا أحسسنا بأنّ الحراك الجماعي يتطلّب التطوير، ونعيش مغامرات العصر وما يعرفه من فعل العولمة، ونحن نتفرّج على الجمود، ونرمي اللوم على اللغة العربية ولم نسدّ الفراغ الذي يخلّصها من النقائص، ولم نقدّم ما يزيد من شأنها "يعيش تعليم العربية فراغاً يوسّع الهوّة بين المجهود والمردود في زمن العربية، فيه أحوج ما تكون إلى مراجعة

طرائق تعليمها، وتطوير استراتيجيات توصيلها في ظلّ التجديدات التربوية، وعصر البدائل السريعة والمنافسة العنيفة التي تفرضها لغات الإنترنت[1]". وإنّه لا أنكر فضل الإصلاحات، وما قدّمته من توعية ونظرة جديدة، ولكنّي أنشد الأفضل، والإصلاح التربوي ليس مداداً نضعه على الورق ليصبح مخطوطاً، ويجوز لنا تمزيق الورق؛ فالإصلاح التربوي تثقيف وإنشاء وتكوين على التفكير الناقد، وعلى تربية مهارات الاتّصال والقيم والأخلاقيات، ودراسة التاريخ الوطني، وتنمية الاتّجاه العلمي في حلّ المشكلات، والسعي إلى إعداد التلاميذ لتتعامل مع المتغيّرات التي تحدثها التكنولوجيا الحديثة، والتحوّل من تعلّم يقوم على إعطاء المعلومة إلى تعليم للفهم والتعليم المستمرّ بغية التحسين الدائم.

3ـ فلسفة الإصلاح عند الشعوب المتقدّمة: تُجري كلّ الشعوب إصلاحات تربوية، وتخضعها لقانون، ولمنهج، ولنظرية علمية تربوية تجريبية؛ نظرية لها صفة الشمول والامتداد الزماني والمكاني ولها المريديون، وتقبل التطوير. وهكذا كلّما تحسّ الأمم بضرورة الإصلاح التربوي، أو تفرضه مستجدات العصر، أو المجتمع المدني، يُطرح ملف الإصلاح التربوي على النخبة وعلى من يهمّه الأمر للتحاور ومناقشة قضاياه، بغية إيجاد الحلول اللازمة لكلّ الإشكاليات التي تتعلّق بضرورة التطوير/ التغيير وتسميها **الإصلاحات**. وعادة تكون العملية بالشكل التالي:

- يُشخّص الوضع بالتوصيف الدقيق؛
- يُسند ملف الإصلاحات للنخبة التي تتولّى إدارة جلسات الحوار؛
- يتعلّق الإصلاح باسم شخصية وطنية نخبوية لها باع واسع في التربية؛

- ينزل الملف للحوار الوطني، ويكون على نطاق واسع، وينال المعلّم دوره في التشخيص ووضع الحلول؛
- تُدار جلسات الحوار في إطار الهدوء والتشاور بين كلّ أطراف المجتمع؛
- تُحدّد سلفاً قواعد الحوار، آخذة بالاعتبار اللغة الرسمية صفة التبجيل، ثمّ الأبعاد الوطنية والحضارية والمدنية والعلمية؛
- تتحدّد المعالم الكبرى لفلسفة تربوية إصلاحية؛
- تأخذ تلك الفلسفة أبعادا نظرية تربوية مشهود لها بالنجاح؛
- تقترح اللجنة/ النخبة الآجال المحدّدة للإصلاحات، باستعمال التخطيط التربوي؛
- تستخلص الأفكار العامة والطموحات والمرامي والغايات والملامح الكبرى للجيل القادم (25 سنة)؛
- يرفع الملف إلى القيادة السياسية للبلاد لتقرير ما تراه مناسباً، وقد تجري تعديل ما تراه ضرورياً؛
- يخرج ملف الإصلاح على شكل قوانين أو أوامر خاضعة للتطبيق، ويتعلّق بتخطيط السياسة اللغوية أو السياسة التربوية، أو إستراتيجية التربية.

وعلى العموم فإنّ الشعوب المتقدّمة لا تقرّ الإصلاحات إلاّ بعد إخضاعها للتجربة على مستوى ضيّق، فإن أبانت عن نتائج جيّدة عمّمت، وإلاّ تبقى مجرّد فكرة تحتاج إلى نظرة أخرى، والمهمّ أنّ ما يخضع للإصلاح يكون رصيناً وجيّداً، ويتابع بعد تعميمه لتحسينه أكثر. ونرى من خلال هذا أنّ الشعوب تنظر إلى أبنائها على أنّهم تلاميذ وليسوا أرقاماً في الطاولة أو في سجل الحضور، وأنّ المعلّم له الكلمة في أخذ القرار، وتحفّز المتعلّمين من خلال تزويدهم بمعلومات حول النجاح في أجزاء متعدّدة من المنهج، وتمكّنهم من تقييم طرائق تدريسهم،

والكتب التي يدرسونها، وباقي جوانب العملية التعليمية وتجعلهم يساهمون في التحسين المستمرّ للمنهج، والكشف عن مدى تقدّم برنامج المدرسة نحو تحقيق الأهداف المرسومة.

4ـ **الاهتمام باللغة الأمّ** : ونقصد بها لغة المدرسة والجامعة وكل مؤسّسات الدولة، وهي اللغة الرسمية في البلد، وغالباً ما تكون لغةَ التعليم ولغةَ التأليف والثقافة، ووسيلة التعامل الرسمي والاجتماعي (اللغة الأمّ). تأتي في العادة اللغة الرسمية من الأبعاد الكبرى للتوجّهات الوطنية لطموحات الشعب، وفي بعض البلاد تأتي عن طريق الاستفتاء، وينصّ عليها دستور البلد. ورسمية اللغة تأتي من التخطيط اللغوي الذي تنصّ عليها الأبعاد الوطنية في مراميها الكبرى. وهي في العادة لغة الإدارة والخطاب الرسمي، وكلّ المعاملات الوطنية والدولية، ولها مؤسّسات تعمل على ترقيتها، ودستور يعمل على حمايتها. وهي **اللغة العربية عندنا**. وأما **لغة الأمّ**: Langue maternelle/La langue de la mère : وهي لغة المنشأ التي يفطر عليها الإنسان في بيته الأول، ويطلق عليها كذلك **اللغة الأهلية**، وهي لا تُتعلّم إلاّ لدواعي اجتماعية أو سياسية، حيث تُكتسب بالفطرة، ولا تكاد أمة في العالم إلا وتتحكّم إلى لغات أم، وهي لغة التعامل العائلي أو المحلي. وهذه اللغة يستبطن الطفلُ نظامها اللغوي بفعل الاحتكاك المتواصل، ويُنتج بها أنماطاً بفعل قدرته اللغوية الفطرية، انطلاقاً من النموذج المثالي، وقد تكون هي اللغة الأمّ/ اللغة الأصل، وقد تكون لهجة، أو لغة محلية، وقد تكون مكتوبة، وقد لا تكون.

وفي واقعنا اللغوي الجزائري يواجه الطفل منذ مراحل الاكتساب التعليمي الأولي واقعاً لغوياً؛ فيه اللغة العربية الفصحى بمثابة لسان طارئ بالنسبة إلى المحلية التي هي اللسان الطبيعي، ويؤدّي هذا الوضع أحياناً إلى

الصراع طالما اطّرد لدى بعض الفئات المجتمعية، أي إنّ الطفل من خلال الأسرة والمجتمع يكتسب لغة الأمّ بشكل ازدواجي، وقد يشكّل له ذلك انفصاماً لغوياً، وهذا خطر على تعلّم اللغة الأمّ. ونجد هذا الوضع ذاته بالنسبة للطفل الأمازيغي الذي اكتسب العادات اللغوية في لغته، ولما يدرس العربية يجد أحياناً بعض الصعوبة في اكتساب عادات لغوية جديدة، وخاصة في مجال النطق ومع كلّ هذا يرى المختصّون بأنّ لغة الأمّ (المحليات/ الدوارج) لا تُدخِل الضيم على تعلّم اللغة الأولى (الرسمية) طالما أنّها لا تُدرّس، ولا يحاسب الطفل على لغته الأولى (لغة الأمّ) "ويعدّ الفرد من الناطقين بتلك اللغة، على الرغم من أنّه يمكن أن يعدّ من الناطقين بعدد من اللغات، وإذا كان قد تعلّمها بلا دراسة رسمية، وإنّما بطريقة طبيعية في العائلة أو المجتمع، كما يحصل لدى الطفل المزدوج اللغة من أبوين يتكلّمان لغتين مختلفتين، أو لدى طفل يعيش في بيئة متعدّدة اللغات[2]".

والمهمّ في كلّ هذا فإنّ الواقع اللغوي في الجزائري تجاه استعمال اللغات واقع هجين، يحتاج إلى وصف دقيق للوصول إلى اقتراح بدائل نوعية توجّهه، فإذا أخذنا خطاطة فيرجسون[3] والتي استعملها للغة واحدة ذات مستوى عال ومستوى منخفض، وسمّاها بالازدواجية، نجد استعمال اللغات عندنا بالشكل التالي:

فإذا كان من تعليق، فإنّه نقول: إنّ الازدواجية أو الثنائية تقريباً توجد في كثير من اللغات، والحلّ فيها وجود تخطيط لغوي يعطي السيادة للفصحى، ومن هنا فنحن بحاجة إلى تحقيق سياسة لغوية واعية لحلّ المسألة، وفي الحقيقة ليست

عقدة في تواصلنا الحاضر، كما يجدر التنبيه إلى **اللغة الأمّ** باعتبار ما تحظى به من مقامات استناداً إلى هذه الخطاطة، رغم ما ترتبط به بعض التوجيهات الفرانكفونية عندنا في مسألة الصراع غير المعلن عنه بين النخب الوطنية.

وتتغيّر هذه الخطاطة حالة إدخالنا **اللغة الفرنسية والأمازيغية** لما لهما من موقع في الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية، إلى جانب مناطق النفوذ التي تتصارع حولها القوى الكبرى في احتلال مواقع في البلدان المتخلّفة، واللغة مدخل من المداخل، وهذا ما يحصل في الجزائر. ويضاف إلى ذلك دخول اللغة الأمازيغية في المنظومة التربوية ولما تناله من مواقع في الإعلام

السياقات	العربية الفصحى	اللغة الفرنسية	الدوارج	الأمازيغية
الوعظ في المسجد	=		=	=
التعليمات للخدم والعمال والكتبة		=	=	=
الرسائل الشخصية	=	=		
الخطبة في مجلس الأمّة/ الحديث السياسي	=			
محاضرات الجامعة	=	=		=
الحديث مع الأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة		=	=	=
إذاعة الأخبار	=	=	=	=
التمثيليات	=		=	=

الاجتماعية في الإذاعة				
افتتاحية الصحف/ أخبار الصحف والعناوين	=	=		
التعليق على الكاركاتير	=	=		
الشعر	=			=
الأدب الشعبي			=	

وبإدخال اللغة الفرنسية والأمازيغية نكون أدخلنا على هذه الخطاطة تغييراً في اللغة المزاحمة للغة الرسمية، ولكن الواقع اللغوي ينزلها مكانة معتبرة، خاصة في الشمال، وعند النخبة الوطنية الفرانكفونية، واستعمال الأمازيغية في مناطقها في مقامات خاصة، ومع ذلك نجد **اللغة الأمّ** تحتلّ موقعاً متقدّماً، رغم أنّ تعليم العربية في بعض الأحيان متذبذب، إلى جانب قلّة استخدامها للوسائل الحديثة وهناك عوامل أخرى مثل المحيط الذي ينظر إلى العربية بالشكّ، ويسبّب بعض الإحباط النفسي، وهذا كلّه من إكراهات العصر، ونحن وسط العاصفة وعلى أمواج متلاطمة في التذبذب تجاه **اللغة الأمّ**. ويجب الوعي بأنّ تعميق المسار الديمقراطي يفرض إعطاء الحقوق كاملة للمواطن بما فيها الحقّ الاستعمالي والتعليمي **للغة الأمّ**، وهي حقّ من حقوق المواطنة، وأسميها **بالمواطنة اللغوية**، وأن تتبوّأ المكانة العليا بين اللغات في المسار التعليمي، وفي

سنّ القوانين التي تعمل على حمايتها، والرفع من مردوديتها، فكان من الضروري إعادة الاستقرار اللغوي عن طريق القرار السياسي.

وعوداً على بدء فإنّه من اللازم الاهتمام **باللغة الأمّ**؛ فهي المقوّم الأساس، والأمن والضامن لانسجام المجتمع، بل الحامية لكيان ذات الأمة. وفي مسألة التعليم لا يمكن نكران بأنّ في برامج اللغة العربية ماضوية تربوية منفرة تمجّد الأبطال، ولا تنظر إلى فعلهم، فكان لا بدّ من تخليصها من الجمود وتحريرها من أغلال الماضي، والخروج من التاريخانية بتحيين الأحداث، والعيش في المعاصرة واستشراف المستقبل، وفي ضوئها ينظر إلى قضايا المعلوميات والتكنولوجيا والنانوتكنولوجي، ولا يعني هذا القفز إلى المستقبل دون وعي الواقع، بل كان على المعدّين للبرامج إيلاء العربية العلمية المكانة في الكتاب المدرسي عن طريق:

1/4ـ مراجعة المحتويات الدراسية: بنظرة سريعة إلى الكتاب المعاصر نراه مليئاً بألفاظ السلطوية والخضوع والأخطاء؛ فألفاظه كلمات رنّانة لا تحتوي على مضمون معتبر، فنجد غلبة الألفاظ على المعاني، وطغيان الشكل على المضمون، والشعارات على الدراسات، والمعارف النظرية على التطبيقية... ومن هنا نرى عجز المدرسة عن تقديم بديل للمقرّرات القديمة التي لا تزال قديمة، ونجد غياب المواد الحديثة كالتي تتحدّث عن **البيئة والطاقة والماء والتنمية والمعلوماتية والمواطنة** وبصفة عامة نجد صلابة في المقرّرات وعجزَ المناهج عن وضع الحلول، وطغيانَ المركزية والعمل داخلها، دون مراجعة ولا إبداء رأي، ودون الاستماع إلى من يهمّه الأمر، وخاصة المعلم باعتباره الطرف الأساس في هذه العملية. مواد فيها ملء رؤوس التلاميذ بكميات من الألفاظ

حتى تصبح محفوظات تحتاج أن تُحشى في الدماغ؛ بمعنى أنّ التعليم يصبح لفظياً يحتاج إلى تحصيل واسترجاع تلك الألفاظ النظرية لا غير، فمظاهر اللفظية في الكتاب وفي الأهداف التربوية كثيرة حتى تغلّب الشكل على الجوهر، واللفظ على المعنى، فأين تنمية التفكير العلمي والنقدي والتحليلي والإبداعي.

وإنّه لا توجد وصفة جاهزة لمحتوى أو برنامج مثالي، بل هناك مواصفات عامة يستحسن أن تندرج فيها المحتويات الدراسية بمراعاة الآتي:

1ـ اختيار النصوص حسب العمر الزمني للمتعلّم، وتدرّج المحتويات اللغوية على نحو يتماشى ونمو الطفل؛

2ـ انتقاء النصوص الأصيلة التي تعمل على تربية الإبداع؛

3ـ تمثّل تلك النصوص تمثلاً إبداعياً من قبل المعلّم؛

4ـ تنويع مظان ومراجع النصوص؛

5ـ اختيار النصوص التي تقدّس الهُوية الوطنية، والتي تراعي الأبعاد الدينية والحضارية والعلمية؛

6ـ وضع كتاب مدرسي متنوّع؛ فيه نصوص إجبارية، ونصوص اختيارية.

وإذا تحدثنا عن المحتويات الدراسية يعني أنّنا نتحدّث عن المنهج الدراسي، فالمنهج روح العملية التربوية وقلب المدرسة، فكيف لهذا المنهج أن يكوّن مواطناً وهو غريب عن الوطن، فهو مثل السلعة المستوردة، لأنّه مستورد دون تكييف، منهج لا يؤدّي إلى تنمية شخصية التلميذ بشكل متوازن ومبدع. وإنّ الأمم المتقدمة تعطي المنهج والمنهاج القيمة الكبرى في العملية التعليمية؛ باعتباره الطريق نحو الإبداع، وهو السكة التي لا ينحرف سالكها.

2/4ـ تطوير طرائق التدريس: إنّ الإصلاح يحتاج إلى مهارات، وإلى معلّم متفاعل مع المهارات فهل تتوفّر مدارسنا على تلك المهارات، فهل يمكن لمحراث جديد أن يغوص في الأرض وتجرّه الوعل وإنّ المحراث الجيّد المتين يحتاج إلى قوة تجره، يحتاج إلى منهج وتخطيط، والتخطيط يؤدي بلا شكّ إلى تقدم بديل لتطوير الطريقة الطاغية؛ وهي التلقين والمقاربة بالكفاءات لا تلتقي مع التلقين، والتلقين وظيفته الحفظ والتذكّر واسترجاع المحفوظ، كما أنّ أسلوب المحاضرة هو الطاغي في الجامعة باستبعاد التداريب والحوار والمناقشات. وإنّ التلقين طريقة التدريس الحالية تربّي الاستبداد، وتشجّع على الاتّكالية والسلبية، وتساعد على ضعف قدرة التلاميذ على الفهم والتحليل وحلّ المشكلات والاستنتاج وحصر المتعلم في تلقّي المعلومات دون تصفيتها واختيار النافع منها، ولهذا تنشأ أجيال لا تُعمل العقل ولا تعتمد النقد والتحليل، فعقولها خزّانة معلومات تُستعاد وقت الحاجة دون إضافات، فأين تعليم التفكير إذا قمعنا الفكر، وكيف تعتمد طريقة جيّدة بكثرة التلاميذ في القسم، ألا يؤدّي ذلك إلى إعاقة الحوار والمناقشة والتجريب. هذا وغيره من المظاهر التي جعلت مدارسنا مراكز لإكساب السلبية واللامبالاة والخنوع.

5ـ اللغات الوطنية: قلتُ في أكثر من موقع: **إنّ الجزائر بدون اللغة العربية عمياء شمطاء وبدون الأمازيغية عرجاء،** فمن هنا يجب التنويه بوطننة اللغة الأمازيغية، وإدخالها جزئياً في النظام التربوي؛ فهي المكمّل للهُوية الوطنية، ولكن لا تصل إلى كمال العربية، فالعربية لغة عالمة عالية لما لها من موقع ديني وحضاري علمي وتاريخي وعالمي. وهذا يعني أنّ الاهتمام بالأمازيغية هو دعم للعربية في ذات الوقت، وكما يقال فإنّ الأمازيغية إضافة ونقلة للعربية باعتبارها تستفيد من العربية وتفيد منها العربية فتتكاملان، وننتظر القرار

السياسي الذي يفصل في مسألة كتابتها بحروفها الأصلية أو بالحروف العربية، فالكتابة ليست مسألة شكلية، بل هي الوجه المشرق لها، فمثلها مثل عملية التعريب، فأن تعرّب يعني أن تنقل العلوم إلى اللغة العربية، فهي إضافة للعربية، وأما أن تدرّس بالأجنبية فإنّك نقلتَ الشخص إلى تلك اللغة، والمستفيد هي اللغة الأجنبية. ففي وضعها الحالي نجد الأمازيغية تكملةً للغنيمة الحربية (الفرنسية) ونقصاً في الهُوية الوطنية.

و إنّ الاهتمام بالأمازيغيات يعني استكناه التراث القديم، وتلك الحكايات التي ترويها النساء القبائليات لأطفالهن حول الكانون في البيوت والأكواخ، ويعني بصفة عامة الاهتمام بمجموع الثقافة التعبيرية الخاصة، ويشمل الموسيقى والرقص والأساطير والخرافات وحكايات ربّات البيوت، والأمثال والنكت ومناسبات الأعياد والتقاليد؛ أي الاهتمام بالتواصل الفنّي داخل المجموعات السكانية الصغيرة.

إنّ الأمازيغية تحتاج إلى فعل ديداكتيكي معاصر يعمل على:

1/5ـ تدريس الأمازيغية المحلية، بتخصيص حصص إضافية في الجهات المعنية؛

2/5ـ تخصيص المجالات ذات العلاقة بالتراث المحلي والوطني؛

3/5ـ التركيز على الجوانب الأدبية والإبداعية؛

4/5ـ نشر المحفوظات و إقامة التمثيليات والمسرحيات؛

5/5ـ حرية استعمالها في التكلّمات الإدارية في مناطقها دون ترجمة؛

6/5ـ العمل على الفصل في قضية رسمها، والخروج من الرسم اللاتيني؛

7/5ـ تدريسها بلغتها وفي لغتها، ولا تدرس باللاتينية كما هو الوضع عليه الآن؛

8/5ـ استعمالها بالفعل والقوّة في الإعلام المحلي؛

9/5ـ استعمال الوسائل الحديثة أثناء تدريسها.

6ـ اللغات الأجنبية: تجدر الإشارة إلى ضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية، بعد استيفاء اللغة الأمّ في حدودها الضرورية، ومواصلة تعميم استعمال اللغة الأمّ في جميع مراحل التعليم، وإيلاء لغات أمّ مكانتها كلغات مكمّلة للغة الأمّ. ويجب الإقرار بالواقع بأنّ الصراع بدأ يطفو وعادت المسألة اللغوية تطرح بشكل آخر، فلم يحصل التصالح اللغوي، فالفئات العليا في المجتمع لا تزال تدافع عن مصالحها الممثلة في الفرنسية والفرنسة، وتدعو إلى التعدّد اللساني، وبعض الفئات ترى ضرورة عرض اللغات على سوق الاستعمال، فالمشتري يختار البضاعة، ورغم هذا فإنّ الفئات والأفواج التي تتخرّج من المدارس تتوق إلى لغتها، وتبقى مسألة القطيعة مع الفرنسية لم تحصل، كما أنّ توقيف العربية في المراحل الأولى من التعليم يشكّل عقبة للحيلولة دون تواجدها في العلوم.

وإنّه لا يوجد مجتمع حقّق تطوّراً استناداً إلى لغة الآخر، ومن هنا يجب علينا أن نعترف بوضع لغوي قائم معيق ومشتّت، ولا يعمل على التناسق الاجتماعي، وكان علينا أن ننظر إلى الفرنسية على أنّها لغة أجنبية فقط، وتُعامل معاملة اللغة الأجنبية، فهي لا تتكامل مع العربية، كما يجب الإقرار في ظلّ العولمة بتقدّم الإنجليزية بلا منازع على حساب كلّ اللغات بما فيها الفرنسية، كما بدأت الفرنسية الآن تزاحمها الإسبانية على مستوى الاتّحاد الأوربي، بسبب مشكلة قواعدها وخصوصياتها اللغوية. وعلى نخبتنا أن تتخلّى عن هذا الموروث الثقافي والعمى الحضاري، وأن تنخل هذا الموروث الاستعماري الذي لن يصبح

له مقام بعد ما يقارب خمسين سنة من الاستقلال، فهناك جيل يؤمن بالعربية، بل تعلّمها واستوعبها، فلمَ نجعله يتأخّر ويراجع نفسه في كلّ مرة، يجب أن نفرز الثابت من المتحوّل، وكلّما تشبثنا بالثابت يتحتّم علينا أن نعمل على تجاوز المتحوّل، ولذا لا بدّ من ملامسة المشكلات اللغوية اليومية التي تطرح على مستوى الدارس والمدرّس، ولا يجب أن نبقى في مقولة لغة الغالب هي الغنيمة وهي المسيطرة، فمتى نستطيع أن نوفّر لأنفسنا المناعة التي تقينا من الانهيار إذن ومتى نتجاوز هذه السلبيات طموحاً في المستقبل الواعد المبني على مواجهة التحدّيات المعاصرة بخصوصيات لغتنا، ولا يكون الحلّ إلا بالدعوة إلى الاستغناء عن الفرنسية لوأد ركام الفكر الاستعماري الذي تضمه الدراسات التي قامت على المغالطات والاحتقار، والعمل على تدعيم حضور العربية بالقوّة والفعل، وتدعيم التعدّد اللغوي، وإتاحة الفرصة للإنجليزية كلغة علم عالمية.

ومن خلال هذا فأدعو إلى:

1/6ـ التعدّد اللغوي النفعي في اختيار لغات الجيل القادم، لغات المستقبل، ولا يجب أن نفهم أنّ التعدّد اللغوي لا يخرج من استعمال العربية، ولغة غنيمة حرب (الفرنسية) واللغات المحلية كما فهمها عبد الحميد قريدش، وهذه نظرة ضيّقة جداً، فهو الذي يقول:

Le pluriculturalisme en Algérie issu de la rencontre de plusieurs langue (le français, l'arabe, et la langue maternelle) devrait prendre place dans cette dimension didactique à travers les manuels pour préparer les élèves à être les citoyens du monde multiculturel, comprenait la culture locale , la culture officielle et celle de l'autre[4].

2/6ـ ترك الحرية للتلميذ ولولي التلميذ في اختيار اللغة الأجنبية بعد سنّ استيفاء خصائص العربية؛

3/6ـ وضع خريطة وطنية لتدريس مختلف اللغات الأجنبية المتقدّمة في اختصاصات علمية عالية الجودة؛

4/6ـ اللغة الأجنبية تعامل معاملة اللغة الأجنبية في التدريس والتواصل والإعلام على أساس الاستفادة من علمها فقط، لا التعامل بها بديلاً عن اللغة الأمّ؛

5/6ـ سنّ قوانين صارمة للحدّ من ظواهر الغزو الثقافي بدعوى المعاصرة والحضارة.

ومن خلال هذا فإنّه يجدر بنا أن نتعايش ونتصالح لغوياً في احترام مقام اللغة الأمّ، واحترام مقام اللغات المحلية، وألاّ تتعدى اللغات الأجنبية حدودها، وتبقى لغات أجنبية نحتاجها وقت الضرورة، فليس من اللازم أن نخدمها كما تخدم نخبة المغرب العربي اللغة الفرنسية حالياً، بل أن نستفيد منها علمياً في الترجمة ونقل المصطلحات، والاستفادة من منهجيات التحقيق وحفظ التراث، وفي منهجيات التعليم الفني والمدرسي المعاصر، وفي نشر العربية خارج حدودها، وهذا ما نرومه من أن نأخذ بمنهجيات وطرائق اللغة الفرنسية على وجه الخصوص لما لها من باع في هذا المجال. ولذا فأدعو إلى **تأجيل تدريس اللغة الأجنبية إلى سنّ الرابعة ابتدائي أو إلى السنة الأولى من التعليم المتوسط**، والغرض من كلّ هذا هو تمكين التلميذ من اللغة الأمّ تمكيناً لا يمكن أن تزاحمها لغة أخرى، واستناداً إلى كثير من الشعوب المتقدّمة التي تعمل بهذه الفكرة، ويمكن إجمال حجج هذا الرأي في ما يلي:

1ـ تمكين التلميذ من استعمال لغة آحاد بصفة تلقائية استعمالاً يكفل له التعبير عن مختلف أغراضه؛

2ـ إدراك خلال السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية مختلف التراكيب النّحوية والصيغ الصرفية الضرورية؛

3ـ توظيف اللغة بعفوية، بالتمييز بين مستويات الأساليب التعبيرية، وأن يعبّر بلغته الأمّ ويعدّ ويتحدث؛

4ـ عدم حصول التضارب والتداخل/ الدخل في ذهن التلميذ في هذه المرحلة الهامة بين اللغات التي يستخدمها لاحقاً. وهذا ما قاله علماؤنا منذ سنين "... وألا تكثر لهم حصص اللغات الأجنبية حتى لا تتصادم في أذهانهم فينشؤوا ضعافاً في الكلّ، فينبغي أن نفهم ويفهم أبناؤنا أنّ اللغة العربية هي رأس المال الذي تجب المحافظة عليه، وإنّ اللغات الأجنبية هي ربح فلا تعط من العناية ولا من الوقت إلاّ ما لا يزاحم لغتنا الأصيلة، ولا يبتليها بالضعف ولا يمسّ قدسيتها عندنا[5]".

7ـ **الاهتمام بالبحث التربوي**: إنّ البحث التربوي ليس قشرة زائفة كما يقول العاجزون، بل هو من بحوث التأسيس، يتطلّب الحرية الأكاديمية، ولا يعني غياب القيود والغياب عن النشاطات والتدريس بل نعني به إقرار روح المبادرات التي تتنامى في ظلّ الحرية، وتضعف ويضمر مفعولها في مناخ الكبت. إنّ البحث التربوي يؤدّي إلى الابتعاد عن اجترار المعرفة وخزنها، وعدم تغليب الألفاظ على الأشياء، وعدم تقديم الجدل على المنهج، وعدم إيثار التقليد على التجديد، كما يؤسّس لنخبة مدمجة تكره التغريب، ونحن نرى نخبتنا تقبل التغريب، ونجد الكثير منها ضعيفة مهزوزة الثقة بنفسها وبوطنها فبدلاً من أن تتفاعل مع بيئتها وتعمل على إيجاد الحلول، نراها تغترب وتهاجر وتسجل تبعية وانهزاماً وهذا ما يزيد الشباب اغتراباً عندما يرون نخبة بلادهم تهرب وعاجزة

عن المشاركة الإيجابية في تقديم الحلول واتّخاذ القرار المستقل. وما يمكن تأكيده في هذا المجال تلك القطيعة أو الشرخ الموجود بين الأبحاث الأكاديمية التي تنجزها المعاهد والجامعات، والفعل التهميشي الذي تلقاه من المطبّقين الفعليين في وزارة التربية التي لا تولي أية أهمية لما يقدم في الجامعة، فهل نردم لاحقاً هذه الفجوة التي تعمل على فصل التنظير عن التطبيق.

8ـ **نحو مدرسة جزائرية منشودة:** قبل شرح هذا العنصر يجب أن نطرح السؤال التالي: ما الذي يجب أن يعرفه التلاميذ للنجاح؟ أرى أنّ المحدّدات الكبرى يجب أن تدور في الآتي:

1/8ـ **المحتوى الأكاديمي:** ويتمثّل في تعلّم الرياضيات والمنطق والتفكير، واستخدام التقانة ومهارة الكتابة، ومعرفة التاريخ ونظام الحكم واللغات الأجنبية.

2/8ـ **المهارات الأساسية:** وتتمثّل في الاتصال الشفوي والتحريري، والتفكير الناقد والاستدلال وحلّ المشكلات.

3/8ـ **السلوكيات:** وتتمثّل في الصدق واحترام الجهد وتقدير التنوّع والإخلاص، العمل الجماعي، وحلّ النزاعات.

وهكذا فإنّ نجاح اللغة العربية مرتبط بقضية الاختيار السياسي، ومواصلة تدريس العلوم بها ووضع مخطّط شامل لمختلف اللغات، مع سنّ التوجهات المعاصرة للمواصفات التي تعتمد في تلميذ الجيل القادم، جيل القرن الحادي والعشرين[6]، فكيف يخدمون وطنهم خدمة صالحة، ويكونون مواطنين يسهمون في رفع الاقتصاد الوطني. ومن هنا فإنّه من الضرورة بمكان الحفاظ على الثقافة الوطنية مع توفير الفرص لتأسيس مدرسة جزائرية بقيم وطنية وأبعاد

حضارية حداثية، مدرسة تتسلّح بقيم المواطنة والحضارة ومعطيات العصر، مدرسة لا تعيد إنتاج الفشل والتسلّط و إضعاف النظام التربوي مدرسة تفكّر في كيفية إخراج المتعلّم من التغريب والإعاقة الإبداعية، و إبعاده من الملل، مدرسة تنبذ ضعف الحرية الأكاديمية والماضوية والتاريخانية والتسليع التربوي وآثار اللفظية، مدرسة تبني التعليم التشاركي الحواري، و إشراك المتعلّم في عملية الوصول إلى المعرفة، وتسعى لتنويع مصادرها مدرسة تقيم شراكة في الإشراف التربوي، وتبتعد عن التسلّط الإداري، ولا يكون فيها الإشراف الإداري سلطة تفتيشية تسلطية، مدرسة تعطي هامشاً كبيراً وواسعاً للفاعلين التربويين في الإبداع والظهور في القدرات والكفاءات والتنافس النزيه، مدرسة تقرّ بإنسانية التلميذ والمعلّم، فهما شخصان لهما مؤهّلاتهما وخصوصياتهما، ولهما طموحهما وأهدافهما، شخصان بما يقدّمانه لوطنهما، مدرسة تبتعد عن **التسليع التربوي**؛ فالتربية ليست بضاعة ولا يجب أن تدخل فيها **المضاربات على صنع الكتاب المدرسي**، أو غلبة النظرة الربحية على التعليم؛ بحيث تصبح الخدمة التعليمية سلعة، مدرسة تبتعد عن المضاربات، وبيع رخص فتح المدارس، ومضاربات في التوظيف، مدرسة تحصل فيها الخدمة التعليمية الجيّدة دون مقابل، وهذا إقرار لمجانية التعليم.

الخاتمة : يجب أن يقرّ في فكرنا بأنّ الخطأ في التربية أعظم من الخطأ الذي يحدثه الطبيب في مريضه، خطأ التربية يعلق بجيل كامل، فيمسّ الفرد والمجتمع، ونأمل أن ينزل ملف المنظومة التربية للحوار والمناقشة، ويمسّ كلّ أطراف العملية التعليمية، و إنّ المواطنة تعطي الحقّ في إعطاء التراتب للغات المستعملة بحسب المنزع الحضاري والاجتماعي والثقافي والعلمي، وأقول لمن

يهمّهم الأمر: **عليكم استشعار الخطر القادم بسبب اللغة؛ فأنشؤوا المؤسّسات التي تأخذ القرار، واجعلوا الحوار والتحاور مبدأً للتشارك الاجتماعي، وأشيعوا الأمن اللغوي، وافشوا السلام الاجتماعي في المؤسّسات واعملوا على تحقيق الإصلاح الشمولي في عملية اتّخاذ القرارات السياسية وصيانة الحقوق والحريات، وهذا كلّه يمكن تحقيقه إذا وقع الاهتمام بإصلاح منظومتنا التربوية، وتحريرها من الماضوية والمركزية.**

المقترحات: هي مجرّد توصيات نرفعها لمن يعنيه الأمر في تحسين عملية التعليم، فأدعو إلى مواكبة التحوّلات العالمية، وتكييف اللغة العربية بوصفها لغة الانتماء والهُوية، مع هذه الفتوح المتسارعة في مشهد التواصل الإنساني، ومن الضروري بمكان التخلّص من الإرث الاستعماري في مجال التعليم. وأدعو على وجه الخصوص إلى:

- متابعة تدريس المواد العلمية بالعربية في الجامعة؛
- متابعة متسارعة لمحو الأمية؛
- سنّ قوانين تعتزّ بالهُوية الوطنية؛
- تحقيق المساواة والعدالة للجميع؛
- تكافؤ الفرص لكلّ التلاميذ، وخاصة للمتفوّقين؛
- محاربة النظرة الدونية للمرأة؛
- مساهمة القطاع الخاص في دعم التعليم؛
- الإغداق المادي على البحث اللغوي والبحث التربوي خاصة؛
- تأهيل مدارس الريف.

الهوامش

[1]ـ فتحي فارس + مجيد الشاربي، تعليمية اللغة العربية. تونس: 2003، سلسلة التربية، دار محمد علي للنشر، ص 5.

[2]ـ علي القاسمي "الطفل واكتساب اللغة بين النظرية والتطبيق" محاضرة ألقيت في مؤتمر مجمع اللغة العربية. دمشق: 2007، المؤتمر السنوي السادس، ندوة: لغة الطفل والواقع المعاصر.

[3] ـ Ferguson ; Charles, Deglossia, Word, 1959, vol 15 , p 325- 340

[4] - Ibid., p 126-127.

[5]ـ محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة. الجزائر: 2007، دار الأمة، ص 212ـ213.

[6]ـ ينظر: إعداد التلاميذ للقرن الحادي والعشرين، دونا أوتشيد وآخرين، تر: محمد نبيل نوفل. دمشق: 1998 المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر.

طبع هذا الكتاب بـ:
دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع
05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة ـ الجزائر
الهاتف: 021.68.86.49 **الفاكس:**021.68.86.48
البريد الإلكتروني : khaldou99_ed@yahoo.fr

في هذا العدد

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت، ، الجزائر

الهاتف : 25/ 213 021.23.07.24 الفاكس: 213 021.23.07.07

ص.ب : 575 الجزائر - ديدوش مراد

www.csla.dz